الكلونيل اسكوت

مذكرات الكلونيل اسكوت

عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر

1841

ترجمة وتعليق :

إسماعيل العربي

تيارت

د. كمال بن صحراوي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
جامعة ابن خلدون. تيارت

من مكتبة الإمام الوركي

مذكرات الكلونيل اسكوت

الاضرع

عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر

1841 .

د. كمال بن صحراوي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة ابن خلدون. تيارت

ترجمة وتعليق

إسماعيل العربي

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981

مقدمة المترجم

يمكن اعتبار مذكرات الكلونيل اسكوت (Scott) بمقدمتها وملحقاتها عملا تاريخيا قائما بنفسه ، ومن ثم ، فقد كان من الطبيعي ان يقتصر مجهود المترجم على نقلها الى اللغة العربية مع الشروح والتعليقات الضرورية ، خصوصا ، لتوضيح أسماء بعض الأعلام والأماكن. على أنه بعد التفكير والتروي ، بدا لي أن تقديم هذا الكتاب وشخصية الكلونيل اسكوت للقارئ العربي شيء قد يكون مفيدا ويساعده على تكوين فكرة تمهيديّة عن الكتاب الذي هو مقبل على قراءته ، في الوقت الذي يستأنس فيه بالشخصية التي سيرافقها في سلسلة من المغامرات والأعمال في فترة تمتد على سنة كاملة .

والظروف التي سنتعرف فيها على شخصية الكلونيل اسكوت ، ظروف غير عادية : بل هي ظروف دقيقة للغاية . فان الجزائر التي استقبلت الكلونيل اسكوت ، كانت قد تحررت من قيود معاهدة تافنا منذ أكثر من سنة ، والحرب فيها على أشد ما تكون ضراوة .

فإذا كانت المقاومة التي يقودها الامير عبد القادر قد اكتسبت في هذه الفترة قاعدة مهمة من وحدة الصف والتجارب في فنون القتال والتنظيم العسكري والتخطيط الاستراتيجي (ولاسيما فيما يتعلق بوضع خط دفاعي يتكون من المدن الجنوبية المحصنة مثل تازا وتكدمت وسعيدة) . فان قوات العدو ـ في مقابل ذلك ـ قد زاد عددها وعتادها وتأقلمت لظروف الحرب الجزائرية ، كما زادت جراة القادة العسكرين في عمليات التوغل التي أسفرت عن احتلال بعض المدن الداخلية . وكذلك تحسنت وسائل القمع والتدمير التي يستعملها الجيش الفرنسي ، في الوقت

الذي تبلورت فيه السياسة الاستعمارية الفرنسية واتخذت طابعا من الشمول والالحاح لم تعرفه في أي وقت في غضون السنوات العشر الماضية.

ونتيجة لهذه الاعتبارات كلها ، فقد تحوّلت طبيعة الحرب الجزائرية من حرب المواقع المحصنة من طرف العدوّ والمناوشات والمعارك الصغيرة والحصار الاقتصادي من طرف الوطنيين ، الى عراك شامل استخدم فيه الجيش الفرنسي قوته المتفوّقة بدون تحفظ ، واستعان الأمير عبد القادر بمعرفته بالأرض وبطبيعة شعبها ، وخصوصا بايمانه الذي لا يتزعزع في قضية الحرية ، لمواجهة قوى الظلام والتدمير.

وهذه النقطة (الايمان بقضية الحرية) ، هي نقطة الالتقاء والقاسم المشترك بين الأمير عبد القادر والكلونيل اسكوت الانجليزي الذي جاء متطوعا لمناصرته ، بناء على اتفاق تم بين الشخصيتين بواسطة معتمد الأمير في جبل طارق ، السنيور «مانوتشي» ، في نطاق مشروع كان الأمير يستهدف من ورائه تدعيم قيادته العسكرية وتعزيزها على صعيد التخطيط والتنفيذ معا ، بعناصر من الضباط الذين حاربوا في اسبانيا تحت لواء الحرية وضد الرجعية والاقطاع الذي كان يتقمصه «دون كارلوس» ومن ورائه الكنيسة وأسرة البوربون. وهذا المشروع لم يتحقق كله ، لأسباب يذكرها الكلونيل اسكوت ، ولكنه عرف بداية التنفيذ بمقدم الكلونيل اسكوت.

وصل الكلونيل أسكوت الى تيطوان في 26 فبراير ، سنة 1841 برفقة السنيور «نويل مانوتشي» ، ومن هناك سار الى تازا ، ثم الى وجدة ليدخل إلى مملكة الأمير عن طريق تلمسان ، بعد رحلة شاقة تعرض أثناءها لمختلف المضايقات والأخطار في المغرب الأقصى ، خصوصا ، بوصفه مسيحيا. على أن عناية السلطان عبد الرحمن بتوفير الحماية والحراسة العسكرية الضرورية له ، وما لقيه صاحبنا من التكريم والحفاوة من سلطات الأمير ، بعدما دخل الى مملكته ، سوف تنسيه متاعبه وتحرر نفسه التي تتجه الآن بكل قوتها نحو الهدف الذي جاء من أجله : مساعدة الجزائر على طرد الغزاة.

* *
*

كان المقدر والمتفق عليه أن يشغل الكلونيل اسكوت منصب المستشار العسكري ويكون ملحقا بقيادة الأمير عبد القادر الشخصية. ولكنه بعد ما تم الاتصال بين الشخصيتين وتباحثا في مختلف الشؤون ، اكتشف الأمير أن اسكوت ليس ضابطا عسكريا ممتازا فحسب ، ولكنه إلى جانب ذلك ،

مفكر سياسي واسع الاطلاع دقيق الملاحظة في كل ما يتعلق بشؤون أوربا السياسية . ومن ثم ، فقد اشفق من ان تقضي طعنة رمح او رصاصة طائشة على إمكنيات التعاون الخصبة في هذا الضابط . وكذلك قرر ، باتفاق معه ، ان يجعل مقر عمله في القيادة المركزية في تكدمت ثم في الزمالة ، وان تكون طبيعة هذا العمل سياسية ، عسكرية

وهكذا كان دور الكلونيل اسكوت من النوع الذي يقوم به الدماغ الايكتروني في عصرنا . دور خبير ذي مكانة خاصة من النوع الذي ينعتهم المصطلح الانجليزي (Brain-Truster) . فكان يجمع المعلومات العسكرية والسياسية والاقتصادية التي تحولها اليه مختلف الجهات ويخزنها ثم يغربلها ويصفيها وينسقها لتكون أساسا صالحا للقرارات والعمليات العسكرية .

وبعد فترة سنة من الدرس والعمل والتنقل بين تلمسان ومعسكر وتكدمت والزمالة ، جمع الكلونيل اسكوت حصيلة معتبرة من المعلومات تدهشنا بدقتها وسعتها معا ، ولاسيما ، إذا عرفنا ان الرجل لم يتعلم من اللغة العربية شيئا يذكر ، باستثناء تلك المجاملات التي كان البعض يوجهها اليه مثل « الكافر ، والكلب ، ابن الكلب » (وهي تعابير مازالت جارية في قاموس التخاطب بيننا إلى اليوم) والتي يحلو للكاتب أن يردّدها في مذكراته كثيرا كما لو كانت مصدر لذة خاصة !

ولما بدت في الافق الدولي (الأوربي) بوادر تشير الى وجود اتجاه لعقد مؤتمر للحلفاء يعالج مشكلة وحدة أراضي الامبراطورية العثمانية التي كانت الجزائر لاتزال تعتبر من ضمنها ، من وجهة نظر القانون الدولي ، عرض الكلونيل اسكوت أن يقوم بدور سفير معتمد للأمير عبد القادر ويمثل الجزائر في اي ملتقى دولي يعقد لهذه الغاية ، فقبل الأمير اقتراحه بعد مناقشة مختلف نواحي الموضوع ومنحه التفويض وأوراق الاعتماد التي تخوله القيام بهذه المهمة .

انه لمن المؤسف حقا ، ان يكون الكلونيل اسكوت قد تسرع (ونحن نفهم الاسباب التي دعته الى هذا التسرع) في نشر كتابه عقب عودته الى لندن مباشرة . فلو تمهل قليلا حتى ينتهي من المهمة التي كلفه بها الأمير ، لأمكنه أن يضم الى هذا الكتاب صفحات لا نشك في أنها تكون قيمة ، يقدم لنا فيها نبذة عن اتصالاته مع السفارة الفرنسية (التي قدمت تقريرا عنها الى جيزوت رئيس الحكومة) ، ومع اللورد «أبردين» ، وزير الخارجية البريطانية، الذي رفض استقباله بوصفه سفيرا للأمير عبد القادر ، ولكنه مع ذلك استقبله بوصفه مواطنا بريطانيا يريد ان يحدثه في شؤونه الخاصة » . وإذا لوجدنا بين أيدينا مصدرا مباشرا وأصيلا عن جانب من سياسة الامير عبد القادر الخارجية .

ومهما يكن من امر . فان المعلومات القليلة التي استقيتها من مصادر اخرى عن نشاط الكلونيل اسكوت في هذه الفترة . قد ضمنتها الفصل الذي خصصته لعلاقات الأمير عبد القادر مع تركيا وانجلترا في كتابي : «العلاقات الديبلوماسية الجزائرية في عهد الامير عبد القادر» ويكفي ان أشير هنا الى ان الامير قد حمل الكلونيل اسكوت ، إلى جانب مهمته السياسية ، ثلاث رسائل وجهها الكلونيل بواسطة وزارة الخارجية البريطانية : احداها الى السلطان عبد المجيد والثانية الى الصدر الاعظم والثالثة الى حمدان خوجه الذي كان يقيم آنئذ في الاستانة وكانت له اتصالات وثيقة بالباب العالي .

* *
*

والآن . لابد وان يتساءل القارئي : ما هي المساهمة التي تقدمها مذكرات الكلونيل اسكوت باعتبارها مصدرا تاريخيا ، وباعتباره هو شاهد عيان لكثير من الحوادث والوقائع التي يسجلها ؟

إننا إذا اغضينا النظر عن قيمة الكتاب الأدبية (والكتاب مهم من ناحية الوصف الأدبي . والكاتب له اطلاع واسع على الأدب الاسباني والفرنسي الى جانب الأدب الأنجليزي) ، واقتصرنا في تقويمه على أهمية المادة التاريخية التي يقدّمها ، فسنجد أن قيمة الكتاب تستند على اعتبارين أساسيين :

1 — انه يمثل ملاحظات شاهد عيان في المغرب وفي الجزائر ، حيث سجل انطباعاته الحية عن الحوادث أولا بأول ، بحيث يذكر تاريخ اليوم ، بل وساعة وقوع الحادث في بعض الاحيان .

2 ـ إن الكلونيل اسكوت . هو الكاتب الأوربي الوحيد (ونحن لا نعتبر «ليون روش» لانه كذاب ومزور مرتد) الذي كتب عن المقاومة الجزائرية من داخل المعسكر الجزائري ، وقد سجل قلمه كل ما خطر بباله ونشره في انجلترا بين بني قومه بكل حرية ، دون أن يتدخل أحد لمراجعته أو حتى للإطلاع عليه ، حيث أن الكتاب مكتوب بالانجليزية (ولم يترجم) ووضعت صيغته النهائية في لندن .

والمعلومات التي يقدمها الكلونيل اسكوت ، تجد ضمانا ادبيا كافيا في كون اسكوت انجليزيا يعتز بجنسيته ، ومسيحي العقيدة ويجاْر بمسيحيته (وهذا يبعد بنا عن عدد من الانتهازيين

الذين اعتنقوا الاسلام للجوسسة أو لأغراض خاصة ثم خانوا الاسلام والجزائر ، مثل ليون روش) ، وان هذا الرجل الذي يضع الشرف العسكري فوق كل اعتبار كتب ما كتبه عن الجزائر (مثل ما كتبه عن اسبانيا التي جرد سيفه وقلمه للدفاع عن حريتها أيضا) عن إيمان وعقيدة في حقوق الشعوب .

وهنا يجب ان نفتح قوسا لنؤكد ان الكلونيل اسكوت لم يكن جنديا مرتزقا . كما انه لم نرد قط إشارة في مذكراته الى مرتب يتقاضاه او مكافأة تلقاها من الامير . والهدية الوحيدة التي ذكرها هي التي امر الأمير البوحميدي بأن يقدمها اليه وهي عبارة عن فرس عربي وجلود اسد . ولكن اسكوت لم يقصد الى معسكر البوحميدي وقد تنازل عن هذا الفرس . لان القوانين المغربية تمنع تصدير الخيول الى الخارج (واسكوت أبحر من تيطوان)

والموضوعات التي تقدم فيها مذكرات الكلونيل اسكوت مساهمة من وجهة نظر المؤرخ الجزائري كثيرة ومتنوعة . ونحن لا نريد أن نفوت على القارئي المتفطن ، بعرضها ، لذة اكتشافها واستغلالها ، متى كان القارئي باحثا ، لأغراض البحث ، ولكنّنا ، مع ذلك ، نذكّر (على سبيل المثال لا على سبيل الحصر) بالموضوعات التالية :

— ان الكلونيل اسكوت هو الكاتب الوحيد الذي يقدم لنا معلومات مباشرة عن صناعة الأسلحة التي استحدثها الأمير عبد القادر . وعن المصنع المهم (في تكدمت) الذي كان ينتج مدافع تزن قذائفها أربعة أرطال تحت إدارة خبير اسباني . اسمه « دون خوسي » ، وعن مصنع البنادق الذي كان معدل انتاجه اليومي 8 بنادق في المرحلة الأولى .

— إن وصفه لتدمير تكدمت لدى غزو الفرنسيين لها ، من داخل المدينة حينما شرع العرب في اشعال النار فيها ، ومن خارجها ، وهو يشاهد عاصمة الصحراء تتحول الى انقاض ورماد . وصف يتسم بالقوة والدقة الفتوغرافية ، وقد صيغ في أسلوب يسمو به المؤلف عن مستوى أحداث الساعة ليستخلص العبرة من المأساة ويضع إصبعه على جرثومة الداء : جشع ملك فرنسا وطموح أبنائه لكسب النياشين باراقة الدماء ونشر الخراب.

— وكذلك يتسم وصفه للجماعات اليهودية التي اضطر باعتباره مسيحيا — الى الإقامة بينها في المغرب بالجد والأصالة . ومبلغ علمي أن أحدا من الكتاب الذين درسوا المجتمع اليهودي الذي كان يعيش على هامش المجتمع المغربي حتى ذلك الوقت ، لم يستغل معلومات اسكوت . كما أنه لم يشر أحد منهم الى أنه أطلع على هذا الكتاب .

— ان اهتمام اسكوت بالناحية الاقتصادية في مملكة الأمير عبد القادر دفعه الى تسجيل ملاحظات قيمة عن موارد الثروة الطبيعية في البلد . وقد شملت هذه الملاحظات : البحث عن المعادن (نهرمينة وجبال مليانة) وتحسين انتاج أنواع من الصوف ؛ وتهجين سلالات من الحيوانات (الماعز الكشميري) التي يلائمها مناخ الجزائر . وكذلك تعتبر المعلومات التي يقدمها الينا الكلونيل اسكوت عن نظام الاستراد والتصدير (ولاسيما تصدير الخيول واستيراد مواد الصباغة) والتعرفة الجمركية المفروضة على الواردات ، ومستوى أسعار بعض الحاجيات في المغرب ، وطرق القوافل (ولاسيما الطريق المؤدية من تمبكتو الى فاس ، مستودع التجارة البريطانية ، والى تلمسان ، في عهد السلطان عبد الرحمن ، معلومات ذات قيمة خاصة ولا يستغني عنها باحث في التاريخ الاقتصادي للمملكتين في ذلك العهد .

— والمهمة التي كلف بها الجنرال بيجو «نيقولا مانوتشي» (شقيق معتمد الأمير في جبل طارق) لاقامة اتصالات مع الأمير لحمله على الدخول في مفاوضات معه (راجع : الملحق 2) ، لانجد تفاصيلها الا في مذكرات اسكوت .

— ومذكرات اسكوت هي المصدر الوحيد الذي نملكه عن الدور الذي لعبه السينيور « مانوتشي » في اتصالات الأمير مع الخارج عن طريق جبل طارق ، وعن المكانة التي يتمتع بها ابن قنصل ايطاليا في بنزرت عند الأمير ، وَلَدَى السلطات المغربية .

تلك وغيرها حقائق ومعلومات يزيد من قيمتها ، كما أشرنا ، أن الكاتب عني بتسجيلها في اللحظة والتوّ ، سواء أكانت تتصل بمعركة حربية أوزيارة مهمة أومقابلة أوغزوة قام بها الأمير على القبائل العاصية أو شنها الفرنسيون على العرب ، وذلك دون أن يترك الفرصة للزمن ليعبث بالذاكرة ويغيرأسماء الأشخاص والأماكن أويحرفها .

وفي مقابل ذلك ، نلاحظ أن نطاق اتصالات الكلونيل اسكوت أثناء اقامته في تكدمت وفي الزمالة كان ضيقا ، وإذا حكمنا عليه بالاسماء التي وردت في مذكراته ، فهو ضيق جداً ولربما كان كذلك يرجع الى الوضع الذي يفرضه عليه عمله حيث كان مكلفا بمعالجة أمور دقيقة . ولكنه من الممكن أيضا أن يكون اسكوت قد اقتصر على ذكر الأسماء التي لها أهمية خاصة واقتضى السياق ذكرها .

ومن جهة أخرى ، فلوكان اسكوت يعرف شيئا من العربية لقدم لنا ، بدون شك ، مادة اغزر عن المجتمع العربي الذي عاش في احضانه سنة كاملة . ولكان وصفه للعادات والتقاليد والاكل واللباس اكثر طلاوة وطرافة .

ولكن هذه العيوب ، يسترها حسن نية اسكوت واحترامه للعُرْف والأخلاق ، واخلاصه القائم على اساس من الفهم والوعي وحبه للشعب الجزائري الذي يناضل من أجل قضيته ولشخص الأمير الذي تنبأ بأن يمتد سلطانه على الجزائركلها ، بل وعبر الصحراء الكبرى ايضا . والذي وضعه في مقدمة زعماء العالم المعاصرين ، من طراز محمد علي ونابليون الأول .

بقي لي الآن أن أقول كلمة عن الترجمة والهوامش . فهذه الترجمة يمكن ان تعتبر دقيقة الى اقصى حدّ ، حيث أنني تابعت النص وبذلت أقصى الجهد لكي أنقل المعنى كاملا دون التضحية بظل من ظلاله . وقد سهّل علي المؤلف هذه المهمة بأسلوبه القوي والسلس في نفس الوقت وبعدم اصطناع التكلف والمحسنات اللفظية . والحق أن لغة اسكوت لغة رفيعة واسلوبه من السهل الممتنع . والانجليزية التي كتب بها الكتاب انجليزية حديثة خالية من الغريب والألفاظ الميتة .

وفيما يتعلق بالهوامش ، فقد رأيت الا أثقلها بالمراجع ، آخذا بعين الاعتبار ان الكتاب على كل حال يعكس انطباعات سائح ، وهي انطباعات شخصية بالضرورة . وقد اقتصرت هذه الهوامش (فيما عدا بعض التصحيحات والتوضيحات التي يتطلبها المتن) على التعريف باسماء الأعلام والأماكن وتجنبت ، بقدر الامكان ، عقد مقارنات ، كانت ستخرج عن نطاق الغاية التي رسمتها لاخراج هذا الكتاب ، بين رواية أسكوت لبعض الحوادث ورواية غيره من المؤرخين الفرنسيين . ومثل هذه المقارنات والمقابلات ، تدخل في نطاق مهمة المؤرخ والباحث ، وليست مهمة المترجم .

الجزائر 6 اغسطس 1975م

اسماعيل العربي

مقدمة المؤلف

كنت أثناء عقد معاهدة «فيجرة» (Vegara) أعمل ضابطا في جيش المشاة الثامن الاسباني . وتطبيقا لمواد هذه المعاهدة ، أدمج الضباط الكارليون في جيش « إيزابلا الثانية » . وقد أصبح من المستحيل عندئذ بالنسبة لكل ضابط يعمل بدافع من المبادئي ، البقاء تحت قيادة أولئك الذين ساندوا قضية الاستبداد وكانوا في كثير من الحالات أداة وحشية لقتل أصدقائنا وزملائنا في السلاح (1).

---

(1) كان الملكيون المتطرفون يرون أن ما كان يقوم به الملك فرديناند من التنكيل بالأحرار غير كاف فقاموا بمحاولة لقلب نظام الحكم في سنة 1827 ، ولكنها قضى عليها بالسلاح . على أن الحزب ظل مع ذلك متمسكا بالأمل في أن يتمكن يوماً مّا من حمل زعيمه «الدون كارلوس» ، الى سدة الحكم ، بعد وفاة الملك «فرديناند» الذى لم يخلف ذرية على الرغم من زواجه ثلاث مرات . ولما وضعت الملكة «كريستين» ، آخر زوجاته ، بنتا في سنة 1830 ، قرر مجلس الحكم الأعلى (الكورتيس) إعادة الاعتبار الى القانون الذي صدر في سنة 1789 والذي يعترف للأنثى بالحق في وراثة العرش (وهو قانون يعارضه الملكيون المتطرفون بقانون آخر أحدث يحصر وراثة العرش في الذكور) . ولما مات « فرديناند » ، أعلنت ابنته اليزابيت (1833 — 1868) ملكة على اسبانيا . وإثر ذلك ، سارع حزب الملكيين المتطرفين الى حمل السلاح بقيادة « الدون كارلوس » الذي لقب نفسه «شارل الخامس » وقد أيده في ادعاءاته ، حضوصا ، ملك فرنسا وملك نابولي وملك البرتغال الذي كان في حالة مشابهة . وكذلك دفع «الدون كارلوس» الذي تؤيده الكنيسة باسبانيا في حرب أهلية وقاد الثورة ضد الملكة الوالدة كريستينا . وقد استمرت هذه الحرب التي شارك فيها الكلونيل اسكوت في صف الشرعيين من سنة 1833 حتى سنة 1839 وانتهت بفضل تحوّل الجنرال « موراطو» الذي كان من أنصار كارلوس ولقي معاملة سيئة منه ، على رأس جيشه الى صف الملكة كريستينا ، وقد وقع معاهدة فيجرة في 31 أغسطس ، 1839 .

ونتيجة لجراح أصبت بها ، قرر المجلس الطبي أنني غير صالح للخدمة في جيش المشاة ، ولو أن القوانين الحربية الاسبانية تسمح لي بالالتحاق بسلاح الخيالة . ومع ذلك ، فقد رفضت الانضمام الى هذا السلاح ، وذلك لأن هذا معناه أنني سأكون تحت قيادة كبار الضباط الأعداء

ولهذه الاعتبارات ، فقد انسحبت من الجيش ، وكلي عزم وتصميم على السفر الى تكدمت للالتحاق بالأمير عبد القادر الذي أوحت إلي مقاومته المجيدة لقوات الفرنسيين الموحدة . بشعور عميق من الاعجاب ، مع أنني في ذلك الوقت لم أكن أنظر اليه الا من زاوية كونه زعيما ورئيسا عربيا .

وتطبيقا لهذا العزم ، قصدت الى مدريد ، ومن هناك اتجهت الى جبل طارق . حينما وقع انقلاب (*) سبتمبر ، 1840 .

وفي ذلك الحين ، كنت قد وصلت الى (بنمهى) في الأندلس . ولكنني بعدما ناضلت طيلة هذه المدة من أجل الحرية ، ظهر لي أن هذا ليس هو الوقت للتخلي عن العلم الذي دافعت عنه .

وتبعا لذلك ، فقد ساعدت الجنرال دون خوسي بوفيانو والجنرال منديز فيجو بكل ما اوتيت من مقدرة ولم اتركهما حتى أعلن الوصيّ الحالي على عرش اسبانيا وتم الاعتراف بحركة مدريد الانقلابية .

واصلت سفري حتى الجزيرة الخضراء (1) حيث تعرفت بالسيد مانوتشي (2) الذي كان في ذلك الوقت قائما باعمال صاحب السموّ الامير عبد القادر وقبلت المنصب الذي عرضه علي لأعمل رئيسا لأركان حرب الأمير.

(*) في الاصل بالاسبانية Pronunciamento

(1) مدينة في اسبانيا (Algésiras) تقع على ضفة مضيق جبل طارق وتقابلها على عدوة المغرب سبتة . استولى عليها العرب في سنة 710 م . وأخذها الفونس 11 صاحب قشتالة . وقد اشتهرت في عصرنا خصوصا بالمؤتمر الذي عقدته فيها الدول الأروبية بشأن المغرب في سنة 1906 .

(2) ابن قنصل ايطاليا في بنزرت . والكلونيل اسكوت هو المصدر الوحيد للمعلومات التي نملكها عن مانوتشي الذي قام ، كما سنرى ، بدور كبير في تنظيم الاتصالات مع السلطات الانجليزية في جبل طارق وخصوصا ، مع التجار الذين يمدون الأمير بمختلف السلع العسكرية بما في ذلك الأسلحة والذخيرة .

وعندما وصلت الى بلاط صاحب السمو الملكي ، زاد اعجابي بالأمير ووافقت على اقتراحه بانني سأقوم بمهمة أكبر في خدمته إذا ابقيت في الزمالة كي أعمل لأقدم الى العالم أجمع صورة دقيقة لدولته وللاحوال السائدة في مملكته . فقد رأى أن هذا العمل أفضل من المساهمة بجنبه في المعارك الحربية ، ولاسيما ، وأنني كنت أعمل بطريقة علانية ضد الفرنسيين . ثم انني ، من جهة أخرى ، لو شاركت في المعارك ، لوقعت تحت عقوبة القانون البريطاني الذي يحرم على الرعايا البريطانيين الانضمام الى جيش الأمير.

ولكنني في مناسبة معيّنة ، تخليت عن الاحتياط والحذر — كما سنرى — عندما عرضت على الأمير أن أقوم بهجوم على معسكر لاسترجاعها من يد الفرنسيين ، حيث كنت أعتقد أن استعادة العاصمة أمر ذو أهمية قصوى بالنسبة الى الأمير.

وعندما أنزل الفرنسيون قوات عسكرية في زي تركي في مستغانم في شهر اكتوبر الماضي ، وصرحوا في بيان أصدروه بانهم قرروا التخلي عن الجزائر ، فيما عدا مدينة الجزائر ووهران ، لحكومة تركية وأن الحلفاء قد عينوا ابن الباي السابق في عرش اجداده ، نصحت سمو الامير بان يعرض قضيَّة الجزائر على الحلفاء .

على أن هذا البيان وما انطوى عليه من المغالطة ، لم يكن سوى خدعة حربية لذر الرماد في عيون العرب لحملهم على التخلي عن المقاومة والخضوع لسيادة فرنسا .

فلو طبق الفرنسيون معاهدة تافنا باخلاص — تلك المعاهدة التي عقدت بين الأمير وبين الوالي العام الحالي – لبقيت مدينة الجزائر في أيديهم ، بل وجميع الأراضي التي تنازل لهم عنها الأمير ، أيضا . وإذا لأمكنهم احتكار التجارة الخارجية مع مملكة الأمير ، بل وأيضا ، التجارة مع تمبكتو وجزءا كبيرا من التجارة مع المغرب الأقصى .

كلا ! فإن الفرنسيين فضلوا خرق المعاهدة ، فقضوا بذلك على الثقة التي وضعها فيهم بطل – بطل لا يعرفه سوى سيفه ، وهو الآن لا يستطيع ، ولا يريد أن يثق في كلمتهم مرة أخرى

وفيما يتعلق بانجلترا — بلدي — فيجب أن أقول إن الحكومة التي تسير دفة شؤون الأمة البريطانية في الوقت الحاضر ، قد دلت على قصور في حكمها على الأشياء ، حيث أنها لم تلح على فرنسا بتنفيذ الضمانات التي قدمتها عندما استولت على مدينة الجزائر ، بحيث تضع القرار النهائي بشأن مصير هذا البلد في يد الحلفاء وفي مؤتمر يعقد لهذه الغاية .

إن الحكومة البريطانية لم تصنع شيئا في هذا السياق ، وذلك على الرغم من أن صاحب السمو الملكي يصر الآن على عقد مثل هذا المؤتمر . بل ويبدي استعداده لوضع قضية بلده العادلة أمام محكمة دولية من هذا النوع .

لقد وقع ولا يزال يقع عدوان وحشي مناف لجميع الاعتبارات الانسانية ولا يوجد ما يبرره على الجزائر . وهذه الحرب لا يمكن للامة الفرنسية أن تتوقع منها أية فائدة في نهاية الأمر . ولكن هذه الحرب تخرب التجارة البريطانية وتقضي على مصالحها الحيوية في هذا الجزء من العالم . فان متوسط قيمة الصادرات البريطانية الى الجزائر وقيمة وارداتها من هذا البلد ، تبلغ نحو سبعة ملايين جنيه استرليني (وهذا يشمل المناطق التي تحتلها فرنسا ومملكة الأمير)

وهدفي الوحيد من كتابة هذه المذكرات ، هو أن أبرّيء شخصية الأمير عبد القادر من الشكوك والشبهات التي تقذفه بها الصحافة الفرنسية ، بحيث يراه العالم الخارجي بشخصيته الحقيقية ـ شخصية بطل شاب ذي عقل مستنير وقلب نبيل . إنه بطل غير قادر على الخيانة ، وسياسة حكومته المتحررة خليقة ، لو أتيح له التربع على عرش الجزائر كلها ، بان يجعل من هذا البلد في وقت قصير أكثر بلدان العالم الاسلامي تقدما وازدهارا .

إن الامير يعتبر الأمة البريطانية صديقة للشجعان والأحرار ، ولكن حكومتنا لا تستطيع مساعدته في نضاله المجيد من أجل حرية بلده واستقلاله ، ولو أن الأفراد من البريطانيين يستطيعون ذلك .

إن قضية الأمير عبد القادر أجدر بمساعدتهم وأحق بعواطفهم الانسانية ، من قضية اليونان ، ولاسيما وأن الجزائر ذات أهمية قصوى للمصالح التجارية البريطانية .

وبقدر ما تسمح به قوانين بلادي ، فان خدماتي ستكون دائما تحت تصرف سموّ الأمير عبد القادر . ولكنني مع ذلك ، لم أجرد حتى الآن سيفي من غمده للقتال من أجل قضيته ، وأنا لا أنوي أن أصنع ذلك إلا إذا بلغ دمي « درجة الغليان » (*) . وعندئذ ، سأقاتل من أجل الأمير ، حتى ولو كان ذلك ضد قوانين بلدي .

(*) العلامة في الأصل .

إنني أمجد اسم بريطانيا وأعتز بالانتماء الى هذه الأمة ، ولذلك فسأكون آسفا لأن أخاطر بامتيازات المواطن البريطاني ، حتى ولوكان ذلك من أجل قضية صديق قريب الى قلبي عزيزعلي .

لم يحدث شيء ذوبال . منذ أن غادرت صاحب السمو الملكي ، فيما عدا احتلال الفرنسيين لتلمسان . وهذه العملية كان الأمير يتوقعها . ولكي يحافظ سموه على خطوط مواصلاته مع المغرب الأقصى ، انسحب مؤقتا عن طريق الصحراء الى الأراضي التي تنازل له عليها سلطان المغرب الأقصى ، مصطحبا معه جيشه النظامي ولكنه لم يكد يستقر به المقام في هذه الأراضي ، حتى اجتاز نهر تافنا وهجم على الفرنسيين في الشهر الماضي (1) وقد كانت خطته الحكيمة في هذه العملية ، هي أن يترك للفرنسيين الفرصة لكي يثقلوا أنفسهم بالنهب والسلب ثم يهجم عليهم في الوقت الذي تكون فيه روح المقاومة عندهم ضعيفة وأقل فعالية .

لقد ذكرت البلاغات الرسمية الفرنسية ان خسائرهم قد بلغت 53 جنديا وثلاثة ضباط قتلوا في هذه المعركة . ولكن الأخبار الواردة من سمو الأمير ، تقول ان عدد القتلى الفرنسيين بلغ ثلاثمائة ، وذلك بالاضافة الى استيلائه على جميع الأسلاب والغنائم التي أخذوها .

ذلك هو الزعيم الذي ادعى الفرنسيون أن الجزائريين جميعا قد تركوه وتخلوا عنه وأنه أصبح مجرد لاجيء في المغرب الأقصى !

والصحف الفرنسية في الوقت الحاضر تعزو النية الى الحكومة الفرنسية بان تقوم بحملة بحرية لقصف طنجة والصويرة (موجادور) لكي تنتقم مما تسميه خيانة السلطان عبد الرحمن .

فهل يدرك الفرنسيون أن سلطان المغرب ملزم بحكم الروابط الدينية بحماية الأمير؟

هل يدركون أنه مهما تكن الاعتذارات التي يقدمها اليهم السلطان لكي يتجنب قطع العلاقات بينه وبين فرنسا ، فهو ، في نهاية الأمر ، سيفضل هذه القطيعة على محاولة استعمال العنف مع الأمير عبد القادر ، أو حتى توجيه اللوم اليه؟

فإن الأمير عبد القادر هو البطل الذي يدافع عن الدين الإسلامي الذي يدين به السلطان عبد الرحمن . وبالتالي ، فلوقام بأية محاولة من هذا القبيل ، لوجد الشعب المغربي يقف ضده ، وفي جانب الأمير عبد القادر .

---

(1) وقعت المعركة التي يشير اليها اسكوت بين الأمير عبد القادر الذي كان على رأس الجيش النظامي وتسانده قوات من بني سناسن والجنرال بيد وعند الحنايا في 20 مارس 1842 ، وقد تكبد العد وفيها خسائر معتبرة .

وستكون النتيجة حينئذ — على الأرجح — تحويل الصولجان الى يد رجل عسكري هو أقدر على حمله .

إنني أختتم هذه المقدمة بنصيحتي الى الفرنسيين — الذين أقدر الجنود الشجعان منهم — بأن ينسحبوا من ميادين افريقية ، حيث أنه لا يوجد مجد يجنونه في هذه المعارك ولا توجد أية فرصة لأي واحد منهم لأن تقام له تماثيل لتخلد ذكراه للأجيال القادمة في هذا البلد . وبدلا من هذه التماثيل ، فان المرجح أن تشاهد الأجيال في وقت من الأوقات ، برجا تذكريا مثل هرم « جرجي » (*) القائم في تونس ، وهومبني بالجماجم .

لندن أبريل ، 1842 .

(*) يوجد برج تذكاري في تونس بني بجماجم الاسبان الذين سقطوا في المعارك ضد شارل الخامس (تعليق المؤلف).

الفصل الأول

غادرت جبل طارق في 25 فبراير 1841 على متن الباخرة المسماة «الأسرة المقدسة» ووصلت الى تيطوان صباح يوم 26 من نفس الشهر . وأما صديقي السيد «مانوتشي» ، فقد سبقني الى تيطوان ببضعة أيام .

وموقع مدينة تيطوان (1) موقع جميل حيث أنها تمتد على هضبة على مسافة حوالي ميلين من الشاطيء ، وأما عدد سكانها فيمكن تقديره بنحو 15 ألف نسمة ، حوالي أربعة آلاف منهم من اليهود . والمدينة — مثل معظم المدن الافريقية — تتكون من منازل ذات دور واحد ، ولو أنه توجد فيها منازل من دورين . على أن جميع المنازل مسطحة السقوف . وشوارع المدينة ضيقة حيث لايتجاوز عرض الشارع منها ست أقدام . وهي قذرة جدا . ومنازل اليهود بنيت على الطراز المعماري الشرقي وتتسم بالرشاقة . وأما الأحياء التي يسكنها المسلمون من المدينة ، فإني قد حرمت من رؤية منازلها من الداخل ، حيث أنني مسيحيّ .

واليهود في تيطوان مثلما هم في جميع المدن التي تسود فيها الديانة الاسلامية — يعيشون في حي خاص بهم ويعاملهم المسلمون على أساس أنهم أقل شأنا . ولكن المسلمين

(1) تيطوان (او تيطاوين) مدينة مغربية تقع على مسافة 34 كيلومتر في الجنوب الشرقي من سبتة ، على مرتفع من الأرض وتشرف على نهر مرتين (أومرتيل) الذي يصب في البحر على مسافة سبعة أميال من المدينة .

يسمحون لهم بالعيش في بلدهم كما يحثهم القرآن الذي يمنحهم الحماية باعتبارهم من الذميين الذين يخضعون للحكام المسلمين . وهم يتوهمون أن عاداتهم السلمية لن تعرض الامبراطورية العثمانية للخطر . على أن أعمال المسيحيين العسكرية في افريقية قد تسببت في اخراج كثير منهم من البلدان الافريقية ، ولو أن ذلك لم يحل دون احترام المسلمين للمسيحيين . والمسيحيون الذين يعتنقون الاسلام ، يسمح لهم بلباس العمامة الخضراء ويعاملون معاملة الأشراف .

والتجار اليهود في المغرب الأقصى ، مثلما هي الحال في الجزيرة العربية ، هم الذين يمارسون النشاط التجاري الأساسي . ولكنهم كثيرا ما يجبرون على تحويل ثرواتهم الى الحكام ، بسبب ارتفاع الضرائب والجزية المفروضة عليهم . ومتى عرف عن يهودي أنه جمع ثروة طائلة تسعى السلطات المحلية بجميع الوسائل ، وبمختلف الأعذار للاستيلاء عليها .

وبين النساء اليهوديات يوجد كثير من الفتيات الجميلات ، ولكن الشيء الذي استلفت نظري أكثر من كل شيئ آخر في هذه النساء هو ما يحملنه من الذهب والثياب المزركشة التي يرتدينها والحزم المنسوجة بخيوط الذهب أو بخيوط الفضة ، حسب مركز صاحبة الحزام الاجتماعي . وفي هذا السياق ، يجب ألا أنسى قرط اليهوديات . فقد رأيت فتاة ، وهي ابنة يهودي يعمل نائبا لقنصل فرنسا ، ترتدي قرطين يتدليان من أذنيها في شكل كمثري ، وكان القرطان من الثقل بحيث أنها اضطرت الى تعليقهما بخيط من الذهب الى عصابة الذهب التي تزين شعر رأسها والتي كانت محلاة بالجواهر !

والقرط ، من الحلي الفاخرة التي تعتز اليهوديات بتزيين انفسهن بها ، مثلما يفتخرن بامتلاك الأحجار الكريمة . وهذه المجوهرات الشرقية التي تزين رؤوس اليهوديات كثيرا ما تبلغ قيمتها عدة آلاف من الدولارات . واما الجوارب ، فانه لا يروق لباسها الا لقليل من اليهوديات ، حيث أنهن يفضلن عليها الخلخال المصنوع من الفضة والذي يزيد في جمال الرجل التي تلبس « البلغة » المغربية الحمراء اللون .

بقينا في تيطوان حتى الخامس من شهر مارس حينما أتممنا تجهيز أنفسنا للسفر الى الجزائر ، أو بعبارة أدق ، الى تكدمت ، عاصمة مملكة الأمير عبد القادر . وقد كانت جماعتنا تتكون من السيد مانوتشي ، وسيد شاب يسمى دومينجو بيكاردو ، من سكان جبل طارق ويعمل كاتبا للسيد مانوتشي ، وشابة اسبانية تدعى مدلينا وأختها التي تبلغ حوالي ثماني سنوات من العمر . فأمامدلينا ، فقد كانت ذات حظ متوسط من الجمال، ولكنها لم تكن تتمتع بحظ من الرشاقة والذكاء . وقد ارتبط بها السيد مانوتشي لكي ترافق زوجته التي كانت حريصة على أن تحتفظ بجنبها برفيقة أوربية أثناء اقامتها في زمالة الأمير عبد القادر . وأما خدمنا، فهما شاب اسباني يدعى رفائلو، وشاب برازيلي يسمى كانديدو (أي الطيب) والواقع أن صراحة طبع الأخير وانفتاح نفسه ، خصائص جعلت الاسم ينطبق على المسمى . وبالاضافة الى هؤلاء كان يرافقنا اثنان من الجزائريين يتجهان الى تلمسان ، أحدهما يسمى محمد والآخر موسى ويهودي يدعى حاجون من تيطوان . وقد كان على رأس قافلتنا التي تتكون من 18 بغلا وفرسا وثمانية عشر رجلا ، بغال محترف.

وهذا الخليط من المسافرين من العرب والمسيحيين واليهود ينطوي على كثير من الغرابة . فقد كانت الانجليزية والفرنسية والعربية والاسبانية هي اللغات التي نستعملها على التوالي أو في وقت واحد للحديث ، وهو شيء يذكرني ببرج بابل !

على أنه يجب ألاّ أنسى ذكر ضابط في جيش السلطان يسمّى عبد الكريم ، كان يرافقنا لتأمين سلامتنا . وَوَصْف هذا الضابط قد يسلِّي أولئك الذين لم يُتَحْ لهم قط أن يشاهدوا ضابطاً في جيش السلطان يرتدي زيّه الرسمي . وهذا الشخص يبلغ طوله نحو خمس أقدام وبوصتين ، وعمره نحو الخمسين ، وأسنانه في حالة يرثى لها . وأما وجهه فيحمل علامات الشمس وأخاديد السنين التي جعلت ظهره متقوسا . وأما لباسه فيتكون ـ ابتداء من تحت الى فوق ـ من زَوْج من الصندل أصفر اللون وسراويل واسعة لا تغطى ساقيه حيث تقف عند الركبة ، وقميص أبيض من القطن . والقميص والسراويل ربطا بحزام أحمر . وفوق القطعتين حائك ، منسوج من الصوف

يلف جسم الرجل ويهبط على الكتف اليمنى ويغطي رأسه الجزء الأعلى من « قشابية مصنوعة من الجوخ الانجليزي الرفيع ، وقلنسوة (طربوش) يرتديها جميع جنود السلطان . وأما سلاح صديقنا الضابط فقد كان ينحصر في سيف يحيط به غمد من الجلد أصبح يعلوه الصدأ لعدم استعماله . وقد علقه حول رقبته بحبل مفتول ، وذلك بالاضافة الى بندقية تركية طويلة ذات ماسورة واحدة وذات عقب مرصَّع . وهذه البندقية كان يحملها بكثير من الاعتزاز في كيس من القماش أزرق اللـــون .

وعندما وصلنا الى باب مدينة تيطوان ، لَبَسْنَا جميعا « برانس » وطرابش ، وذلك حتى نتجنَّب التعرض لاهانة بعض السكان ، الذين يرون في دخول مسيحيّ إلى داخل البلد شيئاً جديداً ومثيراً ، حيث أنه لم يكن من المسموح للمسيحيين بالمرور في هذه البلاد منذ عدة قرون ، وذلك فيما عدا الذين يعتنقون الاسلام . والواقع أنه لم يكن في وسعي ، أنا أيضاً ، المرور بهذه الأرض ، لولا الحماية التي بَسَطَتْهَا حكومةُ السلطان على السيد مانوتشي ، سفير صاحب السموّ الملكي ، الأمير عبد القادر . وهذه الظروف وفَّرتْ لنا كذلك استقبالاً طيباً من جميع المسلمين الحقيقيين ، حيث كان الجميع يعترفون للأمير بأنه حامي الاسلام وبطل الجهاد المقدّس في الحرب ضدّ الكفـــار .

ولـما غادرنا تيطوان ، خرج لتوديعنا عدد كبير من السكان . وقبل أن نخطوَ الخطوات الأولى ، تقدَّم الينا شيخ عجوز ورفع يديه الى السماء يدعو الله أن يسهل سفرنا ويجعله ميموناً بحيث نلتحق بسلام بحامي الإسلام . وبعد الظهر وصلنا الى قرية تدعى « همسل » تبعد بنحو فرسخ من تيطوان ، حيث توقفنا لقضاء الليل . ولدى وصولنا ، تقدم الينا رئيس القبيلة للترحيب بنا . إنه شيخ ذو مظهر وقور وعلى رأسه عمامة خضراء ، مما يدل على أنه من الأشراف ، وقد دخل في محادثات ، وقتا ما ، مع السيد مانوتشي الذي يتحدث اللغة العربية بطلاقة ، ثم ودّعنا مؤكداً لنا احترامه وصداقتـــه .

وبعد طعام العشاء مباشرة ، ظهر الشيخ أمامنا من جديد حاملا معه طبقا كبيرا من الكسكس مغطى باللحم المغلي والدجاج ونوع من الخبز يشبه الفطير المحلي . وإثر ذلك مدّ السيد مانوتشي يده الى الطبق ، على الطريقة العربية ، واقتطع لنفسه جناحا من دجاجة . ونظرا لأن أسفاري في البحار الجنوبية قد علَّمتني هذه الطريقة في الأكل ، فاني لم أتردّد في اقتفاء أثره ، فمددت يدي بدوري الى الدجاجة واقتطعت لنفسي فخذها ، ثم أخذت الخبزة فكسرتها بين يدي ، وشرعت في تناول عشائي الثاني ، الأمر الذي أثلج صدر صديقنا شيخ القبيلة العربية .

وأما مدلينا ودومنيجو اللذان لم يخرجا من بلدهما فأنهما كانا يتابعان هذا المنظر بكثير من الدهشة والاستغراب . ولكنهما تقبلا الأمور قبولا حسنا حينما أقنعناهما بقيمة المثل القائل « متى كنت في روما ، تصرف كما يتصرف الرومان » .

وفي هذه الأثناء أراق دومينيجو شيئا من « الروم » من زجاجة بينما كان يحاول فتحها على السجاد الذي جالسين عليه . وهذه الغلطة أغضبت صديقي مانوتشي الذي كان يخشى ردود فعل من الشيخ العربي . ولما سألته ما هو الضرر من سقوط بضع قطرات من الخمر على السجاد ، أجابني قائلا : إن هذه القطرات لو سقطت على ثوب الشيخ العربي لنزعه ولما ارتداه مرة أخرى إلا بعد غسله ، كما تقضي بذلك التقاليد الاسلامية . ولكنني أجبته بأنه إذا كان اراقة الخمر على الثياب يعتبر جرما كبيرا ، فان بعض العرب لا يتورعون عن تناول بعض القطرات . وبهذه المناسبة ، تذكرت أن السيد مانوتشي قد اصطحب معه يهوديا أعتنق الاسلام وسمى نفسه محمدا ولكنه كان يميل الى الخمر الوردي ميلا شديدا ...

وقد غادرنا قرية « همسال » في الصباح المبكر يوم 6 مارس ثم سرنا في طريقنا حتى تجاوزنا بعض الآثار الرومانية ، وقضينا الليل في وادي مجاور لها . والشيءُ الوحيد الذي يستحق التسجيل في مسيرتنا في ذلك النهار ، هو مرورنا بمكان يسمى زمر الأسرى ، تقول الاسطورة أن أم محمد (ص) مدفونة فيه . وقد يتصور الانسان أن هذا القبر الذي

يأوي عظام والدة أكبر مشرع في العالم ، النبي الذي يدين بدينه ربع البشرية مبني بالمرمر ، كلا ! إنه عبارة عن قبر محاط باشجار الصنوبر وبحائط مبني بالحجر لا يزيد ارتفاعه عن 4 أقدام . وهذا القبر يقدسه السكان وينظرون اليه بعين الاجلال بحيث أن اليهود عندما يمرون بهذه الطريق الى فأس يضطرون الى الخروج منها وإلى سلوك طريق فرعية تدور من بعيد بالقبر حتى لا تدنس حرمته أقدامهم .

وفي يوم 7 صباحا غادرنا الوادي لنخيِّم في مكان يدعى «بني جافيت» . وفي الطريق أثار فضولي موقف البَغّال المتعصّب منّا حيث كان يرى أن من الخطيئة أن يمس أحدا منا . ولكن العربيين المتجهين الى تلمسان لم يترددا في مساعدتنا لامتطاء خيولنا .

والطريقة المريحة للسفر في هذه المنطقة والتي يسير عليها المسافرون مع القوافل هي وضع صندوقين ملفوفين أو كيسين على جانبي ظهر البغل أو الحصان أو فراشا أو سجادا على ظهره بحيث يصبح ظهر الحيوان مريحا للجلوس أو الركوب عليه .

وفي غضون هذه الرحلة ، كثيرا ما يحدث أن أنزل من على ظهر جوادي ، مثل السيد مانوتشي ، ونركب البغل المزود بهذه الوسيلة من الراحة . وفي احدى المناسبات رفض الشخص الذي يرافق فرسي أن يساعدني لامتطاء ظهر البغل الذي يحمل الأمتعة ، ولكنني أعدته الى صوابه في مرحلة تالية من نفس النهار . فقد ارتكب غلطة أخرى في حقي استحق من أجلها ضربة على كتفه بعقب بندقيتي . وإثر ذلك ، رفع دليلي عصاه ليسدد ضربة اليّ . ولكنه فوجئ عندما فتحت زناد بندقيتي وسدّدت فوهتها في اتجاهه . على أن السيد مانوتشي الذي كان في مؤخرة القافلة قد لحق بنا عند هذه النقطة فوجه كلمات توبيخ بالعربية الى الدليل الذي هدأت أعصابه واتخذ مني موقفا أقل عداء بعد ذلك . وقد تلت ذلك مناقشة طويلة ، أحسست إثرها بتغير معاملة المرافقين الذين أصبحوا أكثر احتراما لي ، ذلك على الأقل في الظاهر . وأما في الباطن ، فاني لا أشك في أنهم يلعنون هذا المسيحي الذي يرافقهم .

وفي المساء ، وصلنا الى مكان انتشرت فيه عدة أكواخ يقع على مسافة نحو فرسخ من مدينة القصر وهناك قضينا الليل . ولما أصبح الصباح في يوم 8 ، مررنا بمدينة القصر (1) واجتزنا مقبرة المسلمين ، وهي تقع خارج أسوار المدينة مباشرة . وهذا الحدث كان مثارا لدهشة اليهود الذين كانوا يرافقوننا حيث كانوا مضطرين هم ، لسلوك طريق ملتوية لتجنب مقبرة المسلمين — وهو الشأن في الحقيقة ، عند المرور بأي قبر ولي أو رجل صالح . إن اليهود غير مسموح لهم هنا حتى بالدخول بنعالهم الى المدينة . وأما دخول المسحيين الى الأحياء الإسلامية من المدينة فهو غير مسموح به البتة .

وقد اجتزنا نهر القصر الذي يمر في الجنوب الشرقي للمدينة ، وغير بعيد منها ، وينصب في البحر عند مدينة العريش .

والمدينة الأخيرة تقع على مسافة ستين ميلا من طنجة ، على شواطئ المغرب الغربية. ولما وصلنا الى مجموعة من الأكواخ تقع على مسافة ميل من المدينة ، نزلنا بها وبعثنا بمن يشتري لنا ما نحتاج اليه من الزاد من العريش . وهذه الأكواخ تحمل اسما فضفاضا وهو : مولاي اسماعيل . ولما استفهمنا عرفنا أن هذه التسمية ترجع الى أن مولاي اسماعيل (2) كان يضرب خيمته في هذا المكان بين الحين والحين ، أثناء سفره من فاس الى تيطوان ، أو طنجة . واذا اعتبرنا المساحة التي تمتد عليها مدينة القصر ، فان من الممكن تقدير عدد سكانها بنحو 5000 آلاف نسمة (ما يتراوح بين 400 و 500

(1) وتسمى أيضا قصر عبد الكريم . مدينة قديمة بالريف تبعد عن المحيط الأطلسي بنحو 36 كيلومتر وقد اشتهرت في التاريخ بخصب مزارعها وأسواقها العامرة وبصناعاتها .

(2) هو اسماعيل بن محمد الشريف بن علي الشريف العلوي (1645 — 1727 م) المظفر بالله أمير المؤمنين . من كبار ملوك الاسلام ، دامت له الخلافة والسلطان 57 سنة . دوخ بلاد المغرب كلها ، سهلها ووعرها حتى بلغ تخوم السودان . اشتهر بولوعه ببناء القصور والقلاع وبلغ ما بناه 76 قلعة . مات بمكناس وأعقب نسلا وافرا .

منهم من الاسرائيليين) وقد دفن في القصر ولي مشهور في جميع أنحاء المغرب يسمى سيدي البغالي.

وبعد ما تركنا آثاراً رومانية على شمالنا، وصلنا الى قرية مغربية تسمى «شمهة» في اليوم العاشر من الشهر. وقد أخبرنا الدليل أن سكان هذه القرية يبلغ عددهم 2000 نسمة. ولكننا إذا نظرنا اليها من خلال آثارها، فإن من الممكن الاستنتاج بأنها كانت مدينة عظيمة في الماضي.

وفي الحادي عشر، وصلنا الى قرية «غرداد» التي تتكون من نحو مائة خيمة للعرب. وقد صادفتنا في هذه المنطقة بعض الحوادث التي تدل على مدى الخطر الذي يتعرض له المسافر في هذه الأراضي إذا لم يكن يتمتع بحماية قوية. رافقني دومينجو إلى جدول مجاور حيث أخذت حماما، بينما كان السيد مانوتشي مستلقيا في خيمته وبجواره مادلينا، عندما تقدم عربي من باب الخيمة ووجه الحديث الى زميله قائلا: «أنظر الى هذا المسيحي كيف يختلي بزوجته بكل برود». ولما كان السيد مانوتشي يعرف اللغة العربية معرفة جيدة، كما سبق أن ذكرت، فقد نهض لدى سماع هذا الكلام وسدّد الى الرجل ضربة عند أذنه. وقد دافع العربي عن نفسه بعصى كانت في يده. ولما رأى رفائيل الضربات تسدد الى سيده، نهض وطعن العربي بحربته وجرحه في ثلاثة مواضع في جسمه. ولولا أن بعض المتفرجين تدخلوا وأنقذوا العربي لقضى عليه لتوه. وعندئذ تدخل الضابط المغربي ووضع القيود في يد العربي وأبلغ القبيلة أنه إذا لم يطلق السيد مانوتشي سراحه، فسيضطر هو الى السير به باعتباره سجينا الى فاس حيث ستعرض قضية على محكمة السلطان. وبعد هذا الحادث بوقت قصير تقاطر علينا أصدقاء السجين وأقاربه حاملين مختلف الهدايا (الدجاج والبيض الخ.) ويتضرعون الينا راجين تدخلنا بحيث لا يساق الى فاس معتذرين لفعلته بمختلف الأعذار ولكننا رفضنا قبول هداياهم وطلبنا إلى الضابط أن يطلق سراح السجين حيث قدرنا أنه لقي تاديبا كافيا لسوء سلوكه بعدما ضربه عبد الكريم خمسين ضربة بالسوط على قدميه وهي طريقة للتأديب شائعة في المغرب الأقصى.

وفي يوم 11 غادرنا قرية «غرداد» والتحقنا بقرية «ورْغة» التي تقع على ضفة نهر يحمل نفس الاسم . وقد وصلنا اليها عند العصر . ونهر ورغة (1) يلتقي بنهر القصر عند العريش . وهو نهر مهم ، بحيث ان مياهه كانت تمتد في الوقت الذي اجتزناه في مساحة لا تقل عن 100 ياردة في العرض . والنهر يصبح غير قابل للاجتياز في موسم الأمطار حيث يبلغ عرضه أحيانا مالا يقل عن 500 ياردة ، وهو يجري في تيار متدفق قوي .

وقرية ورغة تتكون من خيام ثابتة طول السنة في عين المكان . والجبال الرئيسية التي تشاهد في هذه المنطقة تمتد من الجنوب الى الشمال .

وفي يوم 13 وصلنا بعد الظهر الى «شرقة» ، وهي قرية صغيرة منازلها مبنية بالحجارة ومسقوفة بالقش . والقرية تقع على هضبة تجري تحتها عينان ثرتان تنبجسان من صخرة . وفي الحوض الذي يتكون من جداول العينين توجد سلاحف كثيرة . والواقع أن الانسان يشاهد كثيرا من هذه الحيوانات في الأنهار والجداول المغربية في كل مكان . وقد لاحظت وجود سلاحف كثيرة أيضا في البر ، ولكنها من النوع الصغير . ومن قشرة هذه الحيوانات تصنع صناديق (علب) أنيقة للسعوط ، وكذلك توجد طيور ابي معلقة بكثرة في المنطقة وبعض هذه الطيور أليفة بحيث أنها لاتبالي بالانسان حينما يقترب منها . والأهالي يعتبرونها حيوانات مقدسة ، وبالتالي ، فهم لا يتعرضون لها بالأذى . وقد أردت ذات مرة صيد أحد هذه الطيور ولكن الرفقاء نصحوني بالعدول عن ذلك حيث أن ذلك من شأنه أن يؤثر في نفوس العرب . وفي غضون المدة التي أقمناها في هذه القرية رأينا أن السكان يمارسون لعبة الكرة بطريقة غريبة وتختلف كثيرا عن طريقتنا .

---

(1) وصف البكري المنطقة التي يجرى فيها وادي ورغه فقال ان «وادي ورغة يجري في بلد شريف وقرارات كثيرة شبيهة بالمدن ثم قرى متصلة أكبرها قرزاوة بني حُصيْن» .

وفي يوم 15 من الشهر وصل سكرتير الحاج طالب (1) يحمل تعليمات الينا بأن نتوجه الى تازا وهناك سنتلقى كل ما نحتاج اليه من الزاد والخيول حتى نتمكن من مواصلة سفرنا إلى تلمسان . وقد اشترى الرسول لنا كميات من الزاد ، ولا سيما من « الكسكس » والتين والتمر والزبيب ، الى جانب سلة من التمر الأخضر الجيد قدمها الى مدلينا ، مما يدل على أن الجيش يلقي عناية خاصة هنا أيضا ..

وقد اضطررنا أثناء إقامتنا في هذه المنطقة الى تعيين شخصين ليسهرا على امتعتنا ؛ حيث أن عددا كبيرا من اللصوص يبحثون عن الضحايا بالليل ، بل بعضهم قد وجد سبيله الينا بالفعل ، ولكنهم لما عرفوا أننا على استعداد للقائهم تراجعوا وولوا أدراجهم .

وعلى الساعة السادسة صباح يوم 16 غادرنا « شراقة » وواصلنا سيرنا في هذه المنطقة ذات الهضبات والأودية المخضوضرة الجميلة . وجميع هذه الأراضي قابلة للزراعة ، ولكنها تركت مهملة ولا يستفيد منها السكان الا للرعي .

لقد أتيح لي أن أتجول كثيرا في فرنسا واسبانيا والبرتغال وأمريكا الجنوبية وأستراليا ، ولكنني لم أجد أحد هذه البلدان أغنى وأخصب تربة من الأراضي التي قطعتها بين تيطوان وفاس ، والشيء الوحيد الذي يدعو إلى الحزن هو أن سكانها في حالة من الاهمال لا تفوق الا قليلا حالة النيوزيلانديين .

وقد مررنا في طريقنا بعدة أنهار وجداول ، مغظم مياهها مشوبة بالملوحة ، كما صادفنا عدد من القرى العربية الكبيرة التي يعيش سكانها في الخيم .

ولما وصلنا الى إحدى هذه القرى ، قابلنا وفد مهم على رأسه قائد المنطقة الذي سأل مانوتشي عما إذا كان هو سفير الأمير عبد القادر . وعندما أجابه بالايجاب ، ترجاه أن يقبل منه مبلغ أربعين دولارا مساهمة منه في تكاليف حرب التحرير الجزائرية .

---

(1) الوزير الاول في حكومة السلطان عبد الرحمن . راجع التفاصيل التي ذكرها الكلونيل اسكوت عن شخصية الحاج طالب أسفله .

وإثر ذلك رفع رجال الوفد أيديهم للدعاء متضرعين الى الله بأن يقهر الغزاة الفرنسيين ويرشد السلطان عبد الرحمن ، ملكهم ، ويوفقه لينضم الى الأمير عبد القادر في الدفاع عن قضيته العادلة . وكذلك أعربوا عن رغبتهم في الحصول على شرف الموت شهداء في الجهاد ضد العدو المشترك ، أو ينتصروا في الدفاع عن الدين الحنيف ، حيث أن الشهيد تنتقل روحه الى الجنة مباشرة ، في الوقت الذي يترك فيه ذكرا عاطرا بين الأحياء .

وفي طريقنا بعد ذلك مررنا بقبر ولي آخر . ولكنه ، نظرا لكثرة عدد الأولياء الذين مررنا بهم ، فقد فاتني أن أستفسر عن اسمه . وكذلك رأينا زاوية أحد المرابطين على مسافة الى يسار الطريق .

وقبور الأولياء والزوايا عادة مبنية بالحجر . وهؤلاء في معظم الحالات يختارون أماكن إقامتهم على قمم الجبال . وفي المساء ، وصلنا الى مكان يدعى « قبور العبد » (*) .

وفي صباح السابع عشر من الشهر ، رحلنا عن هذا المكان وواصلنا سيرنا في سهول واسعة مترامية الأطراف . وعند الزوال شاهدنا جماعة كبيرة من العرب ينزلون من تلول على شمال الطريق ويتجهون اليها لاجتيازها أمامنا . وبمجرد ما وقعت أعيننا عليهم ، توجسنا خيفة في أن يكونوا من جماعات قطاع الطريق التي تعيث فسادا في هذه المنطقة . فان القبائل التي تعيش بين فاس والحدود الجزائرية الواقعة من المملكة لاتخضع الا خضوعا اسميا للسلطان ، وكثيرا ما يخرج منها قطاع الطريق الذين ينهبون القوافل ويقتلون المسافرين دون أن تمتد اليهم يد العدالة .

ولدى رؤية هذه الجماعة القيت أنا والسيد مانوتشي بطريقة آلية نظرة متفحصة على أسلحتنا . وأنا لم يساورني قط أي قلق بشأن النتيجة التي سيسفر عنها اصطدامنا بهذا الحشد ، اذا قدر لنا أن نصطدم بهم . فان قافلتنا تشتمل على اثني عشر رجلا وكل واحد منهم حسن التسلح بينما لايتجاوز عدد الجماعة القادمة هذا العدد .

---

(1) الكلمة بالعربية في النص .

(1) كذا في الاصل : Cobur-El-Abd

وقد ترجاني السيد مانوتشي أن لا أهتم بأمر هذه الجماعة الا إذا بدأونا بالعدوان . وكذلك سار هو في مقدمة القافلة في حركة لا ستكشاف نياتهم نحونا .

وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما وجدنا أنهم أصدقاء لنا وأنهم يشكلون كوكبة من خيالة السلطان عبد الرحمن يرافقون سجينا الى فاس . وكذلك توقفنا جميعا عند جدول، ونزلنا من ظهور جيادنا وجلسنا لتناول طعام الفطور مع فرسان السلطان الذين لم يكونوا يصدقون أعينهم بأنهم شاهدوا حقيقة رجلا مسيحيا في هذه الاصقاع .

ومن جهتي اندهشت كثيرا لأن أشاهد جبلا على مسافة قصيرة من ذلك المكان وسفوحه مغطاة بالثلج تماما ، بينما كانت قمته رمادية اللون ولا أثر للثلج عليها . على ان هذه الدهشة قد زادت كثيرا ، حينما علمت أن ماتوهمته ثلجا لم يكن في الحقيقة سوى طبقة من الملح ! فان هذا الجبل يمثل المعدن الاساسي للمنطقة من الملح .

وكذلك مررنا بنهر كبير تجري مياهه بسرعة تشبه سرعة السيول التي تنحدر من الجبال . وهذا النهر قد انخفض مستوى مياهه الان وأصبح عرضه لا يتجاوز 12 ياردة . ومع ذلك ، فقد لقيت الجياد صعوبة كبيرة في اجتيازه . وهذا النهر ينصب في نهر ملوية أكبر الانهار التي تجري على ساحل المغرب الشرقي ، على مسافة نحو ستين ميلا من مدينة مليلة (1) .

وعلى مسافة غير بعيدة من النهر ، شاهدنا فوق الهضاب أكواما من الحجارة التي تميز ، كما أخبرنا الدليل ، قبور الجنود الذين سقطوا في المعارك ضد قطاع الطريق . وعادة تمييز القبور بأكوام من الحجارة ، تسود أيضا في اسبانيا ، ولاسميا في الأندلس التي لاتزال تحتفظ بكثير من آثار أسياد البلد في القديم ، العرب .

وكثير من العائلات الأندلسية تنحدر من أصل عربي (مغربي) اعتنقت المسيحية قسرا أو تقية حتى لاتطرد من الأندلس طبقا للقوانين التي سنها سان فرنانْدو التي طرد

(1) يبلغ طول مجري نهر ملوية الذي ينصب في البحر الأبيض 450 كيلومتر .

بموجبها ما يقرب من ثمانين الفا من المسلمين ودفع بهم الى أرض المغرب . والمعروف أن كثيرا من الأسر في شرق تونس لاتزال تحتفظ بمفاتح منازلها في الأندلس ، على العودة يوما ما الى تلك الديار لترفع علم الهلال على أسوار قصر الحمراء ، آخر معاقل الحضارة الاسلامية ومقر السلطة الشرعية للمسلمين ، والتي لاتزال تحتفظ بكل جلالها وعظمتها .

وعند هذه المرحلة ، دخلنا في القسم الجبلي من البلاد . وسلسلة هذه الجبال (جبال الأطلس) تتجه من الشرق الى الغرب . وكذلك كنا نجتاز بين الفينة والفينة واد صغيرا منعزلا يجري بين تلال جرداء ، في معظم الحالات ، لامجال للمقارنة بينها وبين السهول الخصبة والجميلة التي مررنا بها حتى الآن . وقد كنا طوال هذه المسافة نقضي الليل في اكواخ الريفيين الذين كانوا يبدون جميع مظاهر المودة والصداقة ، وكانوا يقدمون لنا الضيافة ، ولاسيما بالكسكس واللحم المغلي . وفي جميع الحالات ، كنا نتناول الطعام الذي يقدم لنا بكثير من الشهية ونفضله على طعامنا كما نفضل طريقة الطهي العربية على الطريقة الأروبية .

وفي هذه المنطقة ، ابتاع السيد مانوتشي جوادا مطهّماً ، لم يكن من الممكن أن يكلفه أقل من مائة جنيه في انجلترا ، وذلك بسعر لم يكن يتجاور 60 دولارا . والحقيقة أن الانسان يستطيع أن يشتري جميع ضروريات العيش في هذا البلد باسعار معقولة فان ثورا يبلغ وزنه ما يتراوح بين 500 و 600 كيلو ، لا يكلف سوى نحو 5 أو 6 دولارات ، والنعجة لا يزيد ثمنها عن دولار ونصف دولار . وأما الدجاج فان القطعة منها لا تزيد قيمتها عن حوالي أربع بنسات انجليزية .

وفي 18 من الشهر ، قضينا ليلتنا في مكان يدعى « امبوهل » ويبعد عن تازا بمسيرة نحو يوم . وهذا المكان ليس من الأماكن التي يرتاح الانسان للاقامة فيها ، حيث كان ، كما علمنا ، مسرحا لعدوان قام به في الليل قطاع الطريق على جماعة من المسافرين الذين كانوا يتجهون الى تلمسان حاملين معهم كميات من الاسلحة للامير عبد القادر . وقد قتل اثنان من رجال هذه الجماعة وهرب قطاع الطريق ببغلين محملين بالبنادق .

والواقع أننا منذ غادرنا الشراقه ونحن نزود بحارس من رجال كل قبيلة نزلنا بارضها . والى جانب هذا الحراسة ، كنا نخصص ثلاثة من رجالنا ايضا للسهر علينا . وقد كنت انا والسيد مانوتشي نعمل بالتوالي ضابطين للحراسة . وفي هذا الصباح نجا دليلنا باعجوبة من الموت حينما ابتعد عن الخيام للبحث عن بغل تائه . فان أحداً من المسافرين لم يره وهو يبتعد عن مكان إقامتنا . ولما عاد ، انذره حارس الليل ، كنديدو ، باللغة الاسبانية عند ما رآه يقترب من الخيام . ولكن الرجل لم يعبأ بهذا الانذار ومضى في طريقه الى المخيم . وعند ذلك ، فتح كنديدو الذي أراد أن يدلل على حماسة في الحراسة زناد بندقيته . ولو مضت بضع ثوان أخرى ، لتلقى البغال شحنة تلك البندقية كاملة . ولكنني لما سمعت كلمة الانذار ، خرجت في الوقت الملائم لأنقذ حياة البغال !

* * *

الفصل الثاني

رحلنا عن قرية « أمبوهل » في صباح يوم 19 وواصلنا طريقنا في اتجاه تازا ، حيث سننتظر الزاد الذي وعدنا به الحاج طالب . وهناك في تازا أيضا سننتظر مقدم السيد « صمويل ابنصور» الذي بقي في تيطوان في انتظار وصول شحنة من الأسلحة لحساب صاحب السمو الملكي الأمير عبد القادر.

وأما طبيعة البلد الذي نسافر فيه الآن ، فهي تشبه الأراضي التي قطعناها مؤخرا . وفي الطريق شاهدنا عددا آخر من معادن الملح . ولما حلت الساعة الحادية عشرة أخذت الأمطار تهطل بغزارة . وعلى الرغم من البلل الذي لحق بثيابنا ، فقد كانت شهيتنا للطعام على أحسن مايرام . وكذلك توقفنا عند نهر تازا الذي ينصب في نهر « سبو» (1) عند فاس ، وأخذ كل منا رغيفا وقطعة من اللحم التي طبخت لنا في تيطوان وتناولنا فطورا ، مثل فطور الجنود . ونظراً لأن ما جلبناه معنا من النبيذ قد نفد في الطريق ، فقد اكتفينا بجرعات من الماء القراح الذي ولو كان رقراقا وعذبا ، فقد كنت استبد له بكل سرور بكأس من البزاندي الفرنسي . وبعدما انتهينا من وجبتنا السريعة امتطينا ظهور جيادنا ومضينا قدما في طريقنا.

---

(1) ينبع سبو من الريف في سلسلة جبال الاطلس الوسطى ويمر بمدينة القنيطره قبل أن ينصب في المحيط الأطلسي شمال مدينة الرباط .

وعلى الساعة الثانية بعد الزوال ، اكتشفنا لأول مرة مدينة « تازا » من جبل مشرف عليها ويبعد عنها بنحو فرسخين (1) والمدينة ذات منظر خلاب حيث تقع على هضاب تهبط تدريجيا من جبل يقع في الجنوب الشرقي منها الى واد منخفض . وبجانبي التلال التي تمتد عليها المدينة يجري واديان صغيران عميقان ؛ وبذلك تبدو المدينة وكأنها جزيرة . وتحيط بتازا غياض وحدائق غناء ، معظمها غابات البرتقال ، التي يملكها قائد المدينة وحاكمها من قبل السلطان ، وهي أجملها جميعا . وهنا يملك الحاكم منزلا ريفيا يقضي فيه عادة ، فترة ما بعد الظهر ، يمتع نفسه بمنظر الجنود وهم يتدربون في السهول المجاورة .

وعلى الساعة الرابعة بعد الزوال وصلنا الى مدينة تازا التي لابد وأن تكون مدينة وحصنا عظيما في عهد الرومان . والجدير بالذكر أن آثار التحصينات الرومانية القديمة التي تتكون من سور يبلغ سمكه نحو ثلاثة أقدام وارتفاعه عشرة أقدام ، (وهو مزود بأبراج مربعة تقع كل واحدة منها على مسافة 80 ياردة من الأخرى) لاتزال موجودة عند أقدام الهضبة . وسور المدينة الخارجي لايزال سليما في عدة أماكن . وفي منتصف الطريق الى قمة الهضبة توجد قطع من السور وبقايا من الابراج مماثلة لبقايا السور والأبراج الموجودة في أسفلها ، ولو أنها في حالة أكثر تدهوراً . والمدينة كان يحيط بها سور آخر . وفي الجانب الشمالي منها تشاهد آثار مَبْنىً لابد وأنه كان قلعة المدينة أو مبنى « الكابيتول » في عهد الرومان . ونظراً لأن المدينة قد انتقلت بعد الرومان الى أيدي المسيحيين ، فإن خراب هذه القلعة وتحصيناتها كان على يدهم ، فيما أعتقد . وعلى كل حال ، فهم قد

---

(1) مدينة تازا (تازه) [عرضها الشمالي 4^{5} _ 34^{0} ، وطولها الغربي 4^{0}] تقع في شرق المغرب الأقصى (وهي غير تازا الجزائرية) وتبعد عن فاس نحو الشرق بـ 127 كيلومتراً . وهي تقع في منخفض كبير يسمى «حوض تازا» يفصل بين الريف وبين السفوح الشمالية لسلسلة جبال الأطلس الوسطى . وتازا التي يرجع عهدها الى ما قبل التاريخ ، اتخذ منها الموحدون رباطا وقلعة حصينة بعد أن دوخوا جبال الأطلس العليا والوسطى . وفي أيام المرينيين ، اتخذها أبو يعقوب المريني عاصمة له وقاعدة لغزو تلمسان . ولم تزل تازا بعد ذلك ، حتى العصر الحاضر ، تلعب دورا عسكريا مهما . وينتسب الى تازا كثير من العلماء والفقهاء والأعلام .

حولوا المدينة المجاورة للسور الحالي الى مقبرة لهم . وقد حاولت ذات يوم العثور على أية نقوش في آثار المدينة لعلها ترشدني الى تاريخ سقوطها في يد سادتها الحاليين ولكنني لم أوفق الى شيئ من ذلك . على أن من الواضح أن موقع مسجد تازا الرئيسي كان في القديم معبداً للمسيحيين . والواقع أن برج الجرس (جرس الكنيسة) لايزال موجودا حتى الآن ، والبرج يستعمل منارة للآذان . وصوت المؤذن لا ينفك يصل الى مسمعي في سكون الليل كل صباح ! .

وفي تازا يصنع نوع جيد جدا من البارود يقال أن المدينة قد توارثت صناعته منذ أوائل العهد المسيحي . وفي جوار المدينة ، توجد معادن للكبريت وللملح الصخري . ولكن الكبريت لا يستخرج من هذه المناجم بسبب عدم وجود شخص يعرف طريقة تنقية الكبريت وازالة التراب الذي يختلط به . إنني اعترف بانني لست متخصصا في علم الاثار . ولكنه ، نظرا لانني لم أمر بآثار مدينة «فراوه» (Pharaoh) القديمة ، بل ولم أسمع من أحد بوجود هذه الاثار ، فأنا أتوهم أن تازا قد قامت في مكان هذه المدينة . ولكنني ، على كل حال ، أترك مسألة التعرف على المدينة القديمة في تازا لعلماء الآثار . وأنا أحدد موقع المدينة على وجه التقريب بين درجتي 36 شمالا و3 غرب خط جرينويتش .

وعندما اقتربنا من المدينة كان الضابط قد تقدمنا برسائل من السلطان الى حاكم المدينة يأمره فيها بأن يمدنا بكل ما نحتاج اليه من المساعدة ويقدم الينا كل ما نطلبه اليه على حساب الحكومة . وقد استقبلنا عبد الكريم عند مدخل المدينة ومعه اثنان من شيوخ اليهود الذين رافقانا الى منزل يمكن مقارنته من حيث القذارة بحظيرة خنازير . وقد كانت النتيجة أن لكمة من السيد مانوتشي على أذن اليهودي قد ضمنت لنا الحصول على منزل أفضل !

وعلى الرغم من أن المنزل الذي حصلنا عليه ليس بالانيق ، فهو على كل حال لا يقارن بالمنزل الاول الذي اقترحوه لنا ....

وإثر ذلك ، استقر بنا المقام وأخذنا الغرفتين النظيفتين في الدور الثاني وأخرجنا الاسرة التي تحتلهما منهما وأنزلت الى الدور الارضي الذي هو أقل نظافة .

وفي اليوم الأول ، حضر لنا الشيوخ الذين أمرهم حاكم المدينة بالعناية بنا وبتقديم كل ما كنا في حاجة اليه . وقد موا لنا عشاء طيبا وفطورا لائقا في اليوم التالي . ولكن غداء اليوم التالي هبطت قيمته بصورة محزنة . وقد تناولنا طعام العشاء لسبب واحد فقط ، وهو ألا نبيت بدون عشاء . وفي الصباح ، أرسلنا الى الشيوخ من يبلغهم أنهم اذا أحضروا إلينا غذاء مماثلا ، فسوف نقذف بهم من على شرفة المنزل !

وفي نفس الوقت قمنا بشراء الزاد الذي نحتاج إليه في ذلك اليوم من السوق ، وكتبنا رسالة الى حاكم المدينة نبلغه فيها أننا سنخبر الحاج طالب بالاهمال الذي لقيناه وبالاستهانة بأوامر السلطان .

وهذا المسعى كانت له النتيجة المرغوب فيها ، حيث أدرك قائد تازا أن شكوى من هذا النوع سوف تعرض منصبه للخطر ، بل لربما اضطر الى دفع غرامة كبيرة لتهاونه . وكذلك وجه الينا كاتبه ليترجانا ويطلب إلينا عدم القيام بهذه الخطوة طلب منا أن نبعث اليه في كل صباح بقائمة الاشياء التي نحتاج اليها . وإذا لم يحضرها اليهود ، فما علينا الا أن نبلغه ذلك حتى يتخذ الاجراءات الضرورية لحملهم على ذلك ، ومنذ ذلك التاريخ ونحن نتلقى كل ما نطلبه وبكميات كبيرة (الدجاج ، ولحم الخروف والزبيب والتين الخ .) ، وحتى الطباق ، فقد كنا نتلقاه بدون مقابل .

وفي هذه الاثناء ، كان علينا أن نستمر على تعيين حراس من بين رجالنا بالليل ، وذلك على الرغم من أن حاكم المدينة قد خصص ستة جنود لحراستنا ، لأن حراستهم لا يمكن الاعتماد عليها . وقبل دخولنا إلى هذا المنزل ببضعة أسابيع قام اللصوص بسرقته واستولوا على كل ما فيه . والواقع أن معظم مناطق المغرب الأقصى ، بما في ذلك مدينة فاس نفسها ، أصبحت مكانا لا يتوفر فيه الأمن ، بسبب السياسة الخاطئة التي يسير عليها السلطان الحالي الذي لا يعاقب أي مجرم بالموت . وبذلك تدهور نفوذه.

وضاعت هيبة القانون . واللصوص يعملون مطمئنين الى أنهم ، حتى لو اكتشفت جرائمهم فعلا ، فان العقاب الوحيد الذي سينزله بهم القانون ، لايتجاوز دفع غرامة تتناسب مع حالتهم المالية وما يملكونه من الأشياء . ونتيجة لذلك ، فان الكثرين منهم لايتعرضون للعقاب اطلاقا ، حيث أن الشريعة الاسلامية تنص على بنفس المبدإ المعروف في القانون الانجليزي : السلطة تفقد حقها بالنسبة الى الشخص الذي لا يملك شيئا .

وفيما يتعلق بالجنس اللطيف ، فان من المستحيل ، بصفة عامة ، أن تقع عيناك على وجه سيدة في هذا الجزء من العالم . ولكنه في هذه القضية أيضا ، لا توجد قاعدة بدون استثناء ! وهذا يتضح في الحادث التالي الذي وقع عقب وصولنا بوقت قصير :

السطوح في المغرب الأقصى تشبه السطوح في كثير من البلدان الشرقية . والاتصال بين سطح وآخر يتم بدون صعوبة . ونظرا لأننا نعتبر نوعا من الحيوانات الغريبة ، فاننا لا نستطيع الصعود الى السطح دون أن نشاهد على السطح المقابل صفوفا من النساء العربيات واليهوديات اللائي يحاولن اختلاس نظرة الينا . وكان من بين النساء المتطلعات شقيقتان إحداهما تدعى زليخة والأخرى صبيحة . والكبرى من الشقيقتين ذات عينين زرقاوين جميلتين ومنظر يذكرني بأجسام الفتيات الاغريقية . واما صبيحة ، كانت ذات وجه مستدير وعينين سوداوين ذات لحاظ فتاكة .

إن كلتا الفتاتين تستحق مكانة مرموقة بين الحوريات ! وعلى الرغم من أن لباس المرأة المغربية لم يفصل بقصد إبراز محاسنها ولاظهارها في أجمل أوضاعها ، فان المرء يمكنه أن يستنتج من بعض تعاريج ثيابهن أن أشكالهن تضاهي وجوههن الجميلة .

والواقع أن العيون السوداء تنطوي دائما على جاذبية وسحر خاص ، سواء أكانت صاحبتهما عربية أو يهودية أو مسيحية . هذا ، على الأقل ، ما كنت أحس به دائما .

وذات صباح كنا في مغازلة صامتة بريئة أنا و « دومينيجو» ، فأشرنا اليهن بالقدوم الى سطحنا ، ونحن — بالطبع — لم نكن نتصور وجود أية فرصة لتحقيق هذه الرغبة .

ومضى النهار ونسينا الموضوع كلية . ولكن سوء طالعنا شاء أن يسمع الحرس على الساعة الثامنة ليلا وقع أقدام على السطح ، وعلى الفور ، صاحوا باقتراب اللصوص . وإثر ذلك ، سددت أضواء المصابيح على السطح واستعد الجميع لخوض معركة مع اللصوص ...

وعلى الرغم من أن أحدا لم يشاهد أثرا للصوص ، فقد كان الجميع مقتنعين بأن الأقدام التي سمعوا وقعها ، كانت حقيقة أقدام لصوص !

أما أنا ، فقد خطر ببالي أن من المحتمل أن تكون أقدام الصديقتين هي أقدام اللصوص المزعومة ! على أن ظنوني لم تلبث أن تأكدت . فان الحاج محمد الذي يتحدث قليلا من الاسبانية والذي كان يبدي لي كثيرا من الاعتبار ، قد أخبرني بأن هذه هي الحقيقة وأن زوج زليخة قد اشتبه في الأمر هو الآخر ... وأنه أتهم المرأتين عند القاضي بالتحدث الى مسيحي . وكذلك وضعت زليخة في السجن حيث ستعيش اسبوعا كاملا على الخبز والماء ...

وبعد هذا الحادث ، اختفت زليخة وأختها صبيحة من السطوح المقابلة الى الأبد !

واليهوديات يتمتعن بحظ كبير من الجمال في معظم الحالات . ونحن لم نتمكن من إقامة أي اتصال بهن حيث لم يكنّ يتحدثن سوى العربية والعبرية . وكلانا ، أنا و «دومينجو» ، يجهل هاتين اللغتين جهلا تاما . وقد كان السيد «مانوتشي» هو الوحيد الذي يستاثر بالحديث مع اليهوديات الجميلات . والشيء الذي أثار انتباهي بصفة خاصة في لباس هذه السيدات ، هي الطريقة التي يلبسن بها أقراطهن . فبدلا من تعليق القرط في أسفل الأذن ، كما جرت العادة ، فهن يعلقنها في أعلى الأذن . ونظرا لان الأقراط من الحجم الكبير ، فقد كانت الأقسام العليا من الأذن تتدلى . تماما ، مثل آذان الحمير المتعبة !

وعلى الرغم من أن هذه الطريقة تعتبر هنا آخر كلمة في الأناقة ، فإني أعترف بأنني لا أجد لها إلا فتنة ضئيلة ...

وفي الرابع والعشرين من الشهر ، أخذنا في اعداد العدة للرحيل عن تازا . فقد أصبحنا نتوقع وصول السيد «ابنصور» بالمواد والمؤن التي اشتراها للأمير الى فاس بعد بضعة أيام .

ونتيجة للمعلومات التي وصلتنا بأن خطة وضعتها بعض القبائل الريفية لنهب أمتعتنا بعد مغادرة تازا ، فقد زاد حاكم تازا عدد الحراس الذين خصصهم لمرافقتنا بحيث أصبح اثنا عشر حارسا . وقد خطرت على اللصوص فكرة الاعتداء علينا نتيجة لأخبار ذاعت بين القبائل بأننا نحمل معنا 26 ألف دولار.

ولكننا مع ذلك نعتبر حراسنا الستة أكثر كفاءة من حراس الحاكم الأثني عشر ، حيث أن نصفهم غير مسلح . وأما المسلحون منهم ، فهم إنما يحملون أسلحتهم للزينة أكثر مما يريدونها للاستعمال . ومعظم هذه الأسلحة على كل حال غير صالحة للاستعمال .

وازاء هذه الظروف ، فقد رأينا أن من الحكمة أن نؤجل سفرنا وننتظر في تازا حتى نحصل على كوكبة من فرسان السلطان من فاس لترافقنا الى اراضي الأمير عبد القادر. وكذلك وجهنا رسولا مستعجلا الى الحاج طالب ، رئيس الوزارة ، نطلب اليه بالحاح إرسال قوة الحراسة التي طلبناها بأسرع ما يمكن .

وفي صباح يوم 26 من الشهر ، وصلت قافلة من تلمسان ، كان من بين المسافرين ضمنها جنود فرنسيون وأسبان هربوا من جيش الأمير عبد القادر.

وقد ذكر لنا الهاربان الفرنسيان أنهما هربا من وهران حيث حكم عليهما بالأشغال الشاقة . وأما الجندي الاسباني ، فقد اعترف بأنه هرب من الجيش الاسباني ودخل في صفوف الجيش الفرنسي وهرب منه ، ثم انضم الى الفرقة الاجنبية في فرنسا وهرب منها أيضا. وهكذا ، فان هذا الجندي ، باعترافه قد هرب وترك الخدمة في جيشين على الأقل . ولكن مما لاشك فيه أنه هرب أيضا من جيش الأمير عبد القادر . وكذلك قررنا القبض عليهم وارسالهم الى فاس حيث سيعاملون وفقا لرغبة السلطان ، وحيث تحز رؤوسهم ، على الأرجح .

وهنا يجب ألا يتهمني القارىء بمجانبة الحقيقة إذا قلت إن حياة المرتد والجندي الهارب هنا لا تساوي مثقال ذرة ، وأن الجندي الذي يهرب من سبتة أو مليلة يبيعه الأشخاص الذين يسقط في أيديهم بثمن لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة دولارات . وأمـا الذين يسعفهم الحظ ويصلون الى فاس ، فينجحون ، عادة ، في الدخول في حرس السلطان الذي يضم حوالي 6000 جندي فرنسي واسباني من الهاربين .

والذين لا ينجحون في الانضمام إلى حرس السلطان ، يرسلون الى قرية تبعد عن مدينة فاس بنحو ستين فرسخا . وهناك ينظمون في فرق ويختار من بين الأذكياء منهم ضباط . والباقي يقلبون الأرض ويحرثونها ويزوجون أو يعملون في الحقل الزراعي بأجر مقداره ثلاثة دولارات في الشهر . وهم يعتبرون جنودا فلاحين ويخدمون السلطان كلما دعت الحاجة اليهم (على غرار القرى العسكرية الروسية) .

أبلغني اليهودي الذي نزلنا في بيته (وهو صائغ فضة) أن عربيا يحترف مهنته يملك ثلاثة من الاسبان يعملون في معمله ، اشتراهم بثلاثة وسبعة وعشر دولارات على التوالي . واليهود غير مسموح لهم بامتلاك العبيد . وهذه الحقيقة كانت مثارا لكثير من الأسف في نفس مضيفنا الذي يرغب بدون شك في الحصول على بعض المساعدين بالسعر المذكور أعلاه . . .

والعبيد السود كثيرون هنا . وسعر الواحد منهم يختلف باختلاف عمره وبما إذا كان ذكرا أو أنثى ، ويتراوح بين 30 و 80 دولار . ولكنه علم أن أمة جميلة كلفت مبلغ مائة دولار . على أن هذا أعلى سعر سمعت بأنه دفع لشراء عبد أو أمة من السود . وأما الأمة من البيض ، فقد يدفع في مقابلها سعر يبلغ 300 دولار ، إذا كانت جميلة . ولكنها اذا تجاوزت سنا معينة فان سعرها يكون حينئذ في مستوى سعر السوداء .

منذ وصولنا الى هنا ، اعتدنا أن ننصب «رفائيل» «وكنديدو» عند باب شقتنا لحراستها من المتطفلين . وهذان الشخصان كانا لا يرحمان أي شخص يدفعه الفضول الى الدخول بدون إذن . وكثير من العرب يقومون بهذه المحاولة لاختلاس نظرة إلينا .

وفي يوم 28 ، كان « رفائيل » يقوم بالحراسة عند الباب حينما حاول أربعة أو خمسة منهم الصعود الى الطابق الثاني بالقوة . وقد قام « رفائيل » بدوره كما كان منتظرا ، فدفعهم من الدرج الى الأرض . ولما أعادوا الكرة دفعهم إلى الخارج . ومن هناك نظر الي أحدهم وبصق قائلا : « أيها الكلب المسيحي » !

لم أفهم الشتمة التي وجهها الي ، ولكن البصاق الموجه إلي كان كافيا لدفع دم انجليزي إلى الغليان . وعندئذ توجهت الى الغرفة للبحث عن عصى لتأديب هذا الشخص الغليظ . على أن سوء حظه جعلني لا أجد في متناول يدي أية عصى . وقد كان سيفي هو أول ما وقع في يدي وكان هذا السيف حادا بحيث يمكن للانسان الحلاقة بـــه .

كان « رفائيل » قد تعقب المعتدين ودخل في مشادة مع كبيرهم وأخذ أفراد العصابة يستلون خناجرهم . ونظرا لعدم رغبتي في جرح أحدهم أخذت أضرب كبيرهم بعارض السيف . وهذا الشخص الفاضل الذي كان يتوهم ، بدون شك ، أن سيفي غير حاد بالكفاية استحوذ عليه بيده وحاول أخذه من يدي . وهنا بدا أن الأمر أصبح خطيرا حقا . فلو تمكن هذا الشخص من الاستيلاء على سيفي ، لكفاني ، بدون شك، مؤونة كتابة هذه السطور .

وعند هذه النقطة ، سحبت سيفي من يده بسرعة تاركا ثلاثة من أصابعه شبه مقطوعة ثم سددت اليه سن السيف ، وجرحته جرحا خفيفا في جانبه الأيمن . وعند هذه النقطة تراجع المعتدون الى الباب الخارجي وتركوني أنا و « رفائيل » سادة الموقعـــة وكانت الغنيمة عبارة عن سكين طويل سقط منهم عند انسحابهم المفاجئ .

وأما اليهود أصحاب المنزل ، فقد وقعوا في دهشة كبيرة حين رأوا مسيحيا يضرب مغربيا ، وفي دهشة أكبر عندما رأوني أنظر الى هذه المسألة بقلة اكتراث . وكذلك اقسموا بأن المغاربة سوف يهجمون على المنزل وأنهم سيحولوننا جميعا الى لحم « مفروم »...

ولتهدئة روعهم ولتجنب المزيد من التعقيد ، كتب السيد « مانوتشي » رسالة الى حاكم المدينة ذكر فيها أن عددا من العرب قد حاولوا اقتحام منزله بالقوة مستعملين السكاكين

ضد أحد خدمه من المسيحيين . وقد قام الأخير بجرح واحد منهم وطلب إليه أن يعاقبهم على عدوانهم وأن يصدر أوامره بعدم اقتراب أحد منهم من المنزل إلا إذا كان ذلك للقيام بأعمال ، حيث أن حوادث أخطر قد تقع اذا لم يتخذ مثل هذا الاجراء.كان حاكم المدينة يمتع نفسه في حديقة منزله حينما وصل اليه موسى ، حامل الرسالة. وقد كان من حسن الحظ أن القايد كان في مزاج مرح فاستقبله وأجلسه وقدم اليه فنجانا من القهوة وسأله أن يروي له تفاصيل الحادث . وبالطبع ، فان رواية الحادث كانت في صالحي . وبينما كان موسى في منزل الحاكم ، عاد العربي الجريح . فقد كان الجرح أخطر مما كنت أتصور. وكان في رفقته نحو أربعين من العرب ليطلبوا الى أن أرضى بأن تقطع يدي مقابل يد هذا الشخص . ولكن الحاكم الذي سمع شكوانا أبلغهم أنه لو لم يكن هذا الشخص قد جرح جرحا خطيرا لأمر بعقابه على فعلته . ولكنه ، وهو في هذه الحالة ، يمكنه أن ينصرف على ألا يعود الى مضايقة المسيحيين في المستقبل حتى لا يتلقى درسا مماثلا . وكذلك تخلصنا من هذه القضية المؤلمة بحيلة . ولكن صديقي العربي الجريح لم يقتنع بحكم قائد تازا ، ولذلك ، سافر الى فاس ليقدم شكوى الى السلطان . على أن الحاج طالب قدم للسلطان نفس التوضيح الذي قدمناه للحاكم . وبذلك نجت يدي اليمنى من المصير الخطير الذي وضعت فيه نفسها !

الفصل الثالث

والى جانب صديقنا المذكور في الفصل السابق ، تعرض يهودي آخر لغضب السيد «مانوتشي» ، لأنه أطلق لسانه بالقول بأن السبب الذي حال دون دخولنا الى فاس يرجع إلى عدم السماح لنا بذلك . فان هذا التعبير الخالي من الحذر والاحتياط ، قد كلفه مائة ضربة بالسوط على أسفل قدميه . وكذلك كلفه الأمر نفقات إقامته في السجن لبضعة أيام حتى تستريح قدماه...

وهذا العقاب أنزل باليهودي بناءا على أوامر الحاكم . وكذلك سمعنا بالمساء كثيرا من عويل اليهوديات بسبب ما نزل بيافع يبلغ الرابعة عشرة من العمر ، وهو ابن شقيق صاحب المنزل الذي نقيم فيه . فقد تعودنا على غلق أبواب المنزل كل يوم على الساعة الثامنة مساء ، ولم نكن نسمح لأحد بالدخول بعد ذلك إلا إذا كان قد حصل على إذن صريح بالتأخر عن هذا الموعد من حاكم «قلعتنا» ، السيد «مانوتشي» . فقد سمح اليهودي لأحد الشبان العرب بالدخول الى المنزل بحجة أنه جاء لزيارة بعض اليهود . وبعد محاكمة قصيرة أصدرنا عليه حكما بخمسين جلدة . وقد نفذ هذا الحكم فيه في الحال ... فان الحاج محمدا وموسى خبيران في ربط رجلين للجلد ، بينما كان الجندي بارعا في استعمال عصا من عود البرتقال لهذه الغاية .

اليوم هو التاسع والعشرون من الشهر ، وهو يوم السوق . ولما اقتربت الساعة من الثانية عشرة ، جاءنا اليهود الذين نقيم في منزلهم ليخبرونا أن ثورة قامت في المدينة وأننا كنا السبب

فيها . وعلى الفور ، اتجهنا الى سطح البيت لاستطلاع كنه الخبر وأنا أعترف أن هذه القضية الجديدة كانت تقلقني بعض الشيء . فقد شاهدنا ما يتراوح بين ألفين أو ثلاثة آلاف شخص يغدون ويروحون في المكان الذي كانت تحتله قلعة المدينة في الماضي والذي أصبح الآن مكان السوق ، وكذلك رأينا أبواب المدينة مغلقة ، وكل شيء يدل على أن ثورة وشيكة الانفجار.

وعلى الفور ، رتبنا رجال قوتنا الصغيرة للدفاع عن « قلعتنا » بأفضل الطرق . أما أنا ، فقد بقيت على سطح المنزل لأراقب تحركات الجماهير.

وضعنا اثنين من الحرس عند باب الساحة الخارجي واثنين عند الباب الداخلي ، بينما احتفظنا باثنين كقوة احتياطية وضعناهما عند شرفة شقتنا . وبعد ذلك وضعت نفسي مع موسى عند الباب الخارجي .

ولكنه بعد مضي حوالي ساعة ، اتخذت الأمور مجرى سلميا ، فأرسلنا الحاج محمدا ليعمل للحصول على معلومات بشأن ما وقع في السوق .

ولما عاد أخبرنا بأننالم نكن سببا لهذه الاضطرابات بحال من الأحوال ، وإنما تسبب فيها بدوي طعن بدويا آخر بخنجره وقتله في عين المكان . وقد أغلقت أبواب المدينة لمحاولة حصر المجرم والقبض عليه ، ولكنه هرب ونجا برأسه ليعتصم بالجبال المجاورة . وقد تساءلت عما إذا كانت السلطة قد اتخذت إجراءات للقبض عليه ، فقيل لي أنه متى أسعف الحظ المجرم الهارب ، فأن يد العدالة لاتصل اليه ، وإنما تتعرض حياته للخطر فقط ، إذا قرر أبناء عائلة القتيل الأخذ بثأره .

وفي 31 من الشهر ، عاد الرسول الذي أوفدناه الى فاس حاملا معه رسائل الى حاكم تازا يأمره فيها الحاج طالب بأن يمدنا بالعدد الذي نراه كافيا من الفرسان ليرافقونا الى معسكر القائد بوزيان ، قائد قوات السلطان في المنطقة التي تمتد من تازا حتى الحدود الجزائرية والذي يقع معسكره على الطريق المؤدية الى تلمسان . وقد أصدر السلطان أوامره إليه بأن يقتطع من جيشه قوة الخيالة التي تحل محل القوة التي يعينها قائد تازا

لمرافقتنا وأن يخصص لنا بعد ذلك القوات الأخرى الضروية لحمايتنا حتى الحدود ، حيث تحل محلها قوات من جيش الأمير عبد القادر ، إذا رأى الخليفة البوحميدي (خليفة تلمسان) أن ذلك ضروريا.

وهنا أيضا تلقيت نبأ سارا ، وهو أن أربعة ضباط من رفقائي في السلاح في اسبانيا ، قد دخلوا في خدمة الأمير عبد القادر وأنهم قد غادروا جبل طارق في طريقهم الى تيطوان ، على أمل أن يلتحقوا بتازا . لقد سررت أعظم السرور بخبر مقدم هؤلاء الزملاء الضباط الذين يعتبر أحدهم من أعظم ضباط المدفعية ، وستكون خدماته ذات أهمية عظيمة في جيش الأمير عبد القادر. وأنا قد أتيح لي في مناسبات عديدة أن أشاهد خبرته وبراعته في ميدان القتال ضد الكارليين . وعلى الرغم من أن جيش العدو الذي سيواجهه الآن (الجيش الفرنسي) متفوق على جيش «كارلوس» ، فان الجيش الجزائري يتمتع بشجاعة كبيرة يزيد من قيمتها تعصب العرب واستماتتهم من أجل وطنهم ، وهذه الشجاعة لا يمكن أن يصدقها سوى من أتيح له أن يشاهدها بعينيه . فان كثيرا من العرب الذين يأتون من الداخل إنما يلتحقون بميدان المعركة لغرض واحد : الاستشهاد ، حتى يحظوا بالجنة الموعودة .

على أن الضباط المذكورين لم يتمكنوا من الدخول الى أراضي الامير ، وقد كان ذلك نتيجة لموقف متصلب من الحكومة الفرنسية التي صرحت للسلطان بأنها ستعلن الحرب على المغرب الأقصى ، إذا سمح لهم بالدخول الى أراضيه . لقد كان أصدقائي من الجنود وليسوا من المحامين . ولو كان لديهم معرفة بالقانون ، لطلبوا جوازات سفر من الحكومة البريطانية ليدخلوا بها إلى فاس ، عاصمة بلد حليف . ومن هناك ، كان يمكنهم أن يتجهوا إلى تمبكتو ، لو أرادوا أن يتحملوا بعض المخاطر . ولكنني أعرف أن الخطر ليس هو الذي جعل أصدقائي يتراجعون ، بل إن سبب ذلك هو جهلهم بقوانين بلدهم والامتيازات التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون الذين يمكنهم رفض الاجابة عن طبيعة الاعمال التي ينوون القيام بها في البلد الذي يتجهون اليه . وكذلك كان يمكنهم القيام بهذه الرحلة حتى يصلوا الى أراضي الأمير ، وبعد ذلك يتركون تسوية الأمور لحكومة

الأمير وللحكومة البريطانية . وعندئذ فقط تثار مشكلة ما إذا كان هؤلاء الضباط قد حضروا الى أراضي الامير بناء على موافقة الحكومة البريطانية ، أم بدون موافقتها .

وفي أول مارس ، وجهنا رسالتين ، احداهما الى الحاج طالب نرجوه فيها الاسراع بترحيل السيد «إبنصور (1)» والرسالة الأخرى كتبناها الى صاحب السمو الملكي الأمير عبد القادر . وقد حملنا نفس الرسول رسالة أخرى الى السيد «بنونه» (2) حاكم تلمسان من قبل الأمير ، وذلك لكي يصدر الأوامر بتوفير قوة من الفرسان لمرافقتنا ، إذا اقتضى الأمر ، عندما نصل الى الحدود الجزائرية .

قمنا اليوم بشراء جوادين ، دفعنا في مقابل أحدهما 25 دولار ، وفي مقابل الآخر 10 دولارات . والأول للركوب ، والثاني لنقل الأمتعة . وهذا السعر المنخفض الذي دفعناه للحصانين ، جعلني اتساءل لماذا لاتصدر السلطات المغربية الخيول الى جبل طارق ، أو الى الأسواق الاسبانية حيث تبلغ قيمة الفرس الذي يساوي هنا 30 دولار ، مالا يقل عن 200 دولارا . على أنني اكتشفت أن السلطان يفرض ضريبة على تصدير الخيول مقدارها 100 دولار على الفرس الواحد . وأما اناث الخيل ، فقد منع تصديرها بتاتا . وبالاضافة الى

(1) يهودي كان يقوم بدور الوسيط لحساب الأمير في مختلف العمليات التجارية التي تجري مع التجار الاسبان والانجليز في جبل طارق ، ولا سيما ، فيما يتعلق بالذخيرة والأسلحة .

(2) كان ابن نونة عاملا للسلطان عبد الرحمن على تلمسان والأراضي التي تمتد من وجدة حتى نهر يسّر الغربي ، خلال الفترة التي أعقبت سقوط الإدارة التركيّة في ولاية وهران وقبل أن يتولى الحكم عليها الأمير عبد القادر . وقد كان ابن نونة رجلا ثريا وذكيا وصاحب نفوذ كبير في بلاط السلطان عبد الرحمن ثم لدى الأمير فيما بعد . وابن نونة ينتمي الى أسرة أصلها من فاس . وعندما وجه السلطان «ابن الحمري» واليا على تلمسان ، سارع ابن نونة بالاعتراف به ، وعقب ذلك ، هاجر الى المغرب حيث أقام مدة ثم عاد الى تلمسان حيث قام تعاون وثيق بينه وبين «البوحميدي» ، خليفة الأمير . ومن الأعمال المهمة التي قام بها ، محاصرة الكلفيين ومصطفى بن اسماعيل (1834 ـ 1836) . وقد واصل ابن نونة المقاومة في تلمسان عقب احتلال كلوزيل للمدينة حتى سلمت الى الأمير . بموجب معاهدة تافنا . وقد توفى ابن نونة في وجدة بوقت قصير قبل الحوادث التي يرويها الكلونيل اسكوت والتي شارك فيها وبعد معركة إيسلى بقليل .

الضريبة على صادرات الخيول ، فان المصدر يحتاج الى تصريح خاص يصدره السلطان نفسه .

أما فيما يتعلق بتصدير المواشي ، فان هذا الأمر خاضع لاتفاقية عقدت بين الحكومة البريطانية والسلطان ، ويصدر المغرب بموجبها كميات من المواشي لتموين حامية جبل طارق البريطانية ، وذلك على أساس 5 دولارات للرأس ، وتسدد المبالغ المستحقة للسلطان مقايضة بالبارود والأسلحة النارية .

والضريبة المفروضة على تصدير البقر هي 10 دولارات للرأس الذكر ، و100 دولار للبقرة . بل إن مصدري الدجاج والطيور أنفسهم يدفعون ضريبة على الصادرات بمعدل أربع بنسات للطائر الواحد ، وهو السعر الذي يبتاع به في المغرب . وعلى الجملة ، فان حكومة المغرب تضع كثيرا من القيود على تصدير إناث الحيوانات .

والكثيرون من اليهود الذين يعملون في جبل طارق يتركون زوجاتهم في تيطوان حيث يمنعون من نقلهن . والتصريح للرجل بنقل زوجته يكلفه حوالي 200 دولار . والواقع أن نظام الحكومة المغربية يقوم على كثير من القيود المتشددة . وجميع السلع المستوردة ، مثل البارود والكبريت والحرير والحديد ، تحتكر الحكومة استيرادها،ولا يمكن للتجار في جميع المدن التعامل فيها الى لحساب الحكومة . وكذلك يحظر حظراً باتا على الشخص أن يشتري من السلع المذكورة سوى الكميات الضرورية لاستهلاكه الشخصي . ومن تجاوز هذه الحدود ، يعاقب بقطع يده .

فالكبريت ، مثلا ، يكلف الحكومة المغربية لدى وصوله الى تيطوان دولارين للكيل ، ولكنها تعيد بيعه بما يتراوح بين 16 و20 دولارا.على أن الصبغة القرمزية هي أكبر مصدر لدخل الحكومة من التعرفة الجمركية ، نظرا لأن اللون القرمزي هو الصبغة المفضلة لثياب المغربيات واليهوديات على السواء . والأمركذلك بالنسبة الى بعض ملابس الرجال . والصبغة القرمزية تساوي هنا حوالي 16 دولار للأوقية . وقد اتخذت إجراءات مشددة جدا لمنع التهريب ، بحيث أن أحدا لايحاول القيام بهذا النشاط .

وفي جميع المدن التي يصنع فيها الحرير الذي تستعمل فيه الصبغة القرمزية ، تعين الحكومة صباغا رسميا هو الذي يقوم بعرض المواد التي هي على وشك الصبغ على ممثل الحكومة الذي يزوده بالكميات التي يحتاج اليها من الصبغة . وعندما تنتهي عملية الصبغ تعرض الأقمشة المصبوغة على وكيل الصبغة القرمزية ليتأكد من أن الكميات التي ابتاعها الصباع قد استعملت كلها ولم يحول شيئ منها الى أي مكان في المملكة ، ولم يحتفظ بأي قدر منها لديه ، بحيث يعيد بيعها بدون ضرائب جمركية . والصباغ مضطر الى اعادة ما لم يستعمله من الصبغة الى الحكومة التي يقوم أعوانها بجولات تفتيشية ليضمنوا عدم امتلاك شخص لأكبر من القدر الذي يحتاج اليه .

تلقينا اليوم أخبارا تقول بأن الجيش الفرنسي سيشرع فورا في حملة عسكرية واسعة النطاق . والأمير عبد القادر يفترض أن تكدمت ومعسكر وتلمسان هي هدف هذه الحملة وتبعا لذلك ، أصدر أوامر الى السكان في نطاق خطة عسكرية يسير عليها ليستعدوا للجلاء عنها . وكذلك أصدر أوامر أخرى بتعبئة جميع الرجال الذين يستطيعون حمل السلاح ووضعهم تحت العلم . وقد فرض على كل جندي أن يحمل معه من الزاد ما يكفيه لمدة عشرة أيام .

لقد تولى الجنرال بيجو القيادة في الجزائر (1) وأما الدوق أورليان والدوق نمور ، فهما مصممان على الحصول على الأوسمة والنياشين في ميدان القتال في أفريقية ، وذلك حتى لوكسبا هذه الأوسمة والنياشين في قضية غير عادلة وفي حرب تدار معاركها بطريقة وحشية لا يوجد مثيل لها الا في الحرب التي يقوم بها البيض لا بادة قبائل الهنود الحمر في حوض نهر المسيسبي في أمريكا .

لقد ساورتني شكوك في ذلك الحين ، لم تلبث أن تأكدت ، بأن الهدف من هذه الاستعدادات العسكرية الكبيرة هو بعث الرعب في نفس الامير لحمله على عقد معاهدة صلح مفيدة لفرنسا . لأنه لا يمكن أن يساور الفرنسيين أمل كبير في الحصول على أية

(1) تولى الجنرال بيجو الولاية العامة في 29 ديسمبر ، خلفا للمريشال فالي .

نتيجة تفخر بها «الأمة الكبيرة» (*) في العمليات العسكرية في هذه المقبرة الضخمة للجنود الذين يحارب العديد منهم مكرهين ، ضد العرب الذين ولدوا أحرارا ويدافعون عن حقوقهم المشروعة .

ونحن كنا نعلم أن الأمير عبد القادر سوف لا يعقد أية معاهدة مع الفرنسيين قبل وصولنا إليه . ومع ذلك ، فقد شعرنا بالقلق فيما يتعلق بمساعدتنا لمواصلة سفرنا ، فقد كنا واثقين من أنه اذا كان الجيش الفرنسي قد غادر مدينة الجزائر ووهران في نطاق الحملة المزمعة ، قبل وصولنا الى «تكدمت» ، فسيكون من أصعب الأمور علينا الالتحاق بالأمير ، الذي يرجح أن يضرب معسكره لجمع قوات للقتال من غير الجيش النظامي في مكان لا نعرفه في داخل البلد .

قام بزيارتنا الليلة عربيان في محاولة لمعرفة ما إذا كنا متيقظين أو غافلين . وقد كنا في الليلتين الماضيتين لا نخصص لحراسة المنزل سوى أربعة جنود ، اثنين منهم كانا دائما ينامان في السطح . وهذان الجنديان هما اللذان دقا جرس الخطر بانذار الزائرين غير المرغوب فيهما . وعلى الفور استيقظ الجنديان القائمان بالحراسة في المنزل . ولما كنا ننام بثيابنا كاملة فأنه لم تمض سوى دقائق قبل أن نقف في السطح مشهرين أسلحتنا وعلى استعداد لصد المعتدين . وعقب ذلك بوقت قصير ظهر أحد اللصين على السطح المجاور . ولما أنذرناه بقولنا «من هو» (*) ، تراجع دون أن يجيب عن سؤالنا .

وقد فهمنا أن زيارته كانت استطلاعية ، ولما وجد أننا قوة مهمة تسلل وانسحب في تعقل ورزانة ولكنه بينما كان ينزل من سطح المنزل المقابل الى منزل أسفل منه ، عاجلناه بطلقة بندقية ، لابقصد إصابته ، بل لمجرد تخويفه قليلا .

وفي صباح اليوم التالي ألقي القبض على اللصين المتسللين وزج بهما في السجن. والغريب أن الشخص الذي أطلقنا عليه النار ، قد تنين أنه ينتمي الى أسرة من الأشراف ،

(*) العلامات في الأصل .

(*) بالعربية في الأصل .

ولكن دماء الأشراف كثيرا ما تختلط بدماء غير الأشراف وتنتج عنه نماذج تماما مثل النموذج الذي نعرفه في انجلترا في هاري الخامس المشهور. وبالتالي ، يجب ألا نندهش لانحراف في بعض الأشخاص الذين ينحدرون من سلالة النبي العربي .

كانت هذه الليلة ، حقا ، ليلة مغامرات . فلم أكد أستريح قليلا حتى أيقظتني طلقات مسدس في داخل الغرفة . وفي ثانية واحدة كنت واقفا على قدمي . ولما نظرت حولي ، وجدت الغرفة مفعمة بالدخان «وكنديدو» واقفا في وسطه وهو أشبه ما يكون بشبح الموت ، كانت عيناه شاخصتين وتكادان تخرجان من حدقتيهما ، وفمه مفتوحا تبدو منه أسنانه البيضاء بوضوح . وكلا ذراعيه ممتدتان في تجاه أفقي وهو يمسك في يده اليمنى بسلاح الموت ، بينما يدل مظهره العام على الذعر والدهشة .

وأول صيحة أطلقتها ، كانت «ياللشيطان ، ماذا يجري هنا ! »

والقضية أن الرجل الذي أحدقت الاخطار بنا بسببه أراد أن يفحص مسدسا ليرى ما إذا اكان في حالة تسمح باستعماله ، ففتح الزناد ولما أعاده الى مكانه بحذر ، انفلت منه وانطلقت الرصاصة التي استقرت في الحائط على بضعة أقدام فوق رأسي . وعندما تراجعت الرصاصة من الحائط ، لمست سراويل موسى المغربي (وهي من النوع التركي الفضفاض) الذي كان راقدا بجانب «كنديدو» ، واشتعلت فيها النار . وكذلك أصيب «كنديدو» برعب أذهله عن كل ما حوله بحيث كان يمكن أن يظل على حالته هذه حتى تلتهم ألسنة النار المنزل كله . ولكنني سارعت الى إطفاء النار . أما موسى ، فقد حك عينيه دون أن ينبس ببنت شفة سوى كلمة «كلب بن الكلب» (*) التي تلفظ بها بكثير من الوقار ! وكذلك أصيب مترجمي بذعر لا يقل عن هلع «كنديدو» الأسود ، وهذه كانت فرصة لي لأنفجر بالضحك من كل قلبي . وعندما استعاد «كنديدو» صوابه تماما ليروي لنا الشعور الذي كان يساوره ، قال لنا في عبارات لاتكلف فيها :

(*) بالعربية في الأصل .

إنه كان يحس أن رأسه أشبه ما يكون بقرعة كبيرة ! وأضاف انه لن يمس زناد مسدس بعد اليوم إلا إذا كان مسددا الى صدر عدو ...

والطريف ان هذه الضجة والانفجار لم تزعج قط نوم بقية الرفقاء ، ولو أن بعضهم فتحوا أعينهم عند انطلاق الرصاصة ثم لم يلبثوا أن استعادوا أحلامهم اللذيذة ..

وأما صديقي « مانوتشي » الذي كان نائما في الغرفة المجاورة فقد غلبه النوم تماما بسبب بقائه طول الليل ساهرا،بحيث أنه لم يسمع الطلقة النارية كلية .

عاد الرسول الذي وجهناه الى فاس حاملا رسائل من الحاج طالب ذكر فيها أنه استأجر الحيوانات التي طلبناها لمواصلة رحلتنا ، وقال أيضا : إن السيد « ابنصور » سيغادر تيطوان في صباح اليوم التالي .

وقد أعرب لنا الوزير الأول في رسالته عن أسفه العميق للأخبار التي وردت بأن الفرنسيين يستعدون للقيام بحملة ، وقال انه أبلغ هذه الأخبار الى السلطان وأنهما قد تضرعا (هو والسلطان) الى الله العظيم بأن ينصر صديقهما وحليفهما ، الأمير عبد القادر. وأضاف انه متأكد من أن الله سيجيب دعواتهما ويلحق الهزيمة بالجيش الفرنسي .

وعلى كل ، فإن رأيي المتواضع ، هو أن دولارات جلالة السلطان وبنادقه وما تستلزمه من البارود والرصاص ، ستكون لها قيمة لمساعدة الأمير عبد القادر أكبر من قيمة دعواته وتضرعات رئيس وزرائه .

على أن الواقع أن الحاج طالب ، بوصفه رئيس الوزارة وصديق الأمير عبد القادر الشخصي ، قد صنع أقصى ما في استطاعته لمناصرة قضية الأمير . وقد استعمل ستار التضامن الديني لكي يرد على كثير من احتجاجات الحكومة الفرنسية على حماية السلطان العلنية لمصالح الأمير ، كما يقضي بذلك الدين الاسلامي . وكذلك يعتبر الأمير عبد القادر في نظرهما قائداً لجيش إسلامي يجاهد من أجل الدين الاسلامي . وهذا هو الجواب الذي يقدمه رئيس الوزارة الى الفرنسيين كلما تقدموا باحتجاج اليه .

وكما حدث أثناء الحروب الصليبية حينما كان القساوسة يجوبون أطراف أروبا ليبثوا الدعاية للحرب بين الشبان وليأخذوا المساعدة المالية من العاجزين عن حمل السلاح لمواجهة تكاليف الحرب ، فان الأوامر السلطانية تصدر هنا أيضا وتحث المؤمنين على المساعدة بالمال للنّضال من أجل القضية المشتركة . وكذلك انتشر المرابطون في أصقاع الصحراء ليحثوا سكان الفيافي على امتطاء جيادهم ويسارعوا الى ميدان القتال للفوز بالشهادة ولنيل الجنة حيث تنتظرهم نعم الله . وهذا الايمان يبعث الرضى والسعادة في نفس أولئك الذين يعتنقونه .

وكما قال الشاعر الانجليزي ، ثوماس مور :

« اغفرلـي يا الهي ! فاذا كانت الجنة كما يصفها محمد ، فاني سأعبد الله ! »

لو استطعت أن أعتقد في الجنة وما ينتظر الشهيد فيها من النعيم ، لوفرت على صديقي الأمير عبد القادر رثاءه لحالى من حيث أنني كافرٌ محتوم المصير . وإذا لسَارعتُ ولعملت جهذي للحصول على الكفن الأبيض وعلى أربعة من حملة النعش الأوفياء ليخرجوني من هذه الدنيا الزائلة ليلقوا بي في أحضان الجنة التي تغري المجاهدين بالاستشهاد في سبيل الله .

كان اليهود منهمكين جدا ني العمل في غضون الأيام القليلة الماضية لتبييض منازلهم استعدادا للاحتفال بعيد الفصح الذي يبدأ يوم الغد . والمعروف أن مظاهر الاحتفال الأنيق بهذا العيد تختلف بين بلد وآخر . فبينما يقيم الناس زينة الاحتفال في الصين بطول الأظفار ، نجد أن عظمة الاحتفال بعيد الفصح في هذا الجزء من العالم تتجلى في ألوان الملابس ، أو على الأقل ، ملابس السيدات . وبمناسبة هذا العيد تقوم اليهوديات لا بصبغ أظافرهن فحسب ، بل وأيضا أيديهن . والطريقة التي يسرن عليها في هذه الزينة ، هي أن يقمن بإعداد عجينة من الحناء ويغطين أيديهن بطبقة كثيفة منها ثم يلففنها في عصابات طوال الليل . وفي الصباح تسقط قشرة الحناء وتصبح الأيادي الناعمة حمراء جميلة ! وهذه الصبغة تبقى ثابتة مدة ثمانية

أو عشرة أيام . وفي نهاية الأيام الثمانية التي تستغرقها احتفالات عيد الفصح ، يغسلن أيديهن ثم يعدن الى ممارسة بقية أعمالهن .

6 أبريل — وصلت قافلة كبيرة من تلمسان قادمة عن طريق فاس . ولمَّا عرفوا أننا عازمون على السفر الى تلمسان أبدوا رغبتهم في السفر معنا . وكذلك أبلغونا أن السيد « ابنصور » سيصل في اليوم التالي . والطريق التي تمتد من هنا الى تلمسان تمر بصحراء « أنكاد » ، وهي عامرة بأخطر لصوص افريقية . وكذلك تقدم الينا عدد كبير من العرب وأبدوا رغبتهم في السفر مع هذه القافلة الكبيرة التي ترافقها قوة عسكرية .

وفي غضون الليل ، كان ربُّ المنزل وأصدقاؤه يقرعون آذاننا بالأغاني والتراتيل الدينية . وبينما يتضرع الحاج طالب وسلطان المغرب الى الله أن يسحق الفرنسيين ويردهم على أعقابهم ، يغني هؤلاء اليهود الليلة بانتصارات قومهم المزعومة في مصر ! وهم في نفس الوقت لا ينسون أن يتضرعو الى الله أن يهلك جميع المسيحيين والمسلمين على السواء ويقضي عليهم الى أبد الآبدين ، حتى تظهر أمتهم العظيمة على صفحات التاريخ مرة أخرى . ولكنه قبل أن يحل ذلك الوقت ينبغي على اليهود أن يكونوا أقل خوفا وهلعا حتى لا يتعرضوا للرصاص والصلب ... وهم على كل حال لا يعالجون في الوقت الحاضر هاتين المادتين (يوصفهم أمة) الا بالتجارة فيهما !

على أن لكل قاعدة استثناء . وهذا ما سنراه في سلوك السيد « ابنصور » في الطريق الى تلمسان .

ربما كان الآلاف من الاتقياء من جيراننا (أي الفرنسيين) يوحدون الآن صلواتهم ويجأرون بدعواتهم الى الله في كنائسهم وخصوصا في كاتيدرائية « نوتردام » ، ليسترحموا العناية الالهية لكي تناصر « الدم الملكي » (*) وذوي الشوارب الشجعان الذين يحاولون جهدهم غرس الصليب في البقاع التي يرجح أن يبقى الهلال فيها وقتا طويلا صاحب

(*) العلامة في الاصل .

السيادة . كم من جريء قام أو يقوم الآن بجني آخر قبلة من شفاه حبيبته وهو يعدها بأن يعود اليها ورأسه متوج باكاليل الغار؟ ومثل أبطال قصة « مسرغان » (1) المشهورة ، فسيقول هذا الشجاع لحبيبته أنه سيلقي بتلك الأكاليل عند اقدامها على انغام الموسيقى وأناشيد الشعراء المتجولين ... ولكن مصير هذا الشجاع يختلف عن ذلك كل الاختلاف. والمرجح أنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة على فراش المرض أو في مكان مجهول في الخلاء . فان المعروف أنه من غير الممكن استعمال حمالة لنقل الجرحى من ميدان القتال حيث يتركونهم مع مصيرهم المحزن في معظم الحالات . ان مصيرهم محزن حقا متى سقطوا في أيدي بعض العرب . وأما العناية الطبية والجراحون ، فهي أمور نادرة في أراضي الأمير . والجراح هنا انما تبرأ بفضل عمل الطبيعة . وموت الجندي في المعركة شيء غير مرعب ، ولكن المرعب هو أن يتقلب عدة شهور على فراش المرض أو يصل الى قبره عن طريق التعذيب البطيء . وكم من هؤلاء الشجعان يتنزى من الألم نتيجة لجراحه وهو يحلم تحت وطأة الحمى بعصا المريشال !

ما أحقر الضغائن والأحقاد التي تعتلج في نفوس الأفراد وتقض مضاجع الأمم ، في نظر تلك القوة التي تحكم عدة عوالم تظهر الكرة الأرضية أمام كل منها صغيرة متواضعة ! ولربما كان سكان جميع هذه العوالم متنوعين وينتمون الى أجناس مختلفة مثل سكان هذه الأرض . وليس من شك في أن العلاقات بين الأفراد والأمم فيها تقوم على المشاحنة والعداوة ، مثلما هي الحال بيننا نحن في الأرض .

كيف نفصل بين الاعداء ونعيد السلام الى العلاقات الدولية ؟ إن القاعدة الذهبية في رأيي لهذه التسوية بين جميع العقلاء ، هي تلك التي تقول : «عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به» . إن التجربة التي استخلصتها من معاملة الناس ، هي أنه يوجد عدد كبير

---

(1) مسرغان قرية تقع غير بعيد من أرزيو . قام هذا الحصن في سنة 1840 بمقاومة صامدة في وجه قوة عربية يبلغ عدد رجالها 7000 جندي وضابط بقيادة ابن عراش . وبهذه المناسبة تلقى جميع الجنود الذين تتكون منهم حامية الحصن ، ميدالية شرفية . وأما الضباط وضباط الصف ، فقد تلقوا جوقة الشرف التي أعتقد أنهم قد استحقوها لشجاعتهم في هذه المناسبة (تعليق المؤلف) .

من المسلمين الأخيار ، كما يوجد عدد كبير من الرجال والنساء الأخيار بين أبناء الديانات الأخرى . ورجائى أن تتسع الجنة لنا جميعا وتتحقق النبؤة القائلة : « لا يوجد سوى قطيع واحد وراع واحد » .

* * *

الفصل الرابع

وصل «ابنصور» صبيحة يوم 8 حاملا معه هدايا من الحاج طالب ، عبارة عن سرج جميل مطرز وركاب من الفضة ولجام من نفس الطراز للسيد «ماتوتشي» . وكذلك اصطحب معه عددا من البغال المثقلة باحمال من الدقيق والكسكس وغير ذلك من المواد الغذائية بكميات كبيرة ، بالاضافة الى فرس عربي أصيل رمادي اللون. ونظرا لأن هذا هو اللون الذي يعجبني بصفة خاصة ، فقد حصلت عليه على الفور من صديقي «مانوتشي» .

وقد حضر مع « ابنصور » اليهودي الذي اعتنق الاسلام وتسمى محمدا . وقد كان سلوك هذا الشخص في فاس سيئا بحيث استحق «الفلقة » بالعصى المصنوعة من خشب البرتقال .

والى جانب هذا الشخص ، رافق « ابنصور » ضابطان ، أرسلهما السلطان ليرافقانا الى تلمسان . أما صديقنا الضابط عبد الكريم ، فقد ودعنا ومنحناه مبلغ 32 دولارا في مقابل شرف مرافقتناله حتى الآن .

وهنا ، ينبغي أن يعرف القارئي أنه متى أتيح للمسافر الحصول على مرافقة عسكرية ، فهو غير مطالب بدفع أي مبلغ في مقابل تلك المرافقة . ولكن المرافقين يعتدون أن لهم الحق في الحصول على دولار واحد عن كل واحد من المسافرين.هذا بالنسبة الى

الجنود . وأما الضباط ، فهم يتوقعون من المسافر مبلغا يتراوح بين 8 و 32 دولار ، حسب رتبهم العسكرية .

وفي يوم 9 من الشهر ، قصد السيد «مانوتشي» الى قصر الحاكم ليودعه وليطلب اليه تجهيز القوة العسكرية التي ترافقنا في صباح اليوم التالي . وقد توجه السيد « مانوتشي » الى القصر في لباس تركي وفي موكب رسمي فكان يرافقه اثنان من خدمنا العرب ويسيران على كلا جانبي فرسه ، بينما كانت تتقدمه قوة عسكرية تتكون من عشرين جنديا . وفي مؤخرة الموكب ، كان يسير الضابطان اللذان بعث بهما السلطان من فاس . وقد أخليت الشوارع كلية من المارة بينما كانت الأرصفة مزدحمة بالجمهور الذي ينتظر مرور « أسد » اليوم .

قام بزيارتنا اليوم اثنان من أبناء أحد المرابطين الذين يقطنون في جوارنا . أما اكبرهما ، فيبلغ نحو الخمسين من العمر . وأما شقيقه ، فهو أصغر منه . وقد باركا سفرنا ورفعا أيديهما بالدعاء الى الله بأن يؤمن وصولنا سالمين الى تلمسان عبر صحراء «الا نكاد» . وبعدما تناولا معنا غذاء خفيفا يتكون من اللحم المحلّى والفواكه (واللحم المحلّى حملنا كميات كبيرة منه معنا من جبل طارق) ، ودعنا الصديقان مؤكدين لنا أنهما سيستمران دائما على الدعاء لنا وللقضية المقدسة التي وهبت لها نفسي مع صديقي السيد «مانوتشي» . والمرابط ، رجل تختلط فيه خصائص الصالحين والمغفلين والمجانين . وعندما يتلفظ بكلمات غير مفهومة ولامعنى لها ، يحتار العامة بشأنها ويبذ لون كل مجهود عقلي لحل الغازها . ومتى عجزوا ، توهموا أن ذلك مرجعه الى نقص في ذكائهم ، حيث أن اللغز ، سر من أسرار الكون ...

وفي صباح يوم 11 من الشهر ودعنا مدينة «تازا» وقضينا ليلتنا في فندق اقامته الحكومة لإيواء المسافرين مع القوافل ولحمايتهم . وهذا الفندق يتكون من حوش مربع تحيط به أسوار يبلغ سمكها قدمان وارتفاعها اثنا عشر قدما . وبين كل مسافة خمسين وستين ياردة ، يقف برج يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدما في عرض ثمانية او عشرة أقدام . والأبراج مزودة بفتحات لفوهات البنادق .

وهذه الفنادق (أو القلاع ، إن شئت أن تسميها كذلك) عادة في حالة يرثى لها من التضعضع بسبب عدم العناية باصلاحها وترميمها . وهذا الفندق مشهور لأنه يحتوي على قبر السلطان اسماعيل الذي لم يبق منه في الوقت الحاضر ، سوى آثار مبعثرة . وهذا القبر لا يستحق أي اهتمام من الناحية المعمارية ، حيث أنه عبارة عن منزل مقسم الى غرفتين : يبلغ طول الغرفة الخارجية منهما اثني عشر قدما في عرض عشرين قدما ، والغرفة الداخلية يبلغ عرضها ثمانين أقدام ، وعرضها مماثل لعرض الغرفة الأولى . وفي الغرفة الأخيرة توجد بقايا أثر تذكاري يبلغ طوله ست أقدام وعرضه أربع أقدام ، سقطت قمته ولم يبق منه سوى الحيطان . كنت مستمرا في ابحاثي عندما اكتشفت أن الحظ وحده هو الذي ساعدني على القيام بهذا الاستكشاف . فلو شاهدني أحد أدخل هذا المبنى لما سمح لي المغاربة بالقيام بهذا البحث .

جاء الحاج محمد ليبخث عني . فلما وجدني ، أفهمته بالاشارة انني قد ارتكبت الخيانة العظمى بدخولي الى هذا الضريح ، وأنني سأخرج منه في اسرع وقت ممكن ، حيث أن الأمر سيكلفني كثيرا لورآني العرب .

وهنا قمت بعد الحيوانات التي تسير في قافلتنا ، فوجدت انها تبلغ 420 حيوانا للنقل (البغال والجمال والجياد الخ .) و 160 شخصا (زيادة على القوة العسكرية التي تتكون من عشرين جنديا وضابطين) .

والمفروض ان هذه القوة العسكرية سترافقنا الى «أزا» فقط . وهنا ك ستحل محلها لنفس المهمة قوات جديدة يوفرها القائد بوزيان . وقد كان من ضمن قافلتنا فريقان من الحجاج والزوار : أحدهما جمع من الحجاج يتجهون الى تكدمت ، ومن هنا ك الى طرابلس ليلحقوا بالقافلة التي تتجه من هناك كل سنة الى مكة ، والفريق الآخر ، يحملون علم النبي الذي يعلوه هلال مركب على عمود يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام . وهؤلاء يتجهون الى جبل يتمتع بقداسة خاصة عند المسلمين والمسيحيين معا ، حيث أنه يحتوي على قبور أولئك الذين سقطوا في المعارك أثناء الحروب الصليبية . والتضحيات التي تكبدها المسلمون في هذه الحروب ، هي التي جعلتهم يستميتون في الدفاع عن

هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية ، ويرفضون بعناد التسليم في فلسطين مهما كان الثمن . والمعروف إن مبالغ طائلة عرضها اليهود والمسيحيون في مختلف العهود على السلاطين . ولكن الامبراطورية العثمانية رفضت التسليم في فلسطين لهؤلاء ولأولئك (1) .

وفي ، يوم 12 من الشهر ، اجتزنا نهرا يسمى « النهر المالح » ولكنه في الحقيقة ليس الا أهم روافد هذا النهر . وفي يوم 13 ، وصلنا الى وادي « أزا (2) » الجميل الذي تقع فيه القرية التي تحمل نفس الاسم . وهذه القرية غير مرسومة على الخرائط . ومن هذه الملاحظة استنتج أنها نفس القرية التي تسمى «اليوب» والتي تقع عند 36 درجة عرض ، وحوالى 1 ، 40 غربي جرينتش . وفي غضون الايام الثلاثة الأخيرة ، كانت طريقنا تمتد بين جبال جرداء في بلاد الانكاد (3) وهذا الوادي الجميل يخفف من وطأة الأراضي القاحلة التي نجتازها وكأنه واحة في الصحراء .

---

(1) بدأت محاولات اليهود لحمل الامبراطورية العثمانية على الاعتراف لهم بوطن قومي منذ عهد السلطان سليم الثاني 1566 ـ 1574 الذي كان يسيطر على شؤونه المالية يهودي ثري اسمه «جوزيف ناسي» ، من أصل برتغالي هاجر الى القسطنطينية بعد طرد البرتغال لليهود من أراضيها . وقد ضغط هذا اليهودي بكل ثقله المادي وحيله واغراءاته على السلطان (السكير) ليحمله على تعيينه مالكا على قبرص بعد احتلالها لتكون وطنا قوميا لبني جلدته الذين طردوا من اسبانيا . وفي مرحلة تالية عرضت مبالغ كبيرة من المال على السلطان عبد الحميد لاغرائه بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل هي الأخرى ، ولم ينجح اليهود في تحقيق أغراضهم الاستعمارية الا بوعد بلفور الذي قطعه الوزير البريطاني للصهاينة في سنة 1917 .

(2) وادي أزا ، في جنوب عين البرديل ، عن يمين وادي ملوية . والجدير بالاشارة أن ابن خلدون يكتب هذا الاسم صادا في وسطه زاي ، تنويها بان نطقه بين الصاد والزاي ، وهو نطق بربري .

(3) مجموعة من القبائل الرحل والمستقرة ، تمتد أراضيها الصحراوية في معظمها ، في جنوب أراضي بني سناسن ، بين جبال التل والحميان وعلى عكس ما يعتقد الكلونيل اسكوت ، فان شطرا من هذه القبيلة العاتية (الانكاد الشراقة) قد أصبحت تعترف بسلطان الأمير ، بعد الاضطرابات الدموية التي تسبب فيها الغمري الذي حكم عليه بالاعدام 1834 ، وابن الغمري حل محل أبيه . والانكاد ينقسمون الى خمس قبائل رئيسية : أولاد سيدي خليفة وبنو مطر والخرج وأولاد بلحور وأولاد الحمل . وهذه القبيلة الأخيرة هي التي اشتهرت بوجود كثير من اللصوص وقطاع الطريق من بين أفرادها . وقد كانت بلاد الأنكاد والحميان تشكل «أغاليك الانكاد» تحت الادارة التركية .

وفي هذا الوادي تمتد عدة قرى عربية ، وأما القرية التي يقطنها اليهود ، فهي تقع على منحدر إحدى الهضاب ويحيط بها حائط مبني بالحجر يبلغ ارتفاعه نحو 12 قدما . واليهود هنا يتمتعون بامتيازات حماية خاصة . ويوجد في هذا الوادي فندق يشبه الفندق الذي قضينا فيه الليلة البارحة ، ولكنه مهدم كله . ولذلك ، فقد ضربنا مخيما غير بعيد من جدول صغير يسقي آراضي الوادي ، وينصب ، هو ايضا في النهر المالح .

وفي يوم 14 ، غادرنا هذه المنطقة الجميلة وقضينا ليلتنا في فندق آخر ، اقيم في عهد السلطان اسماعيل الذي يبدو أنه كان أكثر سلاطين المغرب تفتحا ، حيث أن جميع المرافق العمومية ، شيدت (أو قيل إنها شيدت) في عهده . وهنا فارقنا الحراس الذين رافقونا من «تازا» ، وتلقوا مكافاة عن هذه المهمة ، وهي عبارة عن دولار من كل مسافر في القافلة .

كنا في غضون هذه الرحلة محظوظين حقا ، حيث أننا لم نتلق اية زيارة من اللصوص . ولكن عدم قطع اللصوص لرحلتنا يرجع أساسا الى ضخامة قافلتنا التي كانت أكبر قافلة مرت بهذه الطريق منذ عدة سنوات . ولكن عصابة من اللصوص (حوالى خمسين على ظهور الجياد) ظهرت عند مضيق جبلي صعب المرور نهار اليوم . فلو حاولوا الهجوم علينا لضمنوا لأنفسهم فرصا للنجاح . انهم ، بدون شك ، يملكون قوات احتياطية أخرى ، ولكن اللصوص قلما يشتبكون في قتال مع قافلة كبيرة يتوقعون منها مقاومة صامدة .

وفي يوم 15 وصلنا إلى وجدة (1) . وهذه المدينة تحمل في الخرائط اسم «تفزرا» . وقد كان في نيتي ان اضع رسما لهذه المدينة التي هي آخر مدن مملكة السلطان في الشرق ،

(1) مدينة في شمال شرقي المملكة المغربية قاعدة الولايات الشرقية . تقع على مقربة من وادي أيسلي على الحدود المغربية الجزائرية ووجدة ، كما يقول البكري ، عبارة عن مدينتين مسورتين أحدث احداهما يعلى بن بلجين الورتغنيني ، بعد سنة 440 هجرية ، والأخرى حديثة .

ولكنني وجدت بعد التفكير ان مثل هذا العمل سيكون خاليا من كل اهمية . حيث ان المعالم الوحيدة التي يمكن مشاهدتها في مثل هذا الرسم ، هي منارة مسجد وجدة . واما المدينة نفسها ، فهي تحتضنها غابات الزيتون الواسعة والحدائق الكثيفة الظلال التي تحيط بمنازلها .

استقبلنا والي وَجْدة بجميع مظاهر الحفاوة والتكريم . وكان قد وجه عشرين جنديا ليحلوا محل القوة التي كانت ترافقنا حتى الفندق . وقد تقدم احد هؤلاء الجنود القافلة بمرحلة ليعلن إلى الوالي مقدمنا . ولما وصلنا الى المدينة وجدنا ان مقر الضباط قد اعد لاقامتنا . وهو يتكون من غرفتين كبيرتين جميلتين . وبمجرد نزولنا من على ظهور جيادنا ، وجه الوالي عبيده السود ليحملوا إلينا القهوة والكعك والعسل الحديث الجني .

يمكن تقدير عدد سكان مدينة وجدة بنحو 10,900 نسمة (900 منهم من اليهود) . وهذه المدينة تشكل حاليا الحدود الفاصلة بين المملكة المغربية ومملكة الامير عبد القادر . ولكن حدود المغرب الاقصى كانت في الماضي تمتد حتى نهر تافنا . وقد وهب السلطان الاراضي التي تمتد بين وجدة ونهر تافنا للامير عبد القادر كعربون لتقديره له (1) . ومن الوجهة الاسمية البحتة ، يعتبر الأمير عبد القادر خليفة للسلطان على هذه الاراضي . ولكن هذا الاعتبار لايحط من قدر صاحب السمو الملكي الامير عبد القادر في الظروف الحالية ، حيث ان السلطان ، على الرغم من انه اقل مقاما من السلطان العثماني ، فهو مع ذلك يعتبر رئيس المسلمين الأعلى ، لأن امبراطور القسطنطينية نفسه يدعو له في خطبة الجمعة التي تقرأ في مختلف انحاء مملكته .

---

(1) الواقع أن السلطان عبد الرحمن لم يتنازل قط عن سيادته على وجدة والمناطق الشرقية ، كما يدل على ذلك احتفاظه بعامل وبجيش مهم في بعض الأوقات في هذه المنطقة الحساسة . وكل ما في الأمر هو أن السلطات المغربية فتحت الحدود بين البلدين للسماح للأمير عبد القادر بتلقي الذخيرة والأسلحة عبر الحدود ، ولاتاحة الفرصة المكروهة لبعض القبائل بالمساهمة في المجهود الحربي الجزائري . على أن السلطان عبد الرحمن . سوف يعدل عن هذه السياسة عقب معركة إيسلي ، وهي تطورات وقعت بعدما سجل الكلونيل اسكوت مذكراته بوقت.

وفي يوم 17 من الشهر ، رحلنا عن وجدة ، بعدما دفعنا المكافأة المعتادة لحراسنا . وبهذه المناسبة ، قدم لنا والي وجدة هدية كبيرة مثل الهدية التي قدمها لنا قائد «تازا» عند مغادرتها (وأنا قد أهملت ذكرها في حينه) . وهذا تقليد متبع .

إن البلاد التي تمتد بين وجدة وتافنا عبارة عن سهول قاحلة . وعلى ضفاف الجداول والأنهار الصغيرة تمتد قرى الأنكاد العديدة ، وهي قبيلة ،كثير من أبنائها يمارسون السطووقطع الطريق . ونهر وجدة (وادي إيسلي) . يلتقي بنهر تافنا ، مثل نهر تلمسان (اسر) ، بل إن النهرين هما الرافدان الأساسيان لنهر تافنا . ونهر تافنا قد اشتهر ، خصوصا ، بالمعاهدة التي تحمل اسمه والتي عقدها الأمير عبد القادر مع الجنرال بيجو في 24 صفر 1253هـ ، أو 30 مايو ، 1837 ميلادية (1)

ولما وصلنا الى هنا بعد الزوال ، بدا لنا أن الأفضل أن نستمر في السير فترة حتى نقصر المسافة التي تفصل بيننا وبين تلمسان بحيث نصل الى هذه المدينة يوم الغد . وبمجرد ما يقطع المسافر نهر تافنا ، تتغير طبيعة البلد الذي يمر به من سهول الى جبال .

وعند هذه النقطة في مسيرتنا ، غادرنا جنود السلطان ، حيث لم نعد الآن نواجه أي خطر ، ولم يبق في رفقتنا سوى الضابطين المغربيين . ولم نكد نقطع فرسخا واحدا حتى لقيتنا كوكبة من قوة خيالة الأمير عبد القادر تحمل معها رسالة من ابن نونة ، حاكم تلمسان من قبل الأمير موجهة الى رئيس أية قبيلة نقضي ليلتنا عندها ، تنقل اليهم الأوامر بأن يمدونا بكل ما نحتاج اليه .

لقد كانت معاملتنا في أراضي سلطان المغرب ممتازة من جميع النواحي ، أما هنا ، في أراضي الأمير عبد القادر ، فاننا نعامل معاملة الأسياد بحيث لا يقتضي الامر منا سوى إصدار الأوامر حتى نحصل على كل ما نريده . على أنه يجب الاعتراف بأنه لم نحتج حتى إلى إصدار الأوامر ، فقد كان المخزني المكلف بأمرنا يعني بكل شيء ويستجيب لرغباتنا قبل أن نعبر عنها ، وفي المساء توقفنا عند خيام بعض العرب .

(1) راجع نص معاهدة تافنا في الملحق رقم 1

وهناك يمكن مشاهدة آثار نصف برج غير بعيد من الطريق ، يبلغ طوله نحو 60 قدما وعرضه 20 قدما مربعة . وفي جزء من سور يحيط بضيعة تقع على مسافة نحو نصف ميل من تلمسان ، يوجد نصف برج مماثل للنصف المذكور . وتقول أسطورة عربية إن النصفين كان يشكلان برجا واحدا ، ولكنه نظرا لان عربيا ويهوديا قد اشتركا في بنائه وتنازعا على بعض المسائل التي تتصل ببنائه ، اختفى النصف الذي صنعه اليهودي تحت جنح الليل ، ثم اختفى النصف الذي صنعه العربي الذي وجد طريقه الى مكانه الحالي .

والضيعة المشار اليها ، تحتوي على 8 أكْرات من الأرض يحيط بها سور يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام وسمكه قدمان . وأما تاريخ بناء هذا السور ، فاني لم اتمكن من معرفته بالدقة ، ولكن المعلوم أن الذي بناه ، هو أحد سلاطين المغرب ، وكان قد ضرب حصارا على تلمسان خلال مدة ثلاثة أعوام ، اضطر في نهاية الأمر الى فك الحصار والرجوع الى بلده ، دون أن يفتح المدينة (1)

وقيل أن هذا السلطان هو مولاي ادريس . ولكنه نظرا لعدم تمكني من الحصول على معلومات أصيلة في هذا الموضوع ، فانني أكتفي بترديد هذه الأقوال ، دون أن أدعي أنها تمثل الحقيقة .

لم نكد ننتهي من ضرب خيامنا ، حتى راينا نصف خروف مشوي في طريقه إلينا . وبعد ذلك بساعة وصلنا النصف الثاني مع أطباق الكسكس ودجاجتين في صحن جانبي . وكذلك قدمت كميات كبيرة من الشعير لعلف خيولنا . ولأول مرة في هذه الرحلة ننام في راحة تامة دون أن نشعر بالخوف المزعج من اللصوص وقطاع الطريق . فإن رئيس القبيلة التي نزلنا عندها ، أصبح هو المسؤول الآن على سلامتنا وأمننا تجاه الأمير . وكذلك وضع ثمانية حراس حول خيامنا وأمرهم باطلاق النار على كل من تسول له نفسه الأقتراب من خيامنا بعدما آوينا الى داخلها للراحة.

(1) يشير الكاتب في هذه الرواية الغامضة ، بدون شك ، الى حصار أبي يعقوب المريني ، سادس سلاطين بني مرين ، لتلمسان ، ذلك الحصار الذي دام 8 أعوام وثلاثة أشهر (698 ـ 706هـ) .

لاحظ أحد العرب لشيخ القبيلة الذي لم يكن عمره يتجاوز الثامنة عشرة أنه ينبغي أن يحرس القافلة أيضا ، فأجاب الشيخ قائلا إنه ليس بمرغم على حمايتها لأنه إنما يفدي بحياته هؤلاء (مشيرا الينا) . وهذه المحادثة التي بلغت أسماعنا أوحت الينا بالثقة التامة ، فنمنا وقلوبنا هادئة لايساورها أي خوف بأن تقطع نومنا طعنة خنجر .

لاح صباح يوم 18 في أفق ملبد بالغيوم وشعرنا ببرد شديد ، مما جعلنا ندرك أن سفر اليوم لن يكون ممتعا . وعلى الرغم من أن الموسم موسم أمطار ، فان الجوكان دائما مشمسا ولم ينزل المطر قط منذ أن غادرنا تيطوان ، فيما عدا يوم دخولنا الى تازا .

لم نكد نشرع في استئناف رحلتنا حتى بدأ المطر يهطل والبرد ينزل ، وبعد ذلك جاء الثلج ... ومما زاد من متاعبنا طبيعة هذه الأرض الجبلية وصعوبة الطرق .

وعلى الساعة الواحدة بعد الزوال ، وصلنا الى مخيم مولاي ادريس . ومن هناك انطلقنا في المرحلة الأخيرة الى تلمسان التي وصلناها على الساعة الثانية .

تقع تلمسان على مرتفع من الأرض (1) وتمتد في جنوب شرقها هضاب تشكل السلسلة التي تمتد على مقربة من تافنا ثم تتجه الى الشمال وتنتهي عند ساحل وهران . وموقع تلمسان عند درجة 39° 40' عرض ودرجة 1° طول غربي جرينيتش . والمدينة تكاد تحيط بها الأشجار من جميع الجهات . ليس من شك في أن عدد سكان تلمسان قديما كان يتجاوز 100,000 نسمة . وخرائب المدينة القديمة تمتد في جميع الجهات

(1) تلمسان بكسرتين وسكون الميم (وتسمى أيضا تنمسان بالنون عوض اللام) وهي المدينة التي كانت تسمى بوماريا (Pomaria) في عهد الرومان . وبعدما أصبحت قاعدة الاقليم في عهد ادريس الأول ، أصبحت مركزا مهما للدراسات الفقهية تحت سلطات المرابطين أسسوا مسجدها الكبير (في رواية) كما كانت مركزا مهما للتبادل التجاري بين الغرب والشرق والشمال والجنوب . ولما ضعف سلطان الموحدين في الصنف الأول من القرن السابع الهجري ، أصبحت عاصمة المغرب الأوسط تحت سلطان بني عبد الواد . ولكن المدينة شهدت تدهورا حضاريا وسياسيا في مركزها في عهد الأتراك . وقد قام كلوزيل بالحملة الأولى على تلمسان انتقاما لمعركة المقطع ، في 13 يناير 1836 ، وجلا عنها في فبراير ، وذلك قبل أن يحتلها العدو مرة أخرى في الحوادث التي يرويها الكلونيل أسكوت الذي يعتبر شاهد العيان الوحيد من الطرف الغربي .

حول المدينة الحالية ، ولاسيما في الاتجاه الشمالي وفي الجانب الشمالي الشرقي . والمدينة الحالية تحيط بها أسوار . وهذه الأسوار ، على الرغم من أنها ترجع الى عهود سحيقة فان من الواضح أنها أحدث من الأسوار القديمة التي تعلوها طبقة من الطحلب . وهي تترك في نفس الزائر أثرا قويا عن عظمة هذه المدينة التي كانت وقتا ما من أهم العواصم الاسلامية . والمشور (1) أو حصن المدينة يتسع لنحو خمسة آلاف جندي ، ويحيط به سور يبلغ ارتفاعه نحو 40 قدما .

ويبلغ عدد سكان تلمسان في الوقت الحاضر عشرين ألف نسمة ، نحو ألف منهم من اليهود . وهنا انشا السلطان (عبد القادر) مصنعا للمدافع كلف بادارته خبيرا اسبانيا يسمى «دون خوسي» . والقطع التي أنتجها هذا المصنع حتى الآن تبلغ قذائفها 4 و 6 ارطال ، وهي مصنوعة من النحاس . وقد رويت لي قصة عن هذا الخبير أعجبتني كثيرا . فعندما وصل الى هنا لأول مرة ، شعر - مثل أي أندلسي حقيقي - بكثير من الغيظ حين وجد نفسه معزولا عن الجنس اللطيف . فان التقاليد الاسلامية السائدة في هذا البلد قد حالت دون قيام أي اتصال بينه وبين السيدات العربيات . وأما اليهوديات ، فان الكاثوليكي الحقيقي ولاسيما من الاسبان يعافهن ويشعر بتقزز ازاءهن .

وبعد ما أثبت للسلطان (عبد القادر) أنه « معلم » ماهر في صناعته ، حينما صنع له مدفعين تزن قذائف كل منهما أربعة أرطال ، طلب المثول بين يديه ليبلغه بكل صراحة انه لن يبقى في عمله إلا إذا سمح له بالزواج بامرأة تكون شريكة حياته وتساعده على

(1) كلمة «المشور» كانت تعني في الأندلس وفي المغرب «قاعة الشورى» . ونظرا لأهمية المشاورات التي كان يجريها الملوك والسلاطين ، فقد كانت هذه المجالس تعقد في قلعة حصينة ، ومن هناك أصبح يطلق على القلعة نفسها اسم «المشور» . وأما مشور تلمسان ، فيعود بناؤه الى النصف الأول من القرن السادس الهجري ، ولو أن يغمراسن ، سلطان بني عبد الواد ، هو الذي حصنه كما قام أحمد أبو العباس ببناء أسواره التي تحيط بعدد من البنايات ومن أهمها المسجد ، وأكمل بناء منارته في وقت متأخر . وفي عهد الأتراك ، هدمت كثير من البنايات الداخلية وأبقى على الأسوار التي كان الكلغليون يتحصنون بها . وعندما احتل الفرنسيون تلمسان ، حولوا المشور الى مخازن للجيش ومنشأة عسكرية . وفي المشور تحصن مصطفى بن اسماعيل مع عدد من أتباعه ضد الأمير عبد القادر خلال الفترة بين 1834 ـ 1836 .

تحمل الوحدة التي يعانيها . وعند ذلك قال له الأمير عبد القادر إنه ما عليه إلا أن يعتنق الدين الاسلامي ، وحينئذ سيكون في امكانه أن يتزوج أربع نساء إن شاء ذلك . ولكن ميل «دون خوسي» إلى اعتناق الاسلام لم يكن اكبر من ميله الى التزوج باسرائلية جميلة . ولذلك ألح على السلطان بأن يسمح له بالسفر ، وعندئذ سأله الأمير عبد القادر الذي كان حريصا على استبقائه في خدمته ، ماإذا كان يعرف أية امرأة في المنطقة التي يحتلها الفرنسيون يمكن أن ترضى بالالتحاق به .

وقد ابلغه «دون خوسي» أنه توجد في الحقيقة امرأة ترضى بالقدوم اليه تسكن في مدينة وهران ، وذكر له الشارع . وعند ذلك قال السلطان انه يجب عليه ألا يهتم بالأمر بعد الآن ، ثم وجه رسولا سريا الى وهران في الحال . ولم يمر على هذه المقابلة سوى ثلاثة أيام حتى عاد الرسول مصطحبا معه السيدة الجميلة موضع الذكر ، الأمر الذي كان مثارا لغبطة الخبير العاشق . الذي استانف نشاطه بحماس مجدد في صنع المدافع التي يكافؤ بمبلغ 3 دولارات ، أو12 شلن وستة بنسات ، لانتاج القطعة الواحدة منهما .وكذلك منح بيتا جميلا للسكن في المشور ، وكان يتلقى كل ما يطلبه من المواد الغذائية . وفي نفس الوقت ، صدرت أوامر لبعض اليهود بأن يمدوه بما يحتاج اليه من الخمر لنفسه وللعمال الأجانب الذين يعملون تحت أوامره في المصهر .

ومعظم هؤلاء العمال من الذين اختارهم «دون خوسي» من بين الأسرى الذين يحتفظ بهم الأمير عبد القادر هنا في تلمسان . ومن بين الخبراء الذين يساعدون «دون خوسي» في مهمته ، ضابط برتبة قبطان في جيش المشاة (الفرنسي) ، وهو أسير يقيم هنا في الوقت الحاضر . وقد سمح له الباي بوحميدي بأن يعيش مع «دون خوسي» وبأن يمتع نفسه بأفضل ما يستطيع ، بالصيد والقنص «مثلا» . ومنطقة تلمسان من أغنى مناطق العالم بالطيور البرية . فان هذا الضابط الفرنسي قد عاد ذات يوم من رياضته وحمل معه 32 قطعة من الحجلان .

والحكومة هنا تسمح للأسرى جميعهم بالخروج والتجول في المدينة حيث أنه لايوجد أي خطر بامكان هروبهم . فلو هرب واحد منهم لكان ذلك معناه الموت

المحقق على يد أول عربي يصادفه في الطريق ، إذا لم يكن يحمل معه إذنا بختم الأمير . وهذا المصير هو الذي ينتظر المسحيين أيضا ممن يقعون في أيدي هؤلاء العرب الشديدي الولاء للأمير . بل أن الحماس قد بلغ بالعرب الى حد أن يتوهموا أن كل مسيحي يقابلونه هو أسير يحاول الفرار . وأنا عرفت شخصيا عددا من المرتدين الذين حاولوا التنقل بين مدينة وأخرى بدون إذن من الأمير ، فكان جزاء رعونتهم فقد رؤوسهم .

يوجد في الوقت الحاضر نحو ثمانين أسيرا من الضباط وضباط الصف والجنود في تلمسان . على أن معسكرات الأسرى الكبيرة تقع في تكدمت وفي تازا الصحراء ، كما تسمى هذه المدينة للتمييز بينها وبين المدينة التي تحمل نفس الاسم في المغرب الاقصى . ويوجد من بين الأسرى عدد من الأسبان الذين كانوا يعملون في الفرقة الاجنبية كما يوجد خمسة أسرى مالطيين . وهؤلاء المالطيون الذين يفتخرون بأنهم من الأنجليز ، لايتحدثون في الحقيقة سوى اللغة الايطالية . وقد أتصلوا بي وطلبوا إلي استعمال نفوذي لدى الأمير حتى يبادلهم ، فوعدتهم بذلك ، حيث أنه سبق لي أن كتبت لصاحب السمو الملكي رسالة عرضت فيها رأيي بأن من الافضل مبادلة جميع الأسرى ، ما داموا لايقدمون أية خدمة ويكلفون الدولة مبالغ باهضة ، وهذا في الوقت الذي يمكن فيه استخدام الأسرى العرب الذين بحتفظ بهم الفرنسيون في الجزائر ووهران في ميدان القتال .

والطريقة التي يعامل بها الأسرى في أراضي الأمير عبد القادر ، تبعث في نفسي الرضى والغبطة ، وهي تثبت زيف التقارير التي تزعم بأنهم لايلقون أية عناية أو رعاية من العرب . فان هذه الأقوال مخالفة للحقيقة تماما . وقد أصدر صاحب السمو الملكي أمرا عموميا يحرم فيه تحريما باتا قطع رأس أي شخص يؤخذ أسيرا . وتجاوز العرب في بعض الأحيان لهذه الأوامر ، مرجعه الى الوحشية التي يمارسها الفرنسيون أثناء الحملات العسكرية التي يقومون بها . وقد كان من نتائج أعمال القسوة التي يرتكبها الفرنسيون أن العربي الذي تعرض لها شخصيا يشعر باغراء بأن يطبق القانون بنفسه وينتقم من أولئك الذين عانى طغيانهم ، وهو ـ في معظم الحالات ـ شخص بريء ولاذنب له . إن هذه الأمور لايمكن تفاديها .

والتصريح الذي أدلى به الأمير في سنة 1838 والذي جاء فيه أن من الممكن للانسان أن يسافر في أية منطقة في مملكته وعلى ظهره كيس من الذهب دون أن يتعرض للسرقة او السطو عليه ، تصريح صادق وصحيح تماما .

والفرق بين كفاءة حكومة الأمير عبد القادر وكفاءة الحكومة المغربية في قمع الجرائم وإقرار الأمن ، فرق كبير جدا . فان الجميع يحبون السلطان (عبد القادر) ويحترمونه لأنه مرابط ولكن اللصوص يفزعون منه أشد الفزع حيث يقوم بتنفيذ الأحكام دون إضاعة اي وقت في إجراءات المحاكمة .

ونتيجة للغزو الفرنسي المتوقع ، غادر صاحب السمو الملكي تكدمت متجها الى شلف على رأس جيش يتكون من أربعة آلاف جندي وضابط من الجيش النظامي العامل وحوالي 20 ألف مقاتل من القوات غير النظامية .

وصلتنا رسائل من الأمير يقول فيها : إنه تلقى عروضا من الفرنسيين لعقد الصلح ، ولكنه غير مستعد للنظر في أي من هذه العروض وأنه لن يدخل في أية مفاوضات للسلم إلا إذا كان ذلك بناء على نصيحتنا . وفي مقابل ذلك ، فقد نفذ اقتراحنا فيما يتعلق بمبادلة الأسرى الفرنسيين بالأسرى العرب . وكذلك أصدر أمرا حمله نفس الرسول الذي حمل هذه الرسالة إلينا ، بأن يرسل جميع الأسرى الموجودين في تلمسان الى تكدمت ، ومن هناك يحولون الى معسكره استعدادا لمبادلتهم ، حيث أنه توصل الى اتفاق مبدئي مع الفرنسيين بهذا الشأن .

وفي الصباح يوم 24 من الشهر ، غادر الأسرى الفرنسيون تلمسان متجهين الى تكدمت . وعلى الساعة الواحدة بعد الزوال ، غادرنا نحن أيضا تلمسان في طريقنا الى معسكر .

وقبل مغادرتنا تلمسان قصدنا الى منزل عم السلطان (عبد القادر) للسلام عليه وللترحيب بمقدمه عقب رجوعه من فاس حيث قدم الى سلطان المغرب هدية ثمينة ، وهي عبارة عن ثمانية جياد عربية مطهمة ، لم أر قط في حياتي جيادا أجمل منها .

فقد كانت سروجها ولجمها على نفس الطراز ، والسروج مطرزة بخيوط من ذهب . والركاب وغير ذلك من التجهيز مصنوعة من نفس المعدن الثمين .

وقد قدرت قيمة كل واحد من هذه الجياد هنا بثلاثمائة دولار، بينما تتجاوز قيمة السرج الواحد ألفي دولار . وقد يرى القارىء أن 300 دولار ثمنا لجواد عربي أصيل ليس بالمبلغ الكبير . ولكنه يجب أن يقدر قيمة الدولار حين يدفع سعرا للخيل هنا بما يساوي جنيها استرلينيا في انجلترا .

وهذه الهدية الجميلة هي المقابل لشحنة الأسلحة التي تتكون من نحو ألف بندقية ولعدة أطنان من البّارود كان السلطان عبد الرحمن قد بعث بها الى السلطان عبد القادر مؤخرا . وقيمة هدية سلطان المغرب ، بطبيعة الحال أكبر من قيمة الجياد بالنسبة الى السلطان عبد القادر الذي يجد صعوبات كبيرة في استيراد الأسلحة والذخيرة بطريق البحر .

واصلنا سفرنا الى معسكر على حوالي فرسخ ، ثم عرجنا عن طريق الى اليمين بقصد زيارة معسكر البوحميدي خليفة السلطان ، ونائب الملك ، على تلمسان . وأما البغال والأحمال الثقيلة ، فقد استمرت في الطريق الرئيسية الى معسكر.ولما اقتربت الساعة من الثالثة بعد الزوال ، اجتزنا نهر يسر (الغربي) (1) الذي ينصب في البحر في مكان غير بعيد من وهران . وهذا هو الذي ذكره فينلون (2) في قصته المعنوة «تليما كوس» ،

(1) أحد روافد نهر تافنا ، يتلقى مياهه من جبال تلمسان وينصب في تافنا بعدما يتلقى على اليسار نهر سكاك .

(2) فينلون Fémelon (فرنسوا دوساليناك لاموث) ، قسيس وكاتب فرنسي (1651 ـ 1715) ، اشتهر بكتاب عن تعليم البنات وكان يعمل معلما للدوق دوبوجون (1789) . وأما كتاب تليماك المشارالية ، فقد وضع في سنة 1699 . وهو عبارة عن سلسلة من المغامرات الخيّالية التي اتخذ منها المؤلف أداة لنقد سياسة لويس الرابع عشر ، بطريقة غير مباشرة ، ذلك النقد الذي سبب للمؤلف فقد الحظوة في بلاط هذا الملك ؛ وقد كانت الروح الليبرالية التي تسري في جميع صفحات الكتاب هي التي أسبغت على هذا الكتاب قيمة خاصة بحيث اعتبر فينلون في مقدمة المبشرين بروح التجديد التي ستكتسح أروبا في القرن الثامن عشر.

وقال عنه إنه يجري في رمال من ذهب . ليس من شك في أن تجارة واسعة في الذهب كانت تجري عن طريق مصب هذا النهر من تمبكتو (1) الى البحر الأبيض في الأزمنة الغابرة . وفي الوقت الحاضر يوجد تيارمهم للتبادل التجاري بين تمبكتووفاس . والمعروف أن الحاج طالب قد جمع معظم ثروته الطائلة من هذه التجارة . وقد كان مرة على رأس قافلة تتكون من مائة جمل مثقلة بالذهب . ولما جاء الليل توقف ليضرب خيمته . ولما أصبح الصباح ، آكتشف أن أحد الجمال مفقود ، هو وحمله الثمين . ونظرا لأن الحاج طالب رجل تقي وقوي الايمان بالله وبرسوله ، فقد صرح أمام مرافقيه بقوله انه إذا اكان رجلا خيرا عادلا في نظر الله ، فسيعيد اليه جمله . ولحسن حظه ، فقد أعيد اليه جمله في اليوم التالي عند ما عثر عليه أحد المسافرين في نفس الطريق في مكان على مسافة قريبة من الطريق الرئيسية ، وكان الحيوان يسير على غير هدى .

واثر ذلك ، شكر الحاج طالب الله وصلى على رسوله ، وكان هذا الحادث مناسبة لتعزيز ثقة الناس في صلاحه . وفي هذا السياق يجب علي أن آقرر الحقيقة وأقول انه رجل فاضل كريم لأبناء ملته ، حيث أنه يوزع ما لا يقل عن 300 دولار على سبيل الصدقة في كل يوم جمعة .

---

(1) تمبكتو ، مدينة في مالي ومركز تجاري على نهر النيجر ، يبلغ عدد سكانها حاليا 9000 نسمة . وقد كانت تمبكتو قاعدة لإنتشار الإسلام في جنوب الصحراء الكبرى كما كانت حاضرة من الحواضر الموفورة النشاط الإقتصادي والثقافي وكانت بها جامعة شهيرة تخرج منها عدد من العلماء والمؤرخين . وقد كانت قبائل « توآرق مغشرن » هي التي اختطت تمبكتو في أواخر القرن الخامس الهجري . وخلال عدة قرون ، ظلت تمبكتو مقصدا للقوافل التي تأتيها من شواطيء المغرب الأقصى وطرابلس ، كما كان العلماء وطلاب العلم يتجهون إليها أفواجا من مصر وسجلماسة وغدامس وتوات . وقد وقع اتصال الأروبيين بتمبكتو في القرن التاسع الهجري (15 الميلادي) ، وكانت المدينة تتعامل مع ايطاليا وبخاصة مع فلورنسة بطريق تونس وطرابلس . وقد كانت تخرج منها أربع طرق رئيسية للقوافل : أحداها الى مصر (عن طريق الكانم) والأخرى الى تونس (عن طريق الهجّار) والثالثة الى مراكش (عن طريق سجلماسة) والرابعة الى السودان (عن طريق مالي) .

لقد تقدم النهار بحيث أصبح من غير الممكن أن نصل الى معسكر البوحميدي قبل حلول الليل ، ولذلك ، فقد ضربنا خيامنا في دوار عربي ، وهو عبارة عن قرية من الخيم تبعد عن تلمسان بنحو ثلاثة فراسخ في اتجاه الشمال الشرقي . وهنا اعد لنا كل شيء يضمن لنا أكثر ما يمكن من الراحة في هذه الليلة .

* * *

الفصل الخامس

غادرنا القرية العربية في الصباح المبكر يوم 25 أبريل وسلكنا طريقا جبلية متجهين الى المكان الذي يقع فيه معسكر البوحميدي ، على مسافة قصيرة من وهران . لم نكد نقطع فرسخين حتى قابلتنا عين ثرة جميلة تجري في قمة هضبة مرتفعة وتظللها أشجار تين كبيرة . وفي هذه البقعة الجميلة قررنا التوقف لتناول طعام الفطور الذي يتكون من لحم طيور بارد وفواكه ، وأضفنا الى ذلك كأسا من النبيذ . وعند ذلك وجدنا أنفسنا على استعداد للاستمتاع بجمال الطبيعة وتركنا العنان لجيادنا لترعى الحشيش الغني في جوار تلك العين والجدول الذي ينبثق منها ويتلوى كالثعبان منحدرا من الهضبة ليرفد بموارده الضعيفة النهر الكبير . ومن هنا كنا نتمتع بمنظر الجبل الذي تقع عند سفوحه مدينة وهران ، وبمنظر البحر الذي يمتد على مسافة خمسة فراسخ . وكنا نشاهد عند الأفق اللازوردي قاربا شراعيا صغيرا يسير ببطء ويتجه الى الشرق . لقد كان الهدوء شاملا ولا يعكره معكر :

لقد مر الآن شهران منذ غادرنا تيطوان ، وكنت أتأمل صفحة البحر بسرور وغبطة نادرين لا يعرفهما الا من كانت بلده ، مثل بلدي ، محاطة بالبحر من جميع الجهات . إنني أشاهد البحر مرة أخرى ! إنه مورد الثروة لبلدي ، وهو فضلا عن ذلك يذكرني بخلاني وأصدقاء الصبا الأعزاء الذين قد لا يقدر لي أن أرى ملامحهم أبد الآبدين .

وعند الزوال ، وصلنا الى معسكر قوات البوحميدي (1) وأول ما وقعت عليه عيني وآثار انتباهي في معسكر الخليفة ، هو ذيل فرس في خيمة البوحميدي . فأنا لم أكن أعرف أن الشعار الذي يميز الباشا في تركيا ، قد اعتمده نائب الملك (الخليفة) في الولايات التي قسم عبد القادر مملكته اليها .

لم نكد ننتهي من ضرب خيامنا حتى بعث الخليفة الينا بالمرطبات (القهوة والتمر الخ .) وبعد ذلك بوقت قصير قام السيد «مانو تشي» بزيارة الخليفة . أما أنا فقد كان عذرى في عدم مرافقته لتقديم تحياتي واحترامي للخليفة ، هو أنني كنت أشعر بصداع . والحق أن هذه المناسبات الرسمية تضايقني كثيرا . فان عدم معرفتي باللغة العربية التي يجري بها الحديث ، يجعلها تبدو لي أمرا لاطائل منه ، ما لم ينطو الحديث على أمور عملية .

وبالاضافة الى ذلك ، لا اكتم القارئ أنني أحببت أن أجتمع بالسلطان نفسه ، قبل أن أخوض في الحديث عن مهمتي مع خلفائه .

كان البوحميدي على وشك القيام برحلة للصيد ، رياضته المفضلة ، وهو يملك عددا كبيرا من كلاب الصيد الجميلة (وهذه الكلاب تشبه الى حد كبير كلابنا الانجليزية فيما عدا أن هذه أقوى بنية) وكان شديد الحرص على أن نرافقه في هذا الخروج . وهذه الدعوة الى حفلة الصيد بدت لي غريبة نوعا ما . فنحن مسافرون نمر بمعسكر الخليفة لزيارة قصيرة ، وقد كان من الممكن أن يفترض أننا متعبون ولا نريد إرهاق جيادنا واضاعة الوقت في طريقنا الى معسكر .

---

(1) ولد البوحميدي في قبيلة ولها صة البربرية . عرف بشجاعته وصدق عزيمته وسداد رأيه في التخطيط السياسي والعسكري . ولي في بداية الأمر القيادة على قبيلة بني عامر العربية ثم ولي خلافة تلمسان . وقد مات إثر تناوله جرعة من سائل في سجن السلطان عبد الرحمن حينما بعث به الأمير عبد القادر لمقابلة السلطان ليطلب إليه سحب قواته التي كانت تطارده حتى ينسحب الأمير على رأس دائرته وقواته في اتجاه الصحراء ، وكان ذلك قبل أن يقرر الأمير الاستسلام للجنرال لامورسير بوقت قصير .

قدمنا الى البوحميدي هدية عبارة عن قماش رفيع وكميات من القهوة والسكر الخ ، وهي في العادة من النوع الذي يقدم في مثل هذه المناسبات ، ولكنه يبدو أن خيال الخليفة قد تعلق خصوصا ببندقية ذات فوهة واحدة وذات سند من الفضة يملكها السيد «مانوتشي» والتي كان بعض أصدقاء الخليفة قد شاهدوها في تلمسان ومدحوها أمامه . وقد طلب البوحميدي الى السيد «ماتونشي» الاذن لمعاينتها ، وبعدما لمسها كانت غبطته بها عظيمة بحيث أنه طلب إحضار كمية من البارود لكي يجربها أثناء حفلة الصيد المذكورة . وأزاء ميل الخليفة هذا الميل الى البندقية ، بعثنا إليه ببعض البارود كما رجوناه أن يحتفظ بالبندقية هدية . وقد غادر البوحميدي معسكره وسار لممارسة رياضة الصيد على الساعة الثانية عشر ، على نية أن يعود في اليوم التالي . أما نحن فقد غادرنا معسكره في طريقنا الى معسكر في الصباح المبكر في الغد على السادسة صباحا .

لم نكد نبدأ في صعود الهضاب المقابلة للهضبة التي يقوم عليها معسكر الخليفة ، حتى قابلنا رسولا يحمل أنباء مزعجة وهي أن جيشا فرنسيا قد خرج من وهران في حملة للاستيلاء على المواشي . ولما نظرنا الى المعسكر الذي غادرناه وراءنا منذ وقت يسير شاهدناه في هرج ومرج . فقد كانت الطبول تقرع والاسلحة تجرد ، بينما كانت فرقة من الخيالة ترفع العلم الاحمر القاني . وفي نفس الوقت ، أخرج ذيل الفرس الذي كان في خيمة « الخليفة » وأصبح النسيم يداعبه ، إيذانا بأن الغربان التي تحوم فوق الرؤس ، لترحب بنعيقها الغليظ بهذه الحركة ، سوف تجد ما يشغل مناقرها عما قريب .

كانت قوة الخيالة التي يحتفظ بها البوحميدي في معسكره تتكون من نحو 500 فارس ، أما باقي الجيش ، فهو يتكون من فرقة المشاة النظامية التي كانت تعسكر مؤقتا في العراء في مكان يبعد عن معسكر الخليفة بنحو فرسخ ، غير بعيد من وهران .

لقد كانت الظروف القاهرة تمنعني من تقديم المساعدة في النزاع الذي قد ينشب في أية لحظة . ولكن قلب الجندي سيخفق دائما وتختلج العواطف في نفسه عندما يرى تشكيلة عسكرية في طريقها الى ميدان القتال . ولو تركت العنان لعواطفي

لكان مهماز ركاب يعمل في جنب فرسي بدون تردد . واذا لكنت في طليعة هؤلاء المقاتلين الذين يدفعهم حماس نادر الى الاستشهاد . ولكن هذا لم يكن ممكنا . وكذلك خرج من صدري تنهد عميق أعاد الى ذاكرتي كثيرا من المعارك الحامية الوطيس والتي خضت غمارها من أجل حرية اسبانيا ومن أجل أصدقاء لم يعد لهم وجود الآن .

وكل ما أستطيع صنعه لمناصرة الجيش الجزائري هو أن أقدم له تمنياتي بالنصر والنجاح .

وفي غضون هذا النهار ، أرسلت الينا أخبار تحركات العدو عدة مرات . وقد أقمنا في دوار يقع على الجبال ، بينما عسكر الجيش الفرنسي على مسافة فرسخين من موقعنا .

وفي يوم 26 ، واصلنا سيرنا في الطريق التي تمتد في السهول المجاورة لمعسكر . وهذه السهول تمتد على نحو اثني عشر فرسخا في الطول ، وأما العرض ، فهو يختلف بين مكان وآخر ، حيث يبلغ في بعض الأماكن خمسة فراسخ ، بينما لايتجاوز في أماكن أخري فرسخا وفرسخا ونصف . وعلى الساعة العاشرة صباحا دخلنا سهول اغريس ، وبعد ذلك بقليل ، وصلنا الى قرية عربية تقع على ضفة نهر معسكر الذي ينصب في نهر يسر . وعندما ضربنا خيامنا وتناولنا طعام الفطور ، قررنا أن نبقى حيث نحن لننتظر أخبار تحركات العدو . ولكننا لم نكد ننزل من على ظهور جيادنا حتى شاهدنا فاريسين مسرعين ليبلغانا أن الفرنسيين قد شرعوا في زحفهم في اتجاهنا وأنه سيكون من الخطر مواصلة سيرنا الى معسكر ، حيث أن الزحف الفرنسي قد اتخذ هذه المدينة نفسها هدفا له .

وفي نفس الوقت ، وصل جندي يحمل الينا رسالة من آغا الفرقة الأولى للمتطوعين في ولاية تلمسان ، يطلب الينا فيها أن ننضم الى أسرته التي تقيم في مكان يبعد عن موقعنا بنحو فرسخ واحد ، حيث نلقي العناية والضيافة وحيث يوافينا بتطورات الموقف في جميع ميادين القتال .

ونظرا لأن هذه أفضل خطة يمكن أن نفكر فيها في الظروف الحالية ، فقد قررنا قبول هذا العرض . وكذلك سرنا خلف الجنود الذين كانوا معنا لنلحق بالعائلة المذكورة التي كانت تقيم في اتجاه الصحراء ، على مسافة فرسخ واحد .

والصحراء هي ملاذ العرب وملجأهم من ظلم الغزاة الذين يخرجونهم من ديارهم .

وفي جميع مراحل طريقنا ، وجدنا القبائل في كل مكان تستعد للرحيل ، كما لحقنا بعدد كبير من اللاجئين مثلنا في الطريق ، وهم يتجهون الى المناطق الخلفية .

ولما وصلنا الى أسرة الآغا ، وجدنا منظرا مؤثراً للغاية . زوجات الآغا الأربع ، وقد ركبن في هوادج محملة على ظهور الجمال صممت لحماية هذه السيدات من حرارة الشمس ومن العيون المتطفلة . والهودج يمتد على ست أقدام في عرض ثلاث أقدام . وهو يغطي بقماش قرمزي اللون حوله ، بينما يوضع فوقه قماش أبيض اللون وبالاضافة الى هذه الهوادج الغريبة الشكل ، كان في المسيرة عدد كبير من الأطفال شبه عراة وأمهاتهم الملفوفة في «الحايك» الذي لابد وأن يكون أبيض في يوم من الأيام ، ولكنه أصبح الآن بني اللون من الوساخة وكثرة الأستعمال . وكثير من النساء اللائي ينتمين الى الطبقة السفلى لا يغطين أو جههن التي تحتاج هي الأخرى الى الغسل . وبعضهن موشمات . كان البعض يصرخن ويعولن ، بينما كان البعض الآخر منهمكات يقدن بقراتهن وجمالهن ، أو يصرخن لأنهن فقدن متاعا من الأمتعة المنزلية أو قطعة من الأثاث . كانت قطعان الغنم لاتتحركِ الا ببطء شديد في وقت الاستعجال الذي لم نتعود عليه . وإذا تخيلت كل ذلك في ذهنك أيها القارىء ، فقد كوّنت لنفسك فكرة عن تحرك القبيلة العربية التي تتوّقع غزو الفرنسيين .

ومعظم القبائل الجبلية ، تشبه الى حد كبير القبائل النيوزيلاندية ولاسيما النساء التي تستعمل نفس الطرق لوشم الوجه والرجلين .

والنيوزيلانديات فيما يتعلق بالجمال ، ولاسيما بالطريقة التي ينظرن بها الى الأوربي ، متفوقات حيث يتنافس في محاولة الحصول على تقدير الغريب الذي يزور

شواطيء بلادهنّ . أما العربية الجميلة ، فاذا اتجهت عينك إليها ، فستجيبك بتقطيب حاجبيها وبكلمة «كافر ابن الكلب !» (*) متى كنت مسيحيا . هذا على الأقل ، هو جواب المرأة العربية في سن معينة ، وأما الفتيات ، فقد يحدث أن تكافئ نظرتك واحدة منهن بابتسامة ، ولكنها في نفس الوقت تلتفت حولها لترى ما اذا لم يكن أحد يراقبها .

واصلنا هروبنا طول اليوم مع تغيير الاتجاه حسب ما تشير به الأخبار التي تصلنا من الآغا . وعلى الساعة السادسة مساء ضربنا خيامنا ثم بعثت الينا نساء الآغا بكميات كبيرة من الكسكس والحليب . وفي الليل وصلتنا أخبار تقول : ان الفرنسيين قد وصلوا الى نهر معسكر وضربوا معسكرهم في المكان الذي أردنا أن نتناول فيه طعام الفطور في الصباح،ومهما يكن من أمر ، فقد قررنا البقاء هنا في اليوم التالي ، إذا لم يقترب الفرنسيون منا ، ثم نواصل طريقنا في اتجاه معسكر إذا كانت الطريق مفتوحة أمامنا . على أنه بمجرد ما قدمت الينا القهوة في اليوم التالي ، شهدنا فارسا عربيا يتجه الينا وقد أطلق العنان لجواده ، يحمل أخبارا تقول إن طابورا من الجيش الفرنسي قد شرع في زحفه في اتجاه المكان الذي نعسكر فيه الان . ونظرا لأن الجيش الفرنسي لم يستول على الحبوب المودعة في المطامير التي وقعت في أيديهم ، كما أنه لم يستول على قطعان البقروالغنم ، فقد دخل في روعنا أن هدفهم في هذا الزحف هوالقبض علينا نحن .

وحيث أننا أبعد ما نكون عن الرغبة في توفير فرصة نادرة للتسلية لسكان وهران بمنظر إطلاق الرصاص علينا في ساحة عمومية مع التشريفات العسكرية ، سارعنا إلى التراجع مرة أخرى . وفي هذه العملية التي سادها الاضطراب ، انقلبت غلاية القهوة وساح على الأرض ما فيها من المشروب الثمين ولما لم أجد شيئا أسكن به حدة جوعي ، عمدت إلى «البيسكويت» والى زجاجتي التي ملأت منها كأسا صغيرا .

(*) بالعربية في الاصل

وعلى الساعة الثالثة بعد الظهر ، التحق بنا مرابط يحمل أخبارا تقول إن الفرنسيين قد احتلوا الموقع الذي كان فيه مخيمنا في الصباح . وبذلك تأكدت ظنوننا في أن غرضهم هو القبض علينا ، وغذينا السير في اتجاه الصحراء .

ولما وصلنا الى طرف الصحراء على الساعة الخامسة بعد الزوال ، ضربنا مخيماتنا وأعتبرنا أنفسنا في مأمن من كل مطاردة .

وعلى الساعة الثامنة مساء وصلتنا أخبار فرحنا لها تقول ان الجيش الفرنسي لم يبرح معسكره في المكان الذي كنا فيه حتى الساعة الثانية بعد الزوال حين انسحب عائدا أدراجه . وبذلك اتضح لنا أن الفرنسيين قد تحققوا من الفشل الذي ينتظرهم في مطاردتنا وأدركوا نيتنا في أن نستدرجهم الى القيام بجولة لشم الهواء العليل ... في صحراء الأنكاد .

وفي اليوم التالي أكدت لنا الأخبار التي وردت بانسحاب الجيش الفرنسي وبعودته الى ثكناته في وهران . واثر ذلك سلكنا أقرب الطرق وواصلنا مسيرتنا الى مدينة معسكر .

كان سيرنا معظم النهار في أرض جبلية قاحلة ، ولكنها في نفس الوقت غنية جدا بنبتة تستخرج منها صبغة يتراوح لونها بين القرمز والأحمر ، وهي سلعة رابحة تباع في فاس بما يتراوح بين دولار ودولار ونصف للرطل ، بينما تباع هنا بسعر «البوجو» (أي ، شلن و 4 بنسات) للرطل . ولو وضعت حكومة الأمير مشروعا لاستغلال هذه المادة تجاريا بتنظيم اليد العاملة بجمعها تحت توجيه خبير ، لما تجاوز سعر تكلفه الانتاج 8 بنسات ، أو شلنا على أكثر تقدير للرطل ، وبذلك تصبح هذه النبتة مورداً عظيما لدخل الدولة .

وفي المساء ، وصلنا الى أراضي جميلة تتكون من سهول وأودية ويبدو منها غير بعيد عدد من القرى والدشور العربية . وعلى قمة جبل بعيد يبدو مكان يسمى عين تيطون الذي اختاره السلطان موقعا لتشييد مدينة في المستقبل . وأقول «في المستقبل» ، لأن

المكان لايضم حتى الآن سوى خمسة منازل مبنية بالحجر يسكنها مرابطون ، وذلك بالاضافة إلى قبرين لأفراد نفس الأسرة معلقين على حافة الجبل .

ومن هدا الموقع تمتد الأرض على مدى البصر في صور خلابة من جمال الطبيعة لم أرقط في حياتي شيئا يفوقها أو يشبهها . وفي الأراضي الممتدة أسفلنا ، يمكن أن نحسب ما يتراوح بين 25 و 30 قرية عربية . وهذة الأرض غنية خصبة ، وكذلك توجد محاجر الصوان في جبالها بوفرة . وبالتالي ، فان مواد البناء الرئيسية متوفرة ، وكذلك يتوفر حجر الكلس الذي يأتي في المكانة الثانية من الأهمية للبناء . وهذا المكان هو أعظم المواقع التي شاهدتها في الجزائر واكثرها صلاحية لبناء قلعة محصنة . وهنا توجد عيون ثرة ترتفع وتجري على قمة الجبل بحيث يكون الماء دائما تحت تصرف السكان . ومن جهة أخرى ، لا يوجد أي ارتفاع مجاور يمكن اتخاذه قاعدة للمدفعية لتوجه منه نيرانها الى مواقع عين تيطون .

وفي 3 مايو ، ودعنا الأسرة الصديقة التي سرنا في رفقتها في غضون الأيام الثلاثة الماضية . وعلى الساعة الثانية عشر عند الزوال ، دخلنا من جديد الى سهول معسكر . وهنا أسعفني الحظ والتقطت اثنتين أو ثلاثة من السلاحف البرية التي تزحف هنا وهناك وكان حجمها صغيرا بحيث احتواها صندوق السعوط .

مضينا على طول الطريق التي تخترق السهول وتتجه الى معسكر ، وقضينا ليلتنا بين قبيلة عربية قدمت لنا ضيافة متواضعة لاتتجاوز الكسكس والحليب بدون لحم ضأن أو دجاج . ولكن الحق أننا فاجأناهم في وقت متأخر من الليل ولم يكن الوقت يتسع أمامهم لطهو شيء آخر . ومع ذلك ، فقد قلنا لهم عندما ودعناهم في الصباح أننا سنخبر حاكم معسكر بخبر ضيافتهم . وعندما سمعوا ذلك عرضوا علينا البقاء معهم ليقدموا لنا ضيافة أفضل كما ألحوا على أن يقوموا بذبح دجاج وخرفان أو غير ذلك مما نراه . ولكن الوقت قد فات ، والمعاذير لاتقوم مقام الضيافة العربية التقليدية .

وفي الطريق قررنا أن نعوض على عشاء الليلة الماضية الرديء بفطور ملائم . ولما وصلنا الى أراضي احدى القبائل ، قررنا حجز خروف . وعندما رأى رجال القبيلة الحاج

محمد يستل سكينه ويستعد لذبحه ، عرضوا أن يقدموا الينا ما نحتاج إليه بالتي هي أحسن . وعرضوا أن يذبحوا لنا دجاجا ويصنعوا لنا كسكسا . فقبلنا عرضهم على الفور . . .

ولم يمض الا وقت قصير حتى كان الطعام جاهزا . وبعد ما تناولنا الطعام بشهية كبيرة واصلنا سفرنا في اتجاه برج يقع على مسافة ثلاثة فراسخ من معسكر ، حيث توجد مياه معدنية وآثار رومانية . وهذه الآثار عبارة عن بقايا أسوار . مما يدل على قيام مدينة في هذا الموقع في الماضي . إنها واحدة من المدن الكثيرة المنتشرة هنا وهناك والتي لايمكن حتى معرفة اسمها . وكانت نيتنا أن نستحم هنا ، ولكننا لم نصل الى موقع المياه الا في وقت متأخر في المساء ، وكان التعب قد أخذ منا ، حيث أننا قطعنا ما لا يقل عن سبعين فرسخا في غضون الأيام الثمانية الماضية .

يوم الغد ، يوافق عيد المولد النبوي ، وسيحتفل جميع المسلمين بهذه المناسبة ، وقد وزعت الخراطيش مجانا على جميع الأشخاص الذين يملكون بنادق . ومن بين مظاهر الاحتفال أيضا أن يقوم رؤساء القبيلة بدورة ثلاث مرات حول مخيماتها وهم يرتلون الصلوات على النبي العربي . على أن قيمة هذه الأناشيد الغنائية ليس لها حظ - فيما أعتقد - في أن تفوز في مسابقة لغناء الأوبرا . . .

وفي كل دورة يقومون بها ، يقفون أمام القائد ، أو الحاكم ليطلقوا طلقات نارية للتحية . وكذلك قمنا نحن أيضا (وذلك حتى لانتخلف عن المودة) باطلاق حوالي خمسين طلقة نارية .

وفي صباح يوم 4 من الشهر ، وصلنا الى معسكر التي تمتد على مستوى من الارض تحيط به التلال المشرفة على السهول الواسعة المنتشرة على مد البصر في اتجاه الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي على عدة فراسخ .

يبلغ عدد سكان معسكر حاليا نحو 000 15 نسمة منهم ما يتراوح بين 500 و 600 من الاسرائليين . وبعد وصولنا الى عاصمة السلطان مباشرة ، خصص لاقامتنا منزل يملكه يهودي . وعندما زارنا حاكم معسكر الذي هو صديق حميم للسيد

«مانوتشي» ، أخبرنا بأنه قد هيا لنا أحسن منزل يملكه اليهود في المدينة . كان عدد الغرف كبيرا ولكنه تنقصنا الأسرة ، نظرا لأن اليهود يعتبرون الأسرة من الكماليات . والقليل من اليهود هم الذين يملكون غطاء سوى بطانية . بل إن البعض لايملكون حتى بطانية .

إن ابن عم الأمير يقيم في المدينة ، وقد أبلغنا أن الأمير كان يترقب وصولنا بفارغ الصبر . وكذلك أخبرنا أن العرب قد استولوا منذ بضعة أيام على قافلة عسكرية تتجه من الجزائر الى البليدة . وقال لنا ان حماقة الاحتفاظ بالجزائر تكلف فرنسا ثمنا باهضا ، ولكن لويس فليب يستخدم الجزائر لكي يتخلص بها من أبطال ثورة يوليو الذين قد يخطر ببالهم - لو بقوا في فرنسا - أن يعلنوا جمهورية أخرى .

ونتيجة لأن اليوم هو يوم المولد النبوي ، فان المرء لا يسمع شيئا طوال النهار ، سوى طلقات نارية تتخذ . كل إتجاه . وكثيرا ما نشاهد العرب يتسلون بتسديد فوهات بنادقهم الى اليهود الذين لا يتذوقون كثيرا هذا النوع من التسلية ، حيث أن الطلقة النارية قد تحتوي على رصاصة .

لا توجد تجارة تذكر في المنتجات هنا . فان منتجات البلد الأساسية ، وهي الوبر والصوف والشمع لا توفر أرباحا كثيرة تبرر نقلها عن طريق البر الى طنجة أو تيطوان . هذا على الأقل ، هو رأي تاجر مغربي لايرضى عادة بأرباح تقل عن مائة بالمائة . وأما الطائفة اليهودية ، فانه لايوجد من بين أفرادها هنا من يملك ثروة مهمة تسمح له بالقيام بأعمال تجارية واسعة النطاق للتصدير . والصوف الذي تنتجه منطقة مدينة الجزائر ذو أنواع مختلفة . ولكن الصوف الذي تنتجه منطقة قسنطينة أرفع نوعا من أصوف الولايات الغربية .

والجدير بالملاحظة إن العرب لايهتمون الا قليلا بتربية المواشي وتحسين أنواعها ، بحيث يصادف المرء جميع أنواع الصوف في انتاج قبيلة واحدة . فبينما نجد أنواعا رفيعة لايمكن أن تباع في انجلترا بأقل من شلنين وثمانية عشر بنسا للرطل ، نشاهد أنواعا أخرى لايمكن أن يزيد سعرها عن ثمانية عشر بنسا .

ومع ذلك ، فان الجزائر يمكنها أن تجني ثروة معتبرة من تصدير الصوف ، حيث أن المرء يستطيع الحصول على جزة بسعر لايتجاوز ما يتراوح بين أربعة وستة بنسات ، وهي تزن ما يتراوح بين اثنين وأربعة أرطال ، وذلك حسب رقة النوع . فان صوف الكبش المخصي أثقل كثيرا في الميزان من صوف النعجة .

والضريبة على تصدير الصوف في المغرب الاقصى تبلغ خمسة دولارات على مائة كيل . وإذا أضفنا الى هذه الضريبة تكاليف نقل الصوف عن طريق البر ، تكون تكاليف الانتاج والنقل والضريبة لدى وصول الصوف الى تيطوان ، حوالي أربع بنسات للرطل الواحد .

وأما الشمع ، فيمكن شراؤه هنا بحوالي 15 دولار المائة كيل .

وماعز الكشمير ، يمكن إدخاله الى الجزائر وتربيته بصورة مفيدة اقتصاديا ، حيث أن المناخ السائد هنا ، ولاسيما في المنطقة التي تمتد بين معسكر وتافنا مناخ ملائم للغاية لهذا الحيوان .

والصنف العادي من الماعز يباع هنا بحوالي شلنين للرأس الكبير . ونظرا لوجود فرص خارقة للعادة لتربية هذا الحيوان المفيد ولتحسين سلالته بتهجين الأنثى من النوع العادي بذكر الكشمير ، فان الانتاج سيكون من النوع الرفيع . ان العمل في هذا الاتجاه سيكون مفيدا للغاية . فان كل معزة من ماعز الكشمير تنتج في المتوسط ما يتراوح بين عشر واثنتي عشرة أوقية تساوي 20 شلنا للرطل .

وهذا الانتاج يستعمل خصوصا ، لصنع الشالات الرفيعة المشهورة . وهذه السلالة يمكن الحصول عليها واستيرادها من باريس . فمن باريس ، استوردها السيد «ادوارد رايعي» الى جنوب ويلز في سنة 1930 ، وقد اكتشف فيما بعد أنها تأقلمت تماما لظروف المناخ ، وهو نوع المناخ السائد هنا .

وفي يوم 6 من الشهر ، تلقينا أخبارا تفيد بأن القافلة العسكرية التي استولى عليها العرب في طريقها من الجزائر الى البليدة ، تتكون من 17 بغلا و 11 فرسا و17 أسيرا

و 117 رأسا من المواشي ، وكلها أحضرت الى السلطان عبد القادر . وقد كان من سوء طالع القافلة أن وقعت في أيدي قبيلة في متيجة كانت قد تعرضت لغزوة فرنسية فأرادت أن تأخذ ثأرها منهم . والعرب لايذكرون عدد الجرحى من بين العسكريين ، ولكن هذا العدد يمكن استنتاجه من عدد القتلى ، فان نسبة 4/1 نسبة عادية في الحروب النظامية . ولكن عدد القتلى هنا كثيرا ما يتجاوز عدد الحرحى .

وفي 7 من الشهر ، غادرنا معسكر في طريقنا الى تكدمت ، وسرنا في طريق تمر بواد جميل للغاية . ويبدو أن هذه الأرض خصبة ذات انتاج كبير من الحمقى والدراويش ، إذا حكمنا عليها بعدد أضرحة المرابطين التي تصادفنا . فقد بلغ ما شاهدته من هذه القبور في نظرة واحدة خمسة عشر ضريحا .

قضينا ليلتنا عند سفح الجبل الذي يحد السهل من الناحية الشرقية . وفي الصباح ، واصلنا سيرنا في أرض غنية من الهضبات والأودية . ومعظم الهضاب كانت مزروعة وتنتج محاصيل عظيمة من القمح والقرط . وأما الذرة ، فانها لاتزرع الا قليلا ، قبل أن تصل الى الأراضي المجاورة لمليانة .

وقد بلغتنا أخبار تقول أن جيشا فرنسيا كبيرا قد زحف على مليانة (1) وحاول أن يفاجيء معسكر السلطان عبد القادر هناك ، ولكنه فشل في تحقيق غرضه الأساسي ، وهو القبض على صاحب السمو الملكي . على أن الأمير إنما نجا ، خصوصا ، بفضل

(1) كانت مليانة في عهد الرومان من أكبر مدن موريطانيا القيصرية . والمدينة مبنية على سفوح هضبة تطل على وادي شلف وتحيط أراضي خصبة يرويها واد بوتان . وقد وصفها البكري بأنها «ذات أشجار وأنهار تطحن عليها الأراضي وقد أعاد بلكين بن زيري الصنهاجي بناءها ، مع الجزائر والمدينة ، في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري . وشهدت ازدهارا عمرانيا مهما في عهد بني حماد . وفيما بعد ، ظلت مليانة طيلة قرنين كاملين في حروب الحفصيين والزيانيين وبني مرين التي أعقبت انحلال الدولة الموحدية . وقد احتل الاتراك مليانة في الفترة ما بين 1516 _ 1517 ومنحوها أهمية استراتيجية خاصة لموقعها المشرف على الطريق بين الجزائر وبايلك الغرب، كما كانت لنفس السبب موضوع نزاع ومساومات عديدة بين الأمير عبد القادر وسلطات الاحتلال الفرنسي التي استولت على مليانة في 18 يونيو 1840 .

شجاعته وتصميمه وبفضل مهارته في ركوب الخيل . فقد أحاط به الفرنسيون من جميع الجهات وكانوا مطمئنين الى أن مبلغ مائة ألف الذي خصص لمكافأة من يقبض عليه حيا أو ميتا ، قد أصبح الآن في جيوبهم . على أن الأمير الذي تلفظ بالكلمة التي تلازمه «ان شاء الله» (*) ، ونخز فرسه بمهماز ركابه وقفز فوق رماحهم ولم يصب باذي !

على أن الأمير عبد القادر فقد حوالي ثلاثين من حرسه الشخصي الذي يتكون خصوصا من اصدقائه الأوفياء ومن المقربين اليه . وكان من بين الشخصيات التي فقدت حياتها في هذه المعركة ، كاتبه الخاص الذي أحضرنا له معنا هدية شخصية ، وهي عبارة عن سيف معقوف ذي حد واحد ، ولكن استشهاده في المعركة جعل هديتنا غير ذات قيمة . وقد قدمناها الى السيد بوشليجة ، حاكم تكدمت ، الذي استعمل هذا السيف بكفاءة نادرة في غزوة قام بها بعد ذلك مباشرة .

وبعد الزوال ، وصلنا الى نهر مينة (1) الذي ينحدر من الصحراء ويلتقي بنهر الشلف عند مزونة .

وأنا أتخيل أن الأسبان هم الذين أطلقوا هذا الاسم على النهر أثناء احتلالهم للبلد ، فان كلمة «مينة» بالاسبانية ، معناها «منجم» . والمعروف أن معدن النحاس والقصدير يوجدان بوفرة في قعر النهر .

وكان صاحب السمو الملكي الحريص على استكشاف الموارد الطبيعية التي تحتوي عليها أرض بلده ، قد استقدم خبيرا في المعادن من فرنسا اسمه «دوكاس» (Decasse) وأقام مصنعا في مليانة ونجح في استخلاص نحو 40 رطلا من المعادن لتحليل عينات

(*) بالعربية في الاصل

(1) نهر مينة ، من الروافد اليسرى لنهر الشلف . وتقع منابعه على مسافة 20 كيلومتر من فرندة في الجبل الأخضر. وهو يمر على مقربة من تكدمت وتخرج من الجبال المجاورة لغليزان وينصب في الشلف بعد مجري 200 كيلومتر.
– (راجع وصف الكلونيل اسكوت لمنابع مينة في الفصل السادس أسفله) .

منها . وبالطبع ، فان جلاء الأمير عن مليانة وضع حدا لهذه التجربة ، ولم تستخلص منها أية فائدة .

والسيد «دوكاس» قد اعتنق الاسلام بعد استئناف الحرب بين الأمير عبد القادر وفرنسا وتسمى ، كما يليق ، باسم عبد القادر . والجدير بالذكر أن السيد « دوكاس » حاول صنع صواريخ ، ولكنه ، لسوء الحظ ، لم يوفق في معادلاته الرياضية ، وقد كادت إحدى هذه الصوارخ تقتل ابن علال (1) وبعض رجال قيادته .

وعندئذ ، أعرب له السلطان عن رغبته في أن يقيم مصنعا للملابس ، وقد أوشك على إتمامه حينما وقع ضحية لوباء الحمى في نوفمبر سنة 1841 .

إنني لآسف أشد الأسف لفقده . فان هذا الرجل كان في إمكانه أن يقدم خدمات هامة للسلطان .

كان الوقت متأخرا بحيث لا يمكن التفكير في الوصول الى تكدمت في هذا المساء . ولذلك فقد نزلنا في بيت بوشليجة الذي يبعد عن تكدمت بحوالي ثلاثة فراسخ . ومصطفى بوشليجة شاب ذو خصال أغرتني بمصادقته . وقد زادت هذه الصداقة متانة بزيادة معرفته .

---

(1) هو محمد بن علال ولد سيدي مبارك ، من أسرة من المرابطين في القليعة . وهو ابن أخ الحاج محي الدين الصغير ، خليفة مليانة ، وبعد وفاة عمه في يوليو 1837 ، عينه الأمير عبد القادر خليفة على مليانة في مكانه . وقد كان ابن علال الذي فقد احدى عينيه في معركة ، شديد الكره للفرنسيين ومع ذلك ، فقد كان يحتفظ خلال فترة السلام في ظل معاهدة تافنا بعلاقات طيبة مع المريشال فالي والجنرال لامورسيير . وبعد خرق الفرنسيين للمعاهدة ، تولى ابن علال توجيه العمليات ضد سهول متيجة بمبادرة منه ثم قام بمهمة الدفاع على حدود المملكة الشرقية ، فوضع سدا 41 ـ 1842 على ضفاف نهر الشلف . وبعد ما فقد زوجاته وجميع أفراد عائلته في حادث سطو «نمور» على زمالة الأمير عبد القادر ، أصبح لايعيش الا لغرض واحد . الجهاد . استشهد ابن علال في معركة سيدي يحي في 11 نوفمبر ، 1843 . وقد أمر الجنرال بيجو بنقل رفاته ، اعترافا بشجاعته ، الى القليعة ، مسقط رأسه حيث وري التراب ، وقد كان الأمير عبد القادر يعتبر ابن علال واحدا من أعظم قواده وخلفائه ، فقد كان ذكيا قوي الحجة صلب العزيمة مطاع الجانب .

الفصل السادس

على الساعة العاشرة ، تقريبا ، في اليوم التالي ، وصلنا الى تكدمت (1) والمدينة الحالية ، شيدها الأمير في غضون السنوات الأخيرة وقد أصبحت تحتل مركزا وسطا في مملكته ، حيث تقع على مسافة ثمانية أيام من حدود المغرب الأقصى ، ونحو ذلك من مدينة الجزائر . وفي موقع المدينة الحالية كانت تقف مدينة أخرى ، كانت من المدن الأولى التي بنيت في افريقية ، وكان يحكمها أجداد الأمير . وخرائب المدينة القديمة تقع على مسافة 8 أقدام تحت مستوى المدينة الحالية ، ويجري اكتشافها

(1) بعد غزو الجيش الفرنسي معسكر في الحملة التي قادها كلوزيل ، وضع الأمير خطة تقضي بالانسحاب الى أطراف الصحراء لاقامة آخر خطوطه الدفاعية . وهناك شيد عاصمة الصحراوية ، تكدمت . وقد بدأ العمل فيها باقامة ثلاثة حصون عسكرية ، ثم أعقبها بالمباني والمرافق المدنية والمساجد الخ ، وهناك وضع أموال الدولة التي أصبحت الآن في مأمن من غوائل الغزاة ومفاجئاتهم . وقد جلب اليها الامير سكانا من مختلف المناطق من الكلوغليين وسكان آزريو ومستغانم ومسرغان والمدية .

وقد صرح الأمير فيما بعد للكلونيل «دوماس» بصدد الحديث عن تكدمت بقوله : «ان مخططي يقضي بأن تصبح تكدمت مدينة عظيمة ومركزا للتجارة يربط التل والصحراء . وهذا المشروع حاز رضا السكان الذين جاءوا الى المدينة من كل فوج . وهي (أي المدينة) . في نفس الوقت ، شوكة في عيون القبائل الصحراوية العاصية ، بحيث لا تستطيع الهرب ولا تجرؤ على مضايقتي . وقد فهمت القبائل هذه الحقيقة وسارعت بالخضوع لأنهم كانوا يشعرون أن في استطاعتي أن أنقض عليهم في أي وقت أشاء لأستولي على قطعانهم ، اذا تركت لهم خيامهم » . وهذا التصريح أورده «بلمار» في سيرة الأمير عبد القادر (ص.224) .

باستمرار لدى وضع أسس لمنازل جديدة . والحق أنه يوجد مجال واسع هنا للحفر والتنقيب الذي سيسفر ، بدون شك ، اكتشافات أثرية هامة . وقد اكتشفت هنا قطعة نقود يرجع تاريخها الى عهد الأمير ، طور أغسطس وأحضرت الي . وهذه هي التحفة الأثرية الوحيدة التي حصلت عليها في هذه الرحلة ، حيث أنه توجد أمور أخرى من شؤون الساعة تشغل اهتمامي . والحالة التي تواجهها المملكة في الوقت الحاضر قد حالت دون اقتناء تحف أثرية ، الأمر الذي يمكنني بسهولة لو كان لدي شيء من فراغ الوقت .

وأما عدد سكان تكدمت في الوقت الحاضر ، فهو لا يتجاوز خمسة آلاف نسمة ـ ما يتراوح بين 200 و 300 منهم من الاسرائليين . وهؤلاء ممن أبعدهم الأمير عن تلمسان ومعسكر ، باعتبارهم من العناصر المشبوهة في نشاطها ويمكن أن تدخل في اتّصال وتفاهم مع العدو الفرنسي .

استقبلنا الحاج عبد القادر بوشليجة ، حاكم تكدمت ، في المباني الحكومية التي تقع في مكان مرتفع نوعا ما في القسم الشرقي من المدينة . وهذه المباني تحيط بها أسوار مربعة يبلغ طولها 150 ياردة وعرضها مثل ذلك . وفي نطاق هذه الأسوار تقع دار الصناعة (صناعة الأسلحة) وقاعة المحكمة حيث يجلس السلطان نفسه ـ كما كان يفعل الملوك في العهود الغابرة ـ ليفصل في القضايا بين المتخاصمين ويقضي بالعدل . ومصنع الأسلحة يقع على مسافة بضع مئات من الياردات من السور المحيط ، وهو مبني على جانب جدول ينزل من الجبل وينصب في نهر مينة ، بعد ما تستوفي منه تكدمت حاجتها الى الماء ، على مسافة نحو نصف ميل تحت المدينة . والجدول يستمد موارده من منطقة الزمالة التي تقع في الجنوب الشرقي من تكدمت ، على مسافة نحو فرسخ . وهذا المصنع أنشأه خبير فرنسي استقدمه الأمير من باريس ، على أساس عقد يقضي بأن يقوم هذا الخبير بتعليم العرب وتدريبهم على صنع الأسلحة .

وهذا المصنع يقوم بادارته الآن الأهالي أساسيا ، فان العقود التي ارتبط بها الخبراء الفرنسيون قد انتهى أجلها في السنة الماضية ، فعاد معظمهم الى فرنسا بعد ما تلقى كل واحد منهم هدية كبيرة ، بالاضافة الى المبالغ المستحقة له في شكل مرتبات .

وأقصى ما وصلت اليه طاقة الانتاج في هذا المصنع ، هو ثماني بنادق في اليوم . ولكننا عندما وصلنا الى تكدمت ، كان المصنع معطلا . وكان ذلك نتيجة لنقل جميع الآلات القابلة للنقل ، مع المخازن الحكومية في يوم 7 من الشهر الجاري . وقد قامت الحكومة بهذه الخطوة حتى تحبط عملية الغزو الفرنسي المنتظر ، والذي عرف أن الهدف الرئيسي له هو تدمير المنشآت العمومية هنا .

ومدينة تكدمت الحالية تقع على منحدر هضبة في غربي القلعة وتمتد حتى نهاية هذه الهضبة . وموقع تكدمت يشبه الى حد بعيد موقع مدينة « استلا » ، في نفار ، قاعدة شارل الخامس ملك نفار ، الذي كان حكمه قصير الأجل .

ومنازل تكدمت مبنية بالحجر الصلد والجير ، وهي ذات سقوف مسطحة .. والشارع الرئيسي الذي لايزال العمل يجري في تعبيده ، قد خطط على النمط الأوروبي . وهذا الشارع فريد ولم تر عيني قط مثيلا له في افريقية . انه يبلغ 30 قدما في العرض . وفي المدينة مقهيان ، أحدهما يديره عربي كان قد زار باريس في رفقة ابن عراش حينما قام بزيارة للعاصمة الفرنسية للتصديق على معاهدة أرشغون (تافنا) في سنة 1837 (1) . وهذا الشخص لا يفتأ يثير دهشة الجمهور بقصصه الغريبة عن أوبرا باريس وعن القصر الملكي الخ ، والمعروف أن الحكومة الفرنسية قد نظمت جولات في مختلف أنحاء باريس لهؤلاء «الأسود» .

(1) وقع الكلونيل أسكوت في اضطراب بشأن هذه النقطة . والحقيقة أن ميلود ابن عراش لم يقم بزيارة باريس من أجل التصديق على معاهدة تافنا . فان لويس فيليب قد صدق على المعاهدة في 15 يونيو 1837 ، وأما سفارة ابن عراش فقد تمت في يونيو 1838 . والمهمة التي كلف بها ابن عراش مزدوجة : حمل هدايا الى ملك فرنسا ردا على هداياه الى الأمير ، ومحاولة التفاوض من أجل التقرير في مصير قسنطينة التي سقطت في 13 اكتوبر 1837 ، والتي كان الأمير شديد الحرص على الوصول الى ترتيبات مع الفرنسيين لضمها الى مملكته . ولكن مؤامرات فالي (الوالي العام) أحبطت هذه المفاوضة . وكذلك حضر ابن عراش جلسة للبرلمان أثيرت فيها مشاكل معاهدة تافنا وكان من ضمن الذين خطبوا فيها بيجو ، المفاوض والموقع على المعاهدة . وأما الشخص (صاحب المقهى) الذي لم يذكر اسكوت اسمه ، فهو ، بدون شك انما سافر الى باريس بصفته من الخدم المرافقيين لابن عراش ، حيث أن بعثة ابن عراش تتكون من وزير الخارجية ويهود ذابن دران بوضربة الذي لم يكن له سوى دور هامشي بسبب مناورات فالي ضده .

وفي المساء الذي وصلنا فيه الى تكدمت ، سافر الى الزمالة لمشاهدة زوجته ، وفي اليوم التالي عاد معها عند الغروب الى تكدمت ، انها سيدة فرنسية ولايزيد عمرها عن 16 سنة ، وهي على حظ لابأس به من الجمال ، بالاضافة الى حيوية الشخصية - تلك الخصلة التي تميز السيدات الفرنسيات بصفة عامة - وهي على طرفي نقيض مع «ما.دلينا» . ولكنه يجب أن أكون منصفا لمعارض من السيدات الأندلسيات ، فأقول ان «مادلينا» لايمكن اعتبارها نموذجا مفضلا للاسبانيات المشهورات بالمرح وحب اللهو.

وفي يوم 17 قام حاكم تكدمت (بوشليجة) بزيارتنا في رفقة سي الجيلالي ، صديق السلطان الحميم ومستشاره المسموع الكلمة (1) وقد أطلعنا على رسالة تلقاها من السلطان يخبره فيها بتفاصيل حادث مفاجأة الجيش الفرنسي له . وقد جاء في الرسالة أن السلطان فقد نحو ثلاثين من حرسه الشخصي ، ولكنه انتقم لهم بأن قتل ستة من الفرنسيين بسيفه كما أسر اثنين آخرين هما الآن تحت الاسر . وكذلك اشتملت الرسالة على خبر بأن الأمير قد استولى على أحمال عدة جمال من اثقال الفرنسيين ، وأن 150 رأسا فرنسية قد أحضرت اليه .

وقد أخبرت أن السلطان غير مستعد لقبول أية شروط للصلح مالم تشمل على جلاء الفرنسيين عن جميع التراب الجزائري ، باستثناء مدينة الجزائر ومدينة وهران . وقالت هذه الأخبار أن الأمير قد كتب الى المريشال بيجو ليبلغه ان في امكانه أن يستولي على مليانة ، بل وعلى تلمسان ومعسكر ، وتكدمت أيضا متى رأى ذلك ! ولكن هذا لن يفت من عزمه وتصميمه على شن الحرب على الفرنسيين حتى يسقط في ميدان الشرف أو يتخلى الفرنسيون عن الجزائر ، فيما عدا المدينتين المذكورتين . ان الخطة العسكرية

---

(1) هو الحاج الجيلالي ، قايد بيت الأمير (بمثابة وزير البلاط) . وكان من قبل مسؤولا عن شؤون الحبوس في وهران في عهد الأتراك . اشتهر الحاج الجيلالي بالتقوى وبالتعصب في بغض الفرنسيين . والجدير بالذكر أنه لعب دورا نشيطا في المشاورات التي كان يجريها الأمير مع أعضاء حكومته وخلفائه ، قبل عقد معاهدة تافنا .

التي اعتمدها الأمير لابد وأن تضمن له النجاح . فان حملة نابوليون في روسيا والعمليات التي قام بها الجيش الفرنسي في اسبانيا يجب أن تجد فيها الأمة الفرنسية عبرة وعظة لما يتوقعها في الجزائر ، البلد الذي يناصب فيه جميع السكان العداء للفرنسيين .

فان فرنسا انما كانت تواجه في البلدين السابقين رغبتهما في المحافظة على استقلالهما وأما في الجزائر ، فهي تواجه ، الى جانب هذه الرغبة ، كذلك شعور التعصب الديني الذي لا يمكن أن يعرف قِيمَتَهُ إلاّ مَنْ لمسه بنفسه . وكيف نندهش لاستخفاف العربي بالخطر ، بل والسعي لملاقاته ، اذا عرفنا أنه يرى في الاستشهاد في المعركة وفي قتل مسيحي ، طريقا مفتوحا أمامه الى الجنة ؟ والعربي الذي يتبجح بأنه قطع رأسا ، يعتبر شخصا حجز لنفسه منذ الآن وبهذا العمل ، مكانه في السماء السابعة .

وأما الأسرى من السيدات الفرنسيات ، فقد أحضرن جميعا الى الزمالة ووضعن تحت عناية السلطان نفسه . وقد كان عدد الأسيرات في السنة الماضية ستا ، متن جميعا من حمى البرداء (الملاريا) التي كانت منتشرة في الصيف وذلك فيما عدا طفلة اسمها «ماريا» ، لم يكن عمرها يزيد عن تسع سنوات . وكانت هذه الطفلة قد أخذت مع أختيها الكبيرتين في ضواحي الجزائر . وأبوها معمر ترك بلده بقصد الاستقرار في المستعمرة تحت الأغراء بالثراء والرفاهية التي تنتظر المعمرين هنا . وذات ليلة ، وبينما كان غائبا عن منزله ، هاجمه العرب . فأما الخادم التي أعطيت اشارة الخطر ، فقد حز رأسها ، وتلقت الأم ضربة من أحد العرب . هل ماتت الأم ، أم لاتزال حية ؟ إن الطفلة لاتعرف شيئا . ولكن الطلقات النارية التي أطلقوها لفتت انتباه الفرنسيين الذي سارعوا الى مكان الحادث . فاضطر العرب الى الهرب ، بعد ما حمل كل منهم واحدة من الفتيات على ظهر جواده دون أن يلتفت الى الوراء ليعرف ما اذا كانت الأم قد قتلت أم لاتزال حية .

لقد رأيت كثيرا من اهوال الحروب وشاهدت رفقاء السلاح الأعزاء يسقطون بجنبي ، ولكنني دائما أعتبر ذلك من حظوظ الحروب وأما الفظائع التي ترتكب ضد الأبرياء الذين لادفاع لهم ، فانها أمور يقشعر منها جلدي دائما .

وفي سياق هذا السلوك الوحشي ، أذكر دور جندي فرنسي هارب يوجد الآن في معسكر ابن علال . فان هذا الخائن لبلده ولدينه قد اشتهر بعدد الرؤوس التي أحضرها في أحدى الحملات . وقد كان من بين الرؤوس التي قطعها وأحضرها ذات يوم رأسي فتاتين كان قد فأجاهما برفقة هارب فرنسي آخر في منزل أبيهما الدي يقع غير بعيد من الحراش . ان الممكن أن نتوقع مثل هذه الأعمال من عربي مغتاظ خرج عن صوابه ، ولكن هذه الوحشية التي يرتكبها أروبي ، وهو فوق ذلك ، فرنسي ، لاتغتفر . وبدلا من أن يتلقى توبيخا على هذه الأعمال ، فقد وجد هذا الجندي الهارب صدرا واسعة لدى ابن علال الذي أعطاه منزلا وخدما .

إن الطريقة المتبعة في الأكل والتي تقضي بأن تمر أطباق الطعام من الباي الى حاشيته ثم الى الخدم ، كثيرا ماتسببت في عدم حصول مصطفى إلا على قليل من الطعام . على أنه ذات يوم توصل الى طريقة ضمنت له طعاما وافرا للعشاء . وهذه الطريقة تتلخص فيما يلي : عندما جلس الخليفة حول مائدة الطعام ، قفز قط مربوط الأذنين بعضهما ببعض الى الخيمة . وكذلك ربط ذيل القط بنفس الخيط الذي يجر شحنة صغيرة من البارود وراءها فتيل مشتعل . ولكي يتجنب الباي وحاشيته احتراق ثيابهم ، سارعوا الى إخلاء الخيمة . وفي الاضطراب والهرج الذي تلى هذه العملية. جلس مصطفى حول المائدة لكي يلتهم طبق الكسكس الرفيع وما يغطيه من الدجاج المغلي . ولما عاد الجمع الى الخيمة ، فتشوا عن الطعام ، فوجدوا أنه في خبر كان . ولما اكتشف أمر اليهودي المسلم المزعوم ، أحضر أمام الخليفة بتهمة التلاعب بغذائه وبادخال قطة غير مأذون لها وبطريقة غير مقبولة الى مجلسه ، فقرر الجاني أنه انما التجأ الى هذه الحيلة للحصول على عشاء طيب مرة واحدة ، حيث أن الأطباق تكون فارغة في العادة عند ما تصل اليه . وهذه القصة أعجبت ابن علال كثيرا بحيث أنه منح مصطفى دولارين قائلا إنه بعد وجبة ثقيلة كالتي تناولها الأن ، سيحتاج ، بدون شك ، الى عدة أقداح من القهوة لكي يهضمها جيدا .

وفي يوم 14 أرسلت الطفلة «ماريا» الى مليانة لتسلم الى الفرنسيين مع غيرها من الأسرى في نطاق اتفاق تبادل الأسرى الذي توصل اليه الطرفان .

وفي هذا السياق ، يجب ألا أهمل ذكر ظروف تلقي ضوءا ساطعا على شخصية صاحب السموّ الملكي وتدل دلالة قاطعة على سموّ نفسه ونبل عواطف الشاب البطل .

أحضر أمامه السيد «ماصون» ، المدير العام في الولاية العامة والذي أخذه العرب أسيراً في احدى الغزوات التي كانوا يقومون بها في سهول متيجة ويصلون فيها أحيانا حتى أبواب الجزائر ، وكان قد سئل أن يقدم بعض المعلومات بشأن العمليات الحربية التي ينوي الجيش الفرنسي القيام بها ؛ ولكن الرجل ، على الرغم من عِلْمه بأن السيف مصلت على رأسه وأن اشارة من يد الأمير تكفي للتطويح به ، فقد رفض افشاء أي سر من الأسرار العسكرية . وهذا السلوك الذي يدل على شجاعة نادرة ، أعجب الأمير كثيرا ، ولذلك ، فهو لم يكتف بالتسامح معه ، بل أمر بمده بجميع وسائل الراحة . بل أنه منحه فرسا للتريّض والنزهة كما سمح له بممارسة رياضة الصيد أثناء إقامته في تازا .

ولما تم تبادل الأسرى مع الفرنسيين ، لم يكن من بين الأسرى العرب في حوزة العدوّ من هو في مثل رتبته ، ولكن الأمير تغاضى عن هذا الاعتبار وأرسله مع الأسرى الفرنسيين قائلا أنه لن يُهِين شرَفه بأن يأخذ في مقابله أسيرا أقل منه رتبة .

لقد سمعت عن وجود الأسود هنا بكثرة ، ولكنه لم يتح لي قط رؤية واحد منها حتى الليلة حينما شاهدت أسدين يتجولان في ضوء القمر على مسافة قصيرة من مبنى الحكومة وعند ذلك ناديت الحاج محمدا ، وأشرت الى الأسدين . ولكن الرجل لم يندهش لرؤيتهما ، بل أخذ يضحك قائلا ان عدد الأسود هنا أكبر من عدد المواشي !

يبدو أن الأمير عبد القادر كثيرا ما يخرج - على غرار ما كان يصنعه هارون الرشيد - ليختلط برعاياه ويحصل بنفسه على المعلومات بشأن سير الأمور . وذات ليلة ، جاء من الزمالة الى تكدمت وحده لكي يتأكد بنفسه من محتوى تقرير قدم اليه والذي جاء فيه أن من الخطر التجول ليلا في شوارع المدينة .

تجول الأمير في شوارع المدينة حتى ما بعد منتصف الليل . وعند عودته ، توقف عند جدول تكدمت وأخذ يتوضأ استعداداً الصلاة الصبح . وبينما كان يغسل رجليه ، شاهد أمامه أسداً لا شك أنه كان يقوم بزيارة عابرة للمنطقة .

رفع الأمير بصره ونظر بحدة الى الحيوان مقطبا حاجبيه وأردف هذه النظرة بشتيمة : «كلب ابن الكلب ! » (*) ليوبخه على ظهوره وفي وقت غير ملائم ، ثم قال له : « اذهب الى الكفار إنْ كنت تبحث عن فريسة ! » .

والغريب أن الأسد قد خفض رأسه أمام أمير المؤمنين وأدار ذيله ثم سار في طريقه .

وقد اعتبر العرب هذه الحادثة معجزة تدل على مايتمتع به الأمير من حماية من العناية الالهية . أما أنا ، فاني أميل الى تفسير هذه الحادثة بكرم ملك الغابة الذي لا يهجم على الانسان الامتى كان الجوع قد أخذ منه .

والعرب يزعمون أنه اذا اظهر أسد أمام خيمة أسرة ، فما على المرأة الا أن تخرج نهديها أمامه لكي يخفض بصره ويعود أدراجه . على أنني ، وأنا السائح الغريب في هذه الديار ، لا أستطيع أن أثق بهذه الأسطورة .

وفي يوم 15 من الشهر ، تلقينا انباءا تقول ان جيشا فرنسيا بقيادة الجنرال « لوبلان » (Le Blanc) قد غادر مدينة وهران . وأما الجنرال «لامورسيير» ، صديقنا الذي طاردنا حتى أطراف الصحراء ، فقد ذكرت هذه الأخبار أنه أصيب بجراح في غضون تلك الحملة ، ولكن أنباءا أخرى تقول إنه مريض .

وفي تلك الليلة وصلتنا أخبار تقول أن الفرنسيين يتجهون الى شمال معسكر ، في طريقهم الى هنا .

ونظراً لأن سلطات الأمير كانت تتوقع هذه الحركة ، فقد اتخذت جميع الاجراءات الضرورية للجلاء عن تكدمت . وكذلك أخذت الحكومة تنقل ما بقي في القلعة من

(*) بالعربية في الأصل .

مقتنياتها ، وذلك بأقصى ما يمكن من السرعة والنظام . وقد ساد هذه العمليات جوّ من الهدوء والصمت التام ؛ وعلى الرغم من ان اكثر من مائة شخص كانوا يعملون في النقل وفي وضع الأحمال على ظهور الجمال ، فانك لا تكاد تسمع صوتا يتجاوز الهمس .

والحق أن كفاءة الجنود العرب وسرعتهم في نقل معسكر كفاءة لم أرَ لها مثيلا في حياتي العسكرية . والتناقض بين الجنود العرب الذين يعملون بجدّ وصمت ، والجنود الاسبان والبغالين الذين تعلو أصواتهم بالسبّ والشتم والضجيج أثناء التنقل . كان من الأشياء التي أثارت انتباهي منذ البداية .

وفي يوم 17 ، وصلتنا أخبار تقول بأن الجيش الفرنسي الذي خرج من وهران ، قد توقف على مسافة يومين الى الشمال الغربي من المدينة ؛ الأمر الذي حملني على الاعتقاد بأنه ينتظر هناك حتى تلتقي حركته بحركة الجيش الذي غادر مليانة .

وصل اليوم الى تكدمت ثلاثة هاربين من صناع السلاح الفرنسيين قادمين من شرشال . وقد حضروا الى هنا على أمل الحصول على عمل في مصنع تكدمت للأسلحة ، ولكنهم لم يحملوا معهم أية معلومات بشأن تحركات العدو .

وفي يوم 20 ، وصلتنا أخبار تقول بأن الدوق نَمُّور يرافق الجيش الذي خرج من وهران ، وأن هذا الجيش قد اقترب منا بحيث يوجد على مسافة 8 فراسخ من تكدمت .

وفي صباح نفس اليوم غادرنا تكدمت على نية أن نترك زوجة السيد «مانوتشي» وغيرها من النساء مع أسرة السلطان في الزمالة ثم نواصل سفرنا للاجتماع بالسلطان الذي يقع معسكره على مسافة يومين في اتجاه مليانة . ولدى وصولنا الى الزمالة ، أوصانا أمين المال بأن نعود أدراجنا الى تكدمت لحمل الأمتعة الثقيلة التي تركناها هناك عند حاكم المدينة ، السيد بوشليجة ، حتى نضعها تحت حراسة الزمالة . وفي نفس الوقت ، نصحنا بعدم السفر للبحث عن السلطان ، وذلك لأن وصول الفرنسيين الى تكدمت ،

سيحمله على الأرجح على القدوم اليها بنفسه للقائهم . وعملا بهذه النصائح ، فقد عدنا في مساء اليوم الى تكدمت.

وفي الصباح المبكر ، يوم 21 ، ساد القلق والاضطراب في المدينة على أثر الأخبار التي وصلتنا بأن الجيش الفرنسي قد يصل في غضون النهار . وهكذا أصبح كل واحد لا يهمّه الآن سوى النجاة برأسه ، والجميع منهمكون في وضع الأثقال على الجمال والجياد . ونظرا لأن عدد الجمال التي أرسلت الينا لم يكن كافيا ، فقد اضطررنا الى ترك كثير من الأمتعة وراءنا وسرقت منا . فأن الذين لم يكونوا يملكون شيئا يثقل ظهورهم في حركة الهروب ، استغلوا الاضطراب الحالي للاستيلاء على ما يملكه جيرانهم . وقد وُجِّهت فصيلة كبيرة من الجيش لحمايتنا ، ولولاها ، لكان عربان الصحراء الذين قصدوا الى تكدمت للنهب والسلب ، قد خفّفوا كثيرا من أحمالنا ولتركونا في حالة نشبه حالة جدنا آدم عقب خروجه من الجنة ...

سمعنا عدة طلقات نارية خارج القلعة ، بينما كان السيد «مانوتشي» قد خرج لقضاء بعض الأغراض . ولما عاد نصحنا بأن نحتفظ بأسلحتنا في أيدينا ، حيث أنه ما من أحد يعرف متى تظهر المناسبة لاستخدامها .

وفي هذه الأثناء ، قتل اثنان من العرب في مشادة قامت من أجل حيوانات النقل . فقد كان كل شخص يجري للاستيلاء على أول دابة يجدها في طريقه ، والأقوى دائما هو الأفضل .

ومن بين الأشياء التي تركت بدون مالك ، عثرتُ على برميل صغير من السّلمون المخلل . ولما كنت متخوِّفا من أن نبقي بدون غذاء في ذلك اليوم ونحن في طريق الهروب ، أخذتها تحت حمايتي ووضعتها أمام سرجي على الفرس .

وأخيرا تمكّنا من الخروج من تكدمت بأحمالنا وأثقالنا في مشية عسكرية . وأما المنظر الذي كنا نشاهده من بعيد ، فقد ذكرني بحملة احراق القرى التي قام بها كل من

الجنرال « أودونيل » (O 'Donel) والجنرال « ليون » (Leon) في الحرب الأهلية الاسبانية .

وأما السكان الهاربون من تكدمت فقد كانوا يتسلقون الجبال ببطء وتؤدة في طريقهم الى الطريق الرئيسية المؤدية الى الصحراء ، وهم يلتفتون بأنظارهم الى الوراء ليشاهدوا منازلهم التي تلتهمها ألسنة النار والتي أشعلوا النيران فيها بأنفسهم ليقلدوا سكان موسكو الذين حاولوا منع سقوطها في أيدي جيش نابوليون الغازي . وأما الجنود العرب ، فقد كان بعضهم يعدون ويروحون للمحافظة على الأمن العام ، بينما كان البعض الآخر متكئين بكسل وبرود على قربوس سروجهم ، وكأنهم يمتعون أنفسهم بمنظر المدينة التي وقعت طعمة للنيران التي شملت الآن جميع أحيائها بحيث أصبحت جمرة واحدة تمثل لوحة جديرة بأعظم الرسامين .

وبعد الظهر تمت عمليات التدمير باحتراق القلعة ومصنع الأسلحة ، وبذلك تحولت تكدمت الى كتل هائلة من الدخان والرماد التي تركها السّكان وراءهم لتحية « الجيش الكبير» (*) « المنتصر» كما كان الفرنسيون يصفون بعناد وبدون جدوى ، هذه الحملة التي كان يقودها الدوق « نمور» والدوق « أورليان» والدوق « أومال » ابناء الملك أنفسهم ، والتي تتكون من نحو 80 ألف مقاتل (1) .

(*) La grande Armée في الاصل

(1) تمت العملية الموجهة ضد معسكر وتكدمت باعداد الجنرال لاموريسيير وتحت قيادة الجنرال بيجو الـــذي حضر من الجزائر الى مستغانم في 15 مايو ، حيث لحق به فيلقان أحدهما بقيادة لاموريسير والآخر بقيادة نمور . وفي 18 مايو تحرك الجيشان ، وكان بيجو هو الذي تولى بنفسه قيادة الجيش الذي دخل تكدمت في 25 مايو ، وذلك بعد معركة وقعت بين خيالة الأمير وجيش الزواق خارج المدينة . وفيما عدا تفاصيل ثانوية فان رواية المؤرخين الفرنسين لهذه العملية تتفق مع ما ذكره الكلونيل اسكوت الذي يثبت لنا مرة أخرى أن المعلومات كانت تزوده مخابرات المقاومة كانت دقيقة وممتازة ، ولو أن ودومال ودروليان لم يشاركا في هذه الحملة .

وفي ديسمبر من هذه السنة لم يبق من الجيش الفرنسي صالحا للعمل في الميدان ، حسب تصريح للجنرال بيجو الى وزير الحربية ، سوى 4,000 مقاتل ، حيث يقال ان 19 من كل عشرين جنديا وضابطا ، هم رهن المستشفيات . ولكن كم عدد الرّؤوس التي طوّحت بها سيوف العرب ؟ وكم وقعوا ضحية لأحوال المناخ غير الملائمة لهم ؟ لا تذكر ذلك تصريحات بيجو ، ولكن الأرقام ، بدون شك ، مدهشة .

إن الخسائر التي تكبدها السلطان عبد القادر نتيجة لتدمير تكدمت يمكن تقديرها بعشرين ألف دولار ، ولكن هذه التضحية التي تحملها ، قد كلفت الحكومة الفرنسية عدة ملايين من الفرنكات .

بمجرد وصولنا الى الزمالة ، قصدت السيدة مانوتشي ، الى خيمة السلطان لمقابلته . وهذه السيدة يسميها العرب زليخة ، وهو الاسم العربي لجوليا . وفي طريقنا من تكدمت فَقِدْنا جملا فقد ارهق الحيوان باثقاله وسرق العربان أحماله . ولكننا لما عدنا الى المدينة ، استرجعنا كل شيء ، لانه لَوْ عثر على أصغر أمتعتنا في حوزة عربي ، لوقعت راسه على الفور في قبضة السياف ؛ حيث أن الاعدام هو دائما عقاب السارق في أراضي الأمير عبد القادر .

وفي 22 ، تقدَّمنا في إتجاه أعالي نهر مينه ، وهي منطقة جميلة للغاية . ومنابع مينه عبارة عن عينين ثرتين تخرجان من فتحة في جانب هضبة عالية . والعينين تبعد احداهما عن الأخرى بنحو ياردة واحدة . وكميات المياه الكبيرة التي تخرج من العينين ، سرعان ما تتّحد وتشكل نهراً صغيراً .

وفي يوم 24 ، مضينا في ميرنا في اتجاه الصحراء . وقد علمنا أن معركة جرت يوم 22 بين قوات بوشليجه والقوات الفرنسية أسفرت عن عدد كبير من القتلى والجرحى من الجانبين .

وصل السلطان الى ضواحي تكدمت صباح يوم 24 . وعلى الرغم من أنه كان تحت أوامره جيش يتكون من 2000 مقاتل ، فانه رفض الدخول في معركة شاملة مع

العدو . ومع ذلك ، فقد وقعت مناوشات بين الطرفين . وفي ليلة 25 ، أحضر الى معسكرنا ستة من الجرحى الفرنسيين الذين تركهم جيشهم وراءه لمصيرهم . وقد توفي أحدهم متأثراً بجراحه في نفس الليلة ، وأما الباقي ، فقد التأمت جراحهم .

وقد دخل الفرنسيون الى خرائب تكدمت في هذا اليوم ولكنهم جلوا عنها وساروا في اتجاه معسكر.

وبمجرد ما وصلتنا أخبار جلاء الفرنسيين ، عن تكدمت ، عُدْنا أدراجنا الى المواقع التي كانت تمتد فيها الزمالة قبل الهجوم الفرنسي . وفي طريق عودتنا ، مررنا بخرائب تسمسلي التي لم يبق من آثارها سوى الأساس وجزء من حائط مبني يبدو أنه عبارة عن قلعة رومانية .

وفي يوم 27 ، وصلنا الى المكان الذي قصدْناه بعدما قضينا ليلة 26 على مسافة قصيرة من الخرائب المذكورة أعلاه .

* * *

الفصل السابع

قمنا في صباح يوم 28 بزيارة خرائب تكدمت . وقد كانت الدلائل الوحيدة التي عثرنا عليها والتي تدلّ على أن المدينة كانت مسرح معركة عبارة عن جثتي فرسين وجثة رجل فرنسي بدون رأس.كان التقليد المتبع أثناء الحرب الأسبانية عندما ينتصر جيش في معركة مهمة أو يسترجع مدينة أخذها العدو ، مكافأة الجيش الذي قام بهذه العمليات بميدالية تخلد ذكرى انتصاره . فلو أراد الملك لويس فليب مكافأة جيشه « الباسل » على الحملة التي شنها على تكدمت ، فانني أنصحه أن يصدر لهذه الغاية ميدالية ينقش عل أحد وجهيها عبارة «تكدمت 25 مايو» ، وعلى الوجه الآخر صورة كلب في النزع الأخير معلق على مدخل القلعة . فإن هذا الكلب يكون هو الرمز الوحيد الذي يدل على شجاعة الجيش الفرنسي الذي لم يجدْ في المدينة حيوانا واحدا ذا رجليْن يمكن أن يصب عليه غيضه ورغبته في الذبح . (يستثنى مما تقدم شيخ ذوعاهة منعته من الهروب وقد ذبحه الفرنسيون بصورة وحشية) . وتبعا لذلك ، فقد صبَّ الجيش الفرنسي جام غضبه ... على الكلاب السيّئة الطالع وراح يمعن فيها بالقتل !

لقد قمت بعد الكلاب التي قتَلَها الفرنسيون في الشوارع وفي ضواحي المدينة ، فبلغ عدد ما شاهدته خمسين كلبا .

فإذا كانت معركة الدّون كيشوط مع الخرفان قد اشتهرت في التاريخ بأنها من أعظم المعارك التي دخلها فارس مغوار في عصر الفروسية ، فكيف لا يسجّل التاريخ معركة أعظم شأنا منها ، معركة خاضها الدوق ابن ملك فرنسا ضد الكلاب !

نعم ! فإن النعجة والخروف كلاهما حيوان بريء ولا يمكن أن يهابه رجل شجاع حقا ... وأما الكلب ، فهوكثيراً ما يكون عدوّاً مخيفا . والفارق الوحيد بين الانتصارين ، هو أن الدون كيشوط قد سجل انتصاره بنفسه ولم يساعده في المعركة سوى خادمه الأمين ، صَانْكُو بَنْزا ؛ وأما الدوق النبيل ، فقد كان يقود جيشا يبلغ عدده نحو ثمانين ألف مقاتل من ذوي الشوارب المحترمة ، بعضهم من سلاح الخيالة ، والبعض الآخر من سلاح المدفعية ، والباقي من جيش المشاة ، وكل واحد منهم قد قام بجهد عظيم ساعد به على تحقيق هذا الانتصار الذي ستذكره الأجيال القادمة ، في معركة الكلاب .

إنني لا أشك لحظة واحدة في أن المؤرخين الفرنسيين سيسجّلون أن ابن الملك قد أضاف اكليلا جديداً كسبه في معركة الكلاب الى بقيّة اكاليل الغار التي جمعها في ميدان القتال في افريقية .

لقد كان يقود جيش وهران الجنرال بيجو والدوق نمور ؛ وأما جيش الجزائر ، فقد كان تحت قيادة الجنرال جينجيت (Guinget) الذي يرافقه الدوق أو مال ، والدوق أورليان ، فيما أعتقد . .

ومدينة تازا أيضا ، دخلها جيش الجزائر يوم 24 مايو (1) وهي مثل تكدمت تحولت الى يباب بلقع بناء على أوامر السلطان عبد القادر . وتبعا لذلك ، فإن الجنرال والدوق او مال لم يجدا أحدا في المدينة ليرحب بمقدمهما ، وإنما هما

(1) يقع حصن تازا الجزائرية التي تسمّى تازا الصحراء (لتمييزها عن تازا المغربية) على مسافة 12 فرسخا في الجنوب الشرقي من مليانة ، عند منتصف الطريق من قصر بوغار الى ثنية الحدّ . وقد أنشأ الأمير عبد القادر فيها تحصينات تشتمل على قلعة كما بنى فيها طاحونة يحركها الماء وعددا من المنازل في منتصف سنة 1838 ، وكان الخليفة ابن علال ، خليفة مليانة ، هو الذي كلف بالاشراف على عمليات البناء والتشييد في تازا ، وقد أحتل الجيش الفرنسي هذا الحصن وخرب قلعته في 25 مايو 1841 .

جدا ، بدلا من ذلك ، أعمدة الدخان تتصاعد واكوام الرماد . ولذلك ، فقد عجلا بالجلاء عنها وتراجع جيشهما في اتجاه مليانة يوم 27 مايو .

وفي يوم 31 ، سِرْتُ مع صديقي مانوتشي الى تكدمب لمقابلة السيد بوشليجة ، لنسأله عما إذا كان قد تلقى أي رد على مسعى قمنا به عن طريقه الى صاحب السموّ الملكي الأمير عبد القادر ، أعربنا فيه عن رغبتنا في أن يحدد لنا مكانا نقوم فيه بزيارته ونقدم اليه احتراماتنا .

وقد تلقينا ردا من الأمير يطلب إلينا فيه أن نتجه الى معسكره الذي يقع غير بعيد من مدينة معسكر .

وفي تكدمت شاهدنا ابن بكير وبو شليجة والجيلالي وابن فجّه وابن عبّو المسؤول عن شؤون أسرة الأمير المالية (1) ، وهم يتباحثون في موضوع إعادة بناء مدينة تكدمت . وأما القلعة فقد بدأ العمل في إعادة بنائها ، وكانت عدة مئات من العمال العرب يعملون منذ الآن لازالة الأنقاض . وهؤلاء العمال لم يحزنهم مصير تكدمت وكونهم قد اضطروا إلى اشعال النار في بيوتهم بايديهم . يردون على كل سؤال في هذا السياق قائلين : إن الفرنسيين لا يقدرون على احراق خيامهم !

والسيد ابن عبو ، لم يتحْ لنا تقديمه لتعريف القارئ به . ونظرا لأنه يعتبر من كبار حاشية السلطان ، فإن وصفه بايجاز سوف لا يخرج بنا عن الموضوع .

تأخذ سحنته الى لون الرمل الغامق ، يبلغ من العمز نحو الستين ، أبيض الشعر وتبلغ قامته نحو ستة أقدام . إنه يتحدث من أنفه بسبب حادث مؤسف وقع له في معركة اشترك فيها في تافنا .

---

(1) وصف القبطان دوما ، قنصل فرنسا في معسكر ، ابن عبّو في رسائله الى حكومته بأنه يشغل منصب أمين المال ويتمتع بثقة الأمير التامة ويكره الفرنسيين كرها شديدا والمعلومات التي يقدمها الكلونيل أسكوت عن ابن عبو ، مثل كثير من المعلومات التي يقدمها عن شخصيات أخرى من رجال الأمير لاتتوفر في مرجع آخر غيره .

فقد قتل فرس الأمير تحته . ونظراً لأن السيد ابن عبّو بطيء في النزول من على ظهر جواده الذي يريد تقديمه للسلطان ، فقد أصابته طلقة طائشة من بندقية البوحميدي شوهت وجهه في الوقت الذي دفعت فيه باثنتين من أسنانه الى حلقه . ومع ذلك ، فإن ابن عبو قد أتم عملية النزول من فرسه دون مساعدة أحد .

وفي أول يونيو ، غادرنا الزمالة متجهين الى معسكر . ولدى وصولنا الى تكدمت ، التحق بنا شقيق حاكم المدينة لمرافقتنا . ونظراً لما أصاب جيادنا من التعب في الأسفار فقد عجزنا عن السير بسرعة ؛ ومن ثم ، فنحن لم نصل الى معسكر إلاّ في يوم 3 من الشهر.

كان الأمير قد أصدر أوامر بالجلاء عن معسكر في أواخر الشهر الماضي ، وقد دخلها الفرنسيون في أول يونيو وغادروها يوم أمس ، متراجعين في طريقهم الى مستغانم تاركين فيها حامية تتكون من ألف من جيش المشاة وستين من فرسان الخيالة .

مَرَرْنا بمدينة معسكر على مرمى بندقية ، ولكننا لم نَرَ أثرا للفرنسيين حيث أنهم متخوفون على أنفسهم ، لأنه بمجرَّد ما تظهر رأس واحد منهم ، سيجد أحد العرب لذة كبيرة في صيدها . والعرب يقومون بمثل هذه العملية بدون أي خطر ، حيث أنهم يعتمدون الطريقة التالية للهجوم على العدو : يطلق العربي عنان جواد ليسير بأقصى السرعة ويلقي بجسمه بحيث يكون ملاصقا لعنق الفرس ولا يظهر سوى رأسه . وعندما يصل الى أقرب نقطة من المرمى ، يقف على ركابه ويطلق النار ثم ينحرف الى اليسار ويختفي في الطبيعة في لَمْحِ البرق ، وبنفس الطريقة التي ظهر بها ، وظهر السرج العربي العالي يحميه من طلقات النار من الخلف . والجدير بالذكر أن السرج العربي يتمتع بميزة أخرى ، الى جانب الميزة السابقة ، وهي أنه أَرْيَحُ من سرجنا الأوروبي ، حيث أن الراكب يشعر بأنه جالس على كرسي وهو يركب عليه .

ولدى وصولنا إلى مُعَسْكر خليفة مدينة معسكر ، الحاج مصطفى ، الذي هو أيضا زوج أخت السلطان ، علمنا أنه فرض حصاراً مشدداً على معسكر ، حيث وضع أكثر من مائة حارس مسلح على مر أى من المدينة وفي جميع جهاتها ، حتى يمنع

الفرنسيين من الخروج للبحث عن العلف لخيولهم . وكذلك وقعت مناوشات عديدة للقوات الفرنسية لدى مغادرتهم معسكر . وقد طاردت قوات تابعة لحرس الأمير الشخصى وهي المليشيا والمتطوعين في الجيش الفرنسي على طول الطريق حتى مستغانم. وقد بلغ عدد القتلى من الفرنسيين ، حسب التقارير التي قدمت الى الأمير 150 قتيلا ، وكان ذلك عقب إحصاء الجثث التي اكتشفها العرب وكثير من القتلى ، قام الجيش الفرنسي نفسه بدفنهم على أن القبور التي دفنوا فيها كانت سطحية بحيث أن جثثهم ظهرت في العراء بعد مازال التراب عنها .

وأما السبب الذي حمل الفرنسيين على ترك حامية صغيرة في معسكر ، فهويرجع ، فيما أتصور ، الى رغبتهم في الاقتصاد في إرسال قوافل التموين إليهم . وبالطبع ، فكلما كان عدد الحامية صغيراً كانت فرص المحافظة على ما لديها من المئون أكبر . والمعروف أن الحصول على الحيوانات التي تنقل التموين من وهران يعتبر من أشق وأعوص المشاكل التي يواجهها جيش الاحتلال في وهران . وسيتضح من السطور التالية ، أن خطة الأمير العسكرية في هذه العملية تقضي بالسماح للفرنسيين باحتلال المدن الكبيرة ، حتى يتمكن من مطاردتهم في عرض البلد ، عند خروجهم من وهران ومستغانم وبذلك يصبحون في كل وقت تحت رحمة نيرانه بدلاً من أن يبقوا أبدا متحصّنين وراء أسوار المدن التي يحتلونها .

لقد قتل جنديٌ أسود ، وهوعبد الحاج مصطفى ، اثنين من الفرنسيين بيده يوم 2 يونيو . وقد كافأه الأمير عبد القادر الذي شهد المنظر بعينيه أثناء المعركة بأن أعطاه سيفه الخاص ، بالاضافة الى الوشاح المحمدي الذي هوالوسام العسكري الوحيد في المملكة ، وهذا الوسام لم يمنح قط الا للأشخاص الذين قاموا بأعمال عظيمة . وقد قدم الينا هذا العبد لنتعرّف به ، فوجدناه يفتخر بهذا الشرف افتخار الشخص الذي تمنحه ملكة بريطانيا لقب «فارس » .

نَصَحَنَا الحاج مصطفى بأن نبقى في المعسكر لانتِظار الأمير حيث أنه سيصل ، على الأرجح في غضون هذا النهار . ولكننا بعد الظهر ، تلقينا رسالة من الأمير يخبرنا

فيها أنه سيتجه الى تكدمت عن طريق «مازونة» وأنه سيعود الى هذه المدينة في أسرع وقت ممكن .

وفي يوم 4 من الشهر ، تلقينا رسالة من الآغا الذي يقود القوات الإضافية والذي هو أيضا قائد قبيلة الأمير التي تمتد أراضيها على مسافة فرسخين من هنا ، يدعونا فيها للالتحاق بمقرقيادته .

وفي طريقنا ، مررنا بمقبرة أسرة السلطان ، التي دفن فيها أقاربه والتي تحتوي على ثلاثة أضرحة تشبه أضرحة المرابطين (*) والصالحين . وأحد هذه الأضرحة يأوي رفات والده ، والآخر يضم أجداث عمه والثالث يضم بقايا شقيقه الأكبر . والشخصان الأخيران مَاتا شهيدين (*) .

لقد استَلْفَتَتْ نظري اكوام من الاحجار مخروطة الشكل وضعت على قبور الذين استشهدوا في المعارك الاخيرة والذين قدِّرت لهم الجنة مقاما . وقد كان خمسة وعشرون من هذه القبور الحديثة لرجال من ابناء القبيلة . وقد بلغ مجموع خسائر الأمير ، طبقا لأدق المعلومات التي استقيتها ، مايتراوح بين سبعين وثمانين قتيلا . وجميع الأطفال الرضع الذين يموتون من أبناء القبيلة يوارون التراب في ضريح والد الأمير ، بناء على تصريح له بذلك . وهذا الاحترام للأطفال في العقيدة الاسلامية يشبه المبدأ الذي يبشِّر به المسيح - « لا تتألموا أيها الأطفال في مقدمكم اليّ لأن الرحمة تنتظركم في مملكة السماء » .

ولدَى وصولنا الى خيمة الآغا ، تناولنا الكسكس بالدجاج المغلي ، كما تناولنا نحن قدحا من الكحول التي حرمنا منها مدة طويلة . والمشروبات الروحية قَلّتْ بين اليهود بصفة خاصة ، لأن الفرنسيين قد حطموا جميع الأوعية وأواني التقطير أثناء الحملة الأخيرة ، وهنا التقينا باليهودي الذي أقمنا في منزله أثناء نزولنا في معسكر وكان

(*) « المرابطين » في الاصل بالعربية

(*) في الأصل بالعربية .

في حالة من التعاسة يرثى لها . فإن أخته قد ماتت نتيجة لاجهاض بسبب ما أصابها من الذعر أثناء جلاء السكان عن مدينة معسكر ، بينما كانت زوجته طريحة الفراش ضحية للحمى .

ودَّعنا صديقنا الآغا بعد الزوال ، ولكننا لم نصل الى الزمالة الا في صباح يوم 2 من الشهر ، حينما أتاح لنا الحظ أن نعرف أن صاحب السموّ الملكي قد وصل اليها قبلنا .

وبعدما خلعنا على أنفسنا حُلَلَ الاستقبال ، سِرْنا لاجراء مقابلة معه .

استقبلنا الأمير عبد القادر في خيمة أمين الخزينة . وبعد القيام بالرسوم التقليدية التي تقضي بلمْس يَدِهِ وتقبيل أيدينا (وهذا التقليد أفضِّله على تقليد تقبيل يد شخص آخر ، حتى ولو كان ذلك الشخص سيدة جميلة (وحتى يد الملكة كريستينا التي كانت جميلة ، وهي اليد الأروبية الوحيدة التي تشرفت بتقبيلها في حياتي) .

وقد استقبل صاحب السموّ السيد مانوتشي بوصفه صديقا قديما ودعانا الى الجلوس بجانبه . وبدأ سموه الحديث بالتعبير عن تقديره العظيم للأمة التي أنتمي اليها ، كما اعرب لي عن سروره لوصولي إليه سليما .

وبعد محادثة طويلة ، تقرَّر أن خَدَماتي لسموِّه ستكون فعالة للغاية وأن مقر عملي سيكون في الزَّمالة حيثُ تتجمع المعلومات من مختلف أطراف البلد ـ المعلومات التي ستُمكِّنني من تقرير أفضل الخطط لتنظيم وتهيئة قواته العسكرية النظامية للقتال . وبالاقامة في الزمالة ، ستتاح لي الفرصة للتعرُّف على شؤون دولة المملكة العسكرية والمدنية معا .

إن أعظم الشخصيات في العالم الاسلامي في العصر الحاضر ، هما : بدون شك ، شخصية محمد علي ، وشخصية الأمير عبد القادر. والأول معروف في العالم بسبب طول مدة حكمه لبلاده ، وأما الثاني فهو غير معروف بالكفاية للعالم الخارجي ، خصوصا ، بسبب صعوبة السفر الى الجزائر عبر أراضي المغرب الأقصى .

ومن ثم ، فأن تقديم نبذة عن سيرة هذا البطل الشاب ، ستكون مفيده ، خصوصا ، للعسكريين وأن الظروف التي مكنته من الاستمرار في المقاومة هذه المدة الطويلة لجيوش أمة من أكثر الأمم تقدما في العالم ولخططها العسكرية المتفوقة ، يجب أن تقنع كل من له تضلّع في فنون الحرب ، بأن هذا الرجل عبقرية حربية نادرة ، لا تقل عن عبقريته السياسية .

وهذا الأمير ينحدر من أقدم الأسر العربية . وقد كان أجداده يحكمون البلد قبل الرومان (1) ويبلغ طول صاحب السموّ خمسة أقدام وسبع بوصات ، وهو أبيض اللون وذو عينين زرقاوين ، وملامحه بيضوية الشكل وتدلّ على ذكاء وقاد . لقد زُوِّد بعبقرية طبيعية ويتمتع بهدوء نادر في الحكم والعمل معا . الأمر الذي يجعله يخطط وينفذ أصعب العمليات بكفاءة وامتياز .

فَلَوْ أتيح للأمير عبد القادر ما أتيح لنابليون من فرص التعليم والتدريب ، لكان بدون شك ، أكبر منافس له على صفحات التاريخ .

وكسوة الأمير تشبه الكسوة التي يرتديها الرؤساء العرب : برنوس أبيض مزين بشرابات حرير على « القلمون » وفي الصدر . وفوق هذا البرنوس ، يلبس برنوسا آخر أسود مصنوع من الوبر لا يلبس العمامة سوى عدد قليل من الناس هنا . ولكن الأشراف الذين ينحدرون من سلالة الرسول (صلعم) يلبسون عمامة خضراء ليتميزوا بها عن باقي المؤمنين الذين يلبسون خيوطا بيضاء أوسوداء على الرأس .

والأمير عبد القادر يعتبره الشعب الزعيم المدافع عن الدين ، وبالتالي ، هو قائد الحرب المقدّسة . وهذا النضال الذي يقوده ضد فرنسا يتتبعه العالم العربي كله ، بل وأستطيع أن أقول ، العالم الاسلامي أيضا ؛ بكثير من العطف والتقدير .

---

(1) نغفر هذا التناقض للكولونيل أسكوث الذي كانت مصادر معلوماته كلها شفاهية . فاذا كان الأمير ينحدر من أقدم الأسر العربية ، فكيف نعرف ان أجداده كانوا يحكمون البلد قبل الرومان ؟

وعندما استولى الفرنسيون على مدينة الجزائر وتخلّص الجزائريون من نير الأتراك ، قامت كل قبيلة في البلد بحمل السلاح للدفاع عن العقيدة الاسلامية والاستقلال ضد الغزاة لبلدهم وأعداء دينهم تحت راية مرابطها الممتاز . على أن العقلاء والمستنيرين من بين هؤلاء الرؤساء سرعان ما أدركوا أنه لكيْ يقوموا بمقاومة مجدية للعدو المشترك ، يتحتم عليهم تعيين قائد عام لقواتهم يمكنه توحيد البلد تحت راية النبـي .

ونظرا لأن أسرة الأمير عبد القادر هي من أقدم الأسر العربية ، فقد اتجه عدد من رؤساء القبائل المجاورة لمعسكر الى منزل والده الذي يبعد بنحو 12 ميل الى الجنوب الشرقي من المدينة ورجوه أن يرفع الراية الاسلامية مرة أخرى للدفاع عن حرية العرب الذين خضعوا مدة طويلة لسلطان الرومان (كذا) وللحكم العثماني . على أن هذا الشيخ الوقور الذي يبلغ السبعين من العمر ، أدرك أن مهام القيادة المعروضة عليه تفوق ما تسمح له به بنيته الجسمية ، ولذلك رفض هذا العرض . على أن دافعا من الوطنية التي تشرفه جعله يصرح أمام الوفد الذي جاء لمقابلته ، بأنه اذا كانت سنه المتقدمة لا تسمح له بالقيام بواجبه المقدس على أكمل وجه ، فان ابنه الثالث ، عبد القادر ، يستطيع تحمل أعباء هذه المسؤولية بكفاءة .

وقد أتيح لي شخصيا أن أدرس شخصية الأمير وشخصية أخويه (وهما أكبر منه سنا) ، ولكن الشخصية التي أقدمها اللقارئى هي وحدها التي تتوفر فيها الخصائص الضرورية لقيادة أمة . فقد قام الأمير بأداء فريضة الحج ويحترم القيود التي فرضها عليه دينه بدقة كبيرة . والحق أنه يجمع بين نشاط الشباب والشجاعة والذكاء .

ولما وجد وفد شيوخ القبائل أن والد الأمير مصمِّم على رفض القيادة التي عرضوها عليه ، وتاكدوا من أنه باقترحه انتخاب ابنه الثالث انما يريد خير البلد ، قاموا بانتخاب الرئيس الشاب باجماع الآراء ليحمل راية الرسول وعلم استقلال الجزائريين.

وكانت الخطوة الأولى التي قام بها القائد الشاب ، هي أن يطلب الى كل واحدة من القبائل ان تمده بعدد من الفرسان . وقد بلغ عدد الفرسان الذين جمعهم من هذه

القبائل المتحدة ، 400 فارس . وبهذه القوة الصغيرة ، شرع على الفور في شن هجمات على المواقع الفرنسية المنعزلة . وإثر ذلك ، بعث بمنشور الى رؤساء القبائل التي لم تكن ممثلة في الوفد يعلمها فيه ، بأن ارادة الله قد اختارته لقيادة المؤمنين وللدفاع عن الدين والوطن ضد الغزاة الكفار ، وطلب اليهم القدوم إليه ليعلنوا طاعتهم وليضعوا أنفسهم تحت علمه .

ان الدين الاسلامي يقرر أن الشخص الذي يسقط في المعركة دفاعاً عن دينه ووطنه ، ستنطلق روحه الى الجنة مباشرة ، حيث تنتظره الحورُ لترحِّب بالمحارب البطل وتطوقه بأذرعها البضه في أرض تجري فيها أنهار من لبن وأنهار من عسل مصفى.والشهيد في الحرب يصل الى الجنة دون أن يحتاج الى المرور بالصراط (*) الذي هو من الدقة بحيث لا يتجاوز شعرة جمل ، والذي اذا انزَلَقَتْ منه رجل الانسان ، سقط الى هاوية الجحيم .

وهذه العقيدة التي تدفع المسلمين الى الرغبة في الاستشهاد ، هي التي سمحت للأمير بأن يجمع في وقت قصير جيشاً كبيراً .

وفي هذه الفترة كان الفرنسيون يحتلون مدينة تلمسان ، وبعد معارك ثانوية ومناوشات ، وقعت معركة كبيرة عند نهرتافنا (1) وعلى الرّغم من أن كفة النصر قد تأرجحت في تلك المناسبة في جانب الفرنسيين فان ما أبداه العرب من ضروب الشجاعة

(*) محرف في الاصل الى : El-Haraek

(1) يشير الكاتب هنا الى معركة سكاك (أحد روافد يسر الغربي) التي وقعت بين جيش فرنسي يقوده الجنرال بيجوكان يتجه الى تلمسان وقوات يقودها الأمير بنفسه في 6 يوليو 1836 . وقد أبلى الامير عبد القادر شخصيا في هاذه المعركة أعظم البلاء ، ولكن الفرنسيين اعتبروا نتيجتها نصرا مبينا لهم .

في القتال ، قد أقنع الجنرال بيجو (1) بأن انتصاراً آخر مثل الذي أحرزت عليه جيوشه الآن ، سيكون مساويا لهزيمة منكرة . ولذلك سعى بحكمة الى عقد معاهدة مع صاحب السموّ الملكي عبد القادر (راجع الملحق رقم 1) في أرشغون .

وفي يوم 24 صفر 1253 هجرية ، الموافق 30 مايو 1837 ميلادية أصبح الأمير عبد القادا أميراً للمؤمنين معترفا بسيادته وسلطانه على العرب . وكلمة «أمير المؤمنين» في اللغة العربية تعني رئيس الشؤون الدينية والشؤون الدنيوية . وبعد ذلك ، تولّى الأمير السلطة القانونية وتلقب بلقب السلطان الذي تعترف له به جميع الأراضي التي تمتد من وجدة الى نهر مجردة (*) التي تحررت بموجب المعاهدة من أهوال الحرب .

وعقب ذلك شرع السلطان في اقامة دعائم حكمه على أساس النظم الأروبية ، فقسم مملكته الى عدة ولايات وعيّن على كل واحدة منها حاكما يحمل لقب الخليفة . وولايات المملكة هي : 1) تلمسان التي يتولى الخلافه عليها البوحميدي المشهور ،

---

(1) توماس بيجو . من أسرة أريستوقراطية تقيم في ليموج حيث ولد هذا الجنرال في 15 أكتوبر 1784 . وبعد مرحلة من الخدمة العسكرية توجت برتبة قبطان في الحرب الاسبانية حيث تلقى تدريبا خاصا في القمع والأجرام (ثورة مدريد) تحت نابليون الأول ، رقاه لويس الثامن عشر الى رتبة كلونيل في سنة 1814 ، حينما كانت قوات الحلفاء تحتل فرنسا . وبعد ذلك ، أحيل على الاستيداع في سنة 1815 . وفي سنة 1824 ، أستأنف حياته العسكرية التي سيتوفر الجزائر لها المسرح الذي يطمح إليه . أرسل الى هنا في مناسبتين متواليتين ، كانت أولهما في سنة 1836 ، حين أتيحت له الفرصة لمقارعة الأمير السلاح لأول مرة في في معركة سكاك ، والثانية في سنة 1837 حين سجل انتصارا للعقل والمنطق بمعاهدة تافنا . وفي سنة 1840 ، عين واليا عاما على الجزائر وأخذ يوجه آلة حرب مدمرة ويساهم فيها بنفسه باحراق القرى وتخريب الزرع ، في الوقت الذي عكف فيه على صياغة نظرياته الاستعمارية التي ستخذ الحكومات الفرنسية المتعاقبة منها في الأجيال التالية حجر الزاوية لسياستها الاستعمارية التي تقوم على القمع والاستيلاء على أراضي السكان بدون تعويض . مات بيجو بعد ما حصل على عصا المريشال (معركة ايسلي) وبعد ما ترك الخدمة بوقت قصير في سنة 1849 .

(*) كانت هذه غلطة مطبعية ، أو أن اسم وادي خضره (وادي بودواو) قد التبس في ذهـــن المـــؤلف ، بنهر مجردة الذي يجري في الأراضي التونسية التي لم تكن موضع أي اتفاق بين الأمير والحكومة الفرنسية

وعاصمتها تلمسان . 2) معسكر التي عين الحاج مصطفى (1) خليفة عليها . 3) مليانة التي يشغل منصب الخليفة فيها ابن علال ، وعاصمتها مليانة . 4) الجزائر التي عين خليفة عليها أحمد بن سالم ، وعاصمتها دلس . 5) قسنطينة التي عين البركاني خليفة عليها وعاصمتها سطيف (2) .

والى جانب ما تقدم . أنشئت خلافة جديدة في تكدمت في شهر مايو الماضي ، وتشمل المناطق التي تمتد حتى صحراء « اللمط » . وقد عين خليفة عليها ابن بكير ، مكافأة على الخدمات التي قدمها للأمير أثناء حصار قصر عين ماضي (*) (3) وهي مدينة كبيرة في الصحراء . وقد عاد الأمير من هذه الغزوة في سنة 1838 بحمل مائة جمل محملة بالذهب .

---

(1) هو الحاج مصطفى بن التهامي . كان والده مفتي وهران في عهد الأتراك ، وكان هو معلما قبل أن يدخل في خدمة الامير ويصبح كاتبه الخاص (خوجة) في المرحلة الأولى ، ثم خليفته على الشراقه في مرحلة تالية . وقد كان مصطفى بن التهامي مخلصا للقضية الوطنية ووفيا للأمير في السراء والضراء . وهذه الخصال هي التي حببته الى الأمير وحملته على ربطه بأواصر المصاهرة حيث زوجه بأخته الصغيرة ، خديجة . وكذلك اشتهر ابن التهامي بالورع والتقوى وسداد الرأي .

(2) الواقع أن البركان خليقة على المدية وأراضها . وأما خليفة الأمير على مجانه وسطيف وغيرها من أراضي قسنطينة ، فقد كان المقراني .

(*) في الأصل : Illmadia

(3) اتصل الأمير بالشيخ التيجاني في عدة مناسبات يطلب اليه أن يعلن خضوعه ويقوم بدور في المقاومة . ولكن الشيخ رفضى ذلك . ولما بلغت الأمير الأخبار بان التيجاني يتراسل مع الوالي العام فالي . سار اليه من تكدمت على رأس جيش كبير في ربيع سنة 1838 . وقد وصل الى قصر عين ماضي الذي يمثل قلعة منيعة في 20 يونيو . وبعد مفاوضات قام فيها ليون روش بدور رسول الأمير رفض التيجاني الاستسلام . واثر ذلك ، شدة الحصار على القصر واستعمل مختلف الوسائل العسكرية لاخضاعه (تفجير الغام في السور وحفر نفق وتسديد نيران المدفعية الخ .) وقد دام هذا الحصار قرابة ستة أشهر انقطعت خلالها اتصالات القصر مع الخارج وبلغ التعب أقصاه بجيش الأمير وفي 19 نوفمبر دخل الطرفان في مفاوضات مثل الأمير فيها شقيقه سيدي سعيد ومصطفى بن التهامي ، أعلن التيجاني استسلامه بشروط وضع ابنه رهينة عند الأمير لضمان تنفيذها ، ورفع الامير الحصار عن عين ماضي في ديسمبر ثم أمر بهدم هذه القلعة .

وأما القبائل العربية التي تقطن غير بعيد من تنس ، فانها قد وضِعَت تحت سلطة ميلود بن عراش (1) .

ولكل خليفة جيش من المشاة النظاميين موضوع تحت قيادته يتكون مما يتراوح بين 1200 و 1300 رجل مضافا اليها كتيبة من الاجانب الهاربين من الجيش الفرنسي . وبعض هذه الكتائب يبلغ عدد رجالها 200 جندي وضابط . والى جانب جيش المشاة وضعت تحت تصرف الخليفة قوة من الخيالة تتكون مما يتراوح بين 400 و 500 فارسا .

والحدود بين كل ولاية وأخرى رسمت بكل ما يمكن من العناية والدقة . وطبقا لحجم كل ولاية يعين فيها عدد من الآغاوات (=كلونيل) . والآغا هو قائد القوات الاضافية . وعندما تجند منطقة الآغا لحمل السلاح ويتجه رجالها الى الموعد المحدد للقاء ، يكون هو المسؤول عن جمع مواد التموين التي تكفي للمدة التي تمتد عليها الخدمة العسكرية . والخليفة هو الذي يعين « القايد » المسؤول على القرية أو القبيلة ادريا . ولكن هذا التعيين يحتاج الى تأكيد الأمير له . وأما حكام المدن ، فان الأمير هو الذي يعينهم بنفسه ، وتتم مراسم تعيينهم بمحضر القاضي الذي يقسمون أمامه اليمين القانونية ، قبل أن يخلع عليهم البرنوس التقليدي ، رمز الحكم .

وكل شكوى ضد حاكم المدينة ، تقدم الى الأمير عن طريق الخليفة أو تعرض عليه مباشرة أثناء الجلسات التي يعقدها للفصل في القضايا وتستمر حتى الساعة الثالثة

---

(2) كانت القبائل التي يتزعمها ميلود بن عراش تشكل قوة عسكرية مهمة وتجمع وقت التجنيد نيفا و 2,510 فارس و 1600 من المشاة . وهذه القبائل التي تمتد معظم أراضيها في جبال منيعة وراء تنس ، كانت دائما تعتز باستقلالها ، وحتى في عهد الأتراك لم يكن خضوعها سوى اسميا للادارة التركية . وقيمة ابن عراش في نظر الأمير هي في معرفته بهذه القبائل وفي اتصالاته بزعمائها المحليين حيث كان قائدا على المنطقة في عهد الاتراك . وقد عرف ابن عراش ، أغا الشراقة بولائه للامير وباخلاصه للقضية الوطنية . ومن هنا كانت ثقة الأمير فيه لا حد لها ، وكان يكلفه بادق المهام (سفارته الى باريس) التي تحتاج الى اللباقة والى قوة الشخصيـة وهو الذي كان يشغل منصب وزير الخارجية . وقد وصفه القبطان دوما قنصل فرنسا في معسكر في احدى رسائله بقوله : « انه يتمتع بثقة الأمير التامة ويلجأ اليه في جميع الأمور الدقيقة » .

بعد الظهر . وكأي ملك من ملوك العهود القديمة ، يقوم الأمير عبد القادر بنفسه بالنظر في العرائض والقضايا ، ومتى كانت الشكوى تقوم على أساس ، كان الحكم بشأنها سريعا في صالح المتظلم . ولكنه اذا كانت الشكوى مفتعلة ، فان عقابا ينزل بصاحبها ، حتى لا يستنفذ وقت صاحب السموّ في شكاوي عابثة . والمسألة الأخرى التي عني بها الأمير عبد القادر هي صك النقود . فقد أصدر عددا من قطع النقود المصكوكة المتداولة . وهي مصنوعة من الفضة وقيمتها 2 شلن و8 بَنْسَات . ، اشلن و4 بنسات . ، 4 بنسات ؛ و 2 بنسات ؛ أو من النحاس قيمة القطعة 20 بنساً و 2 بنساً وكل قطعة تحمل ختم الأمير والسنة التي ضربت فيها .

وكذلك أنشأ الأمير مصنعا للبنادق وآخر للحديد ، ولكنهما دُمِّرا في غضون الحرب الحالية . وكذلك تقدم العمل لاقامة مصنع للملابس ولكن وفاة دوكاس المسؤول عن هذا المشروع قد تسببت في وقف العمل فيه حتى يومنا هذا .

وفي سنة 1838 م ،عرض الأمير عبد القادر في بيان أصدره لهذه الغاية اقطاع الأرض لكل من يريد الاستيطان في مملكته . وهو يهدف من وراء هذا الاجراء الى تشجيع الأجانب حتى يجد فيهم قاعدة لتصنيع بلده . وأنا أستطيع التأكيد بأن المسيحي سيجد كل حماية في مملكة الأمير . ولكن هذه الحماية لا يمكن ضمانها بمجرد مايحاول المرء عبور الحدود الى أراضي المغرب الأقصى .

ولما رأت الحكومة الفرنسية عزم الأمير عبد القادر على اقامة دعائم ملكه على الأسس التي تقوم عليها دولة جديثة وتصميمه على التجديد الذي سيجعل منه سلطانا قويا وغنيا في نفس الوقت ، عملتْ على نقض المعاهدة بجميع الوسائل حتى تفتح أبواب القطيعة والحرب .

ان المادة السابعة من المعاهدة تنص على التزام فرنسا بتزويده ، بجميع الأسلحة والذخيرة التي يحتاج اليها . ولكنه على الرغم من هذا النص ، فان وكيله في الجزائر

قد قيد بالحديد وأرسل سجينا الى فرنسا لقيامه بتزويد الأمير بالأسلحة والذخيرة التي كان من حقه أن يطلبها بموجب نصوص المعاهدة . والتهمة الأخرى التي عوقب من اجلها أيضا . هي : إرساله الى الأمير بعض الميكانيكيين . وهذا الاجراء هو الآخر مخالف للمادة العاشرة من المعاهدة . ولما شكا الأمير الى الحكومة الفرنسية هذه الإعتداءات المتكررة على المعاهدة ، كان ردها هو أن المريشال فالي ، الوالي العام ، يتمتع بالسلطة الكاملة للتصرف حسبما يراه صوابا .

وكذلك رأي الدوق أورليان أن يقوم بجولة من قسنطينة الى الجزائر بأقل التكاليف (1) ولكي يؤمن نفسه من جميع الأخطار ، عهد الى يهودي من سكان وهران اسمه بوردن بتقليد ختم الأمير الذي ختم به وثيقة سفر بقصد تقديمها لدى المرور على رأس جيشه بأراضي الأمير الى قايد المنطقة ليوهمه أن المرور عبر مضيق البيبان قد أذن به الأمير للجيش الفرنسي (2) .

وعلى الرغم من هذه الأعمال العدوانية ، فان السلطان كان لا يزال غير راغب في استئناف الحرب . وكذلك جمع حلفاءه في مؤتمر عام للتشاور معهم بشأن الخطة التي يسلكها أزاء الفرنسيين . ولكن أحد الخلفاء ، وهو ابن علال كان متغيبا عن هذا المؤتمر ، لاعتقاده أنه لا فائدة من الاجتماع والحديث بهذا الشأن . وبينما كان السلطان يجري مشاوراته ، قام ابن علال بهجوم على قافلة فرنسية للتموين كانت تسير بين مليانة والجزائر وفي هذه العملية قطعت مئتا رأس فرنسية .

(1) قام جيش فرنسي بقيادة المريشال فالي والدوق اورليان ، ابن الملك ، في 28 اكتوبر 1838 باجتياز مضيق البيبان في حركة استفزازية لاثبات مازعموا انه حق فرنسا في تأمين طريق للمواصلات بين الجزائر وقسنطينة . وهو أمر يتناقض مع نصوص معاهدة تافنا . والمضيق يسمح باجتياز سلسلة جبال البيبان التي تربط سور الغزلان بجبال البابور . ونظرا للصعوبات الهائلة التي ينطوي عليها المرور في هذا المضيق . فقد كان الأتراك الذين يسمونه Djemir Kapu يدورون حول هذه الجبال ويمرون بسوق حمزة . كما كان يفعل الرومان من قبل .

(2) واحتراما لهذه الوثيقة المزورة لم يتعرض رؤساء القبائل لجيش فالي وأورليان ، فلم يلق مقاومة تذكر في طريقه ، ولم ينهض أحمد بن سالم الا في يومي 31 اكتوبر و 1 نوفمبر .

من هو البادئ بالعدوان في هذه الحالة ؟

ان الحقائق تصرخ عاليا ، في هذا السياق . ان السير على رأس جيش في أراضي دولة حليفة ، يعتبر اعلانا للحرب . ولكن هذه المسيرة حينما تقع في ظروف تزيد من خطورتها مثل ابراز وثائق مزورة مزيفة، يكون العدوان فاضحا ، وبالتالي ، فان الحرب أمر لا مفر منه .

وفي رأيي أن الخليفة ابن علاّل كان على حق حين شرع في عمليات عسكرية نشيطة .

* * *

الفصل الثامن

جَرَتْ مناقشة واسعة النطاق يوم 8 يونيو بشأن ما اذا كان من الملائم استعادة معسكر . فان معظم الشخصيات الرسمية ترى أن من المفيد محاولة استرجاع المدينة . ولكن السلطان رفض الاستماع الى مثل هذه الحجج ، حيث أنها تتناقض مع الخطة الحربية التي اعتمدها . وقد عرضت على الأمير ، اذا قرر استعادة معسكر ، أن أتولى قيادة العمليات العسكرية ، وقلت له إنني لا أحتاج للقيام بهذه المهمة إلا الى قوة خِلاَفَة تلمسان النظامية ، بالاضافة الى قوات معسكر نفسها . وقد رَاهَنْتُ أمَامَه برأسي ضمانا لنجاح العملية .

وأما النقطة التي ينطلق منها الهجوم على المدينة ، فقد استكشفتها بعناية وتعرفت عليها مع المتطوعين من حرس الحاج مصطفى الخاص ، الذين تمكنوا من الدخول الى المدينة تحت جنح الليل ثم انسحبوا دون أن يثيروا الا تنباه .

والقوة التي كنت أعتمد عليها بصفة خاصة هي التي تتكون من الهاربين من الجنود الفرنسيين (ومعظم هؤلاء من الأسبان الذين كانوا يعملون في الفرقة الأجنبية) . فان أربعين جنديا منهم قد انضموا الى الأمير بأسلحتهم وعتادهم وتحت قيادة ضابطهم (برتبة رقيب) ، بعد ما قتلوا قائدهم الأعلى بالرصاص . .

وفي يوم 9 وصل السيد نيقولا مانوتشي ، شقيق صديقى نويل مانوتشي قاما عن طريق تنس . وقد حضر بناء على موافقة الحكومة الفرنسية ومعه شحنة من البضائع وسقهما في مرسيليا على متن سفينة تبلغ حمولتها 35 طن . وقد كانت باخرة حربية فرنسية هي التي جَرَّتْ هذه السفينة حتى رأس تنس (1) .

والهدف من زيارة السيد مانوتشي ، هو حمل الأمير على تقديم عروض للصلح الى الحكومة الفرنسية بقصد عقد معاهدة ملائمة له . وقد اشترط أن يستسلم الأمير « اسميا » ويلقي السلاح . وقال أنه مستعد لشراء ما لا يقل عن 30 ألف سلاح منه وأن يدفع لكل سلاح 6 دولارات . ولكن هذه العملية ، فيما قال ، لا تتعدى كونها مناورة حربية لارضاء الأمة الفرنسية بانقاذ « المجد الوطني » (*) . وعند ذلك ، ستُعِيدُ الحكومة الفرنسية الى السلطان جميع الأراضي التي أخذَتْ منه اثناء العمليات الحربية الأخيرة ؛ وبذلك ، فهو لا يخسر شيئا سوى ما يتصل بالسمعة .

على أن السلطان رفض ـ كما كنت أتوقع ـ الاستماع الى هذه الترهات ، وقَدْ رَدَّ على رسول الفرنسيين « بأن تسليم السلاح عمل مناقض لأحكام القرآن ومخالف لقواعد الشرف . وأضاف السلطان قائلا : « أية فائدة سيجنيها الفرنسيون من المدن التي يحتلونها ؟ انهم يحتلون مليانة والبليدة ومعسكر ، والمرجح أن يحتلوا تلمسان أيضا . فهل يقومون بحصد الزرع في الأراضي المجاورة لهذه المدن ؟ أليست حامياتهم مسجونة فيها ويضطرون الى تموينها من الموانئ عن طريق البحر ، ويخصصوا حراسة عسكرية

---

(1) تقع تنس على مسافة 104 كيلو متر على الشاطئ غربي شرشال وتنس مدينتان : القديمة ، وتقع على مسافة نحو 4 كيلومترات من البحر على منبسط صخرى يحيط به واد من الغرب . وعلى مسافة 2 كيلو متر منها تقع تنس الحديثة التي بناها البحريون من أهل الأندلس حسب ماذكره البكري سنة 262 هجرية ، وبعد ما كانت تنس قاعدة ولاية من ولايات الدولة الزيانية أصبحت إمارة مستقلة في القرن الخامس عشر ، قبل أن تسقط في يد البحري التركي ، خير الدين . في سنة 1520 م . وقد أحتل الفرنسيون تنس التي كانت تحت ادارة الاغا ميلود بن عراش في سنة 1843 .

(*) العلامة في الاصل .

كبيرة للقوافل التي تنقل التموين الى المدن الداخلية ؟ والخسائر التي يتكبدونها في الأرواح والأموال في هذه العمليات خسائر فادحة . ومن جانبي ، فان الحرب لا تكلفني الا قليلا . وفي نهاية الأمر ، فان الفرنسيين سيشعرون بالغبطة حين يغادرون أرضا تكلفهم أكثر مما يجنونه منها من الفوائد ! » .

وإزاء هذه الحجج القوية ، عجز السيد نيكولا مانوتشي عن تقديم أية حجة ذات وزن . ولذلك ، فقد بدا له من أن الأفضل ، في الوقت الحاضر ، أن يتظاهر بالاقتناع بأن الأمير على صواب .

ولكن السيد نيكولا مانوتشي كُلِّف من قبل الحكومة الفرنسية بمهمة أخرى سرية ، وهي أن يحمل خلفاء الأمير على الانفصال عنه ويعرض على كل خليفة أعتراف الفرنسيين باستقلاله في ولايته إذا خرج على الأمير . على أن الرجل لم يحاول قط القيام بهذه المهمة ، حيث كان مقتنعا بأن أول خليفة يعرض عليه هذه الفكرة ، سيطوِّح برأسه في الحال . فإن جميع خلفاء الأمير يدينون له بالولاء والطاعة بحيث لا يخطر ببالهم الاستماع لهذيان هذه الحجج الغادرة . وأنا كنت على علم بهذه المهمة ، وكذلك كان الأمير وابن علال ، ولكن الرجل مع ذلك ، قال إنه إنما تلقى تعليمات بأن يبحث ما يمكن القيام به في الظروف الحالية . وكذلك أكد السيد نيقولا مانوتشي بأغلظ الايمان أنه لا ينوي القيام بهذه المهمة وأن كل ما يريده هو تحقيق صلح يكون في مصلحة الأمير .

ونظرا لأني كنت مقتنعا في هذه المرحلة بأن صلحا مشرفا سيكون في مصلحة الأمير ، فقد عرضت عليه أن أتعاون بأفضل الطرق لتحقيق هذا الهدف .

وفي يوم 10 ، وصل ستة عشر اسيراً فرنسي الى تكدمت وكانوا قد أخذوا في ضواحي مليانة . والى جانب هؤلاء أخذ 14 أخرون في ضواحي معسكر ، وبذلك يبلغ مجموعهم 30 أسيرا . وهؤلاء قد وجهوا الى تافنا لينضموا الى الخمسة الذين أخذوا في يوم 25 من الشهر الماضي في تكدمت .

وفي يوم 15 ، أجريتُ مقابلة على انفراد مع صاحب السموّ الملكي ، وذلك قبيل موعد السفر الذي يعتزم القيام به ، والذي حدد لليوم التالي ، لأن الجيش الفرنسي كان قد غادر مستغانم قبل ذلك ببضعة أيام ، ولأن صاحب السموّ يلتزم بأن يرافق الفرنسيين دائما في مثل هذه المناسبة ليواجههم برجاله .

سافر السلطان برفقة حرسه الخاص يوم 16 من الشهر . وفي نفس اليوم ، اشترى السيد مانوتشي بقايا منزل في تكدمت ، وقد أمَرَ السلطان بأن توفّر الحكومة مواد البناء الضرورية لاعادة بنائه . وفي هذا اليوم أيضا ، وصلتنا أخبار بأن الجيش الفرنسي قد أحرق عددا من القرى الواقعة بين معسكر وتلمسان ، وذلك حتى يملؤا أعمدة الجريدة الرسمية بأعمال المجد والبطولة .

وفي يوم 17 من الشهر ، وصل الجيش الفرنسي الى معسكر أغا مدينة معسكر ، حيث تقع ديار قبيلة السلطان ، على أن العرب هربوا أمامهم بكل ما يملكونه من الحيوانات ، تاركين السهول كلها للفرنسيين الذين أخذوا في تحصين معسكر ووضعها في حالة دفاعية .

يوم 18 من الشهر ، قام هذا المساء على الساعة السابعة عدد من العرب ينتمون الى قبيلة هوارة القوية والتي يبلغ عدد أفرادها 15000 نسمة ، بمحاولة لسرقة خيمة الخزينة ولكن أكتشف أمرهم . وقد التزمت الزمالة الصمت بشأن هذا الحادث .

وعلى الساعة الثانية عشرة ليلا ، انطق عيار ناري من خيمة السلطان . وهذه الطلقة هي التي تعلن وصول رسول من الأمير . وقد استنتجت من دوي الطلقة أنها طلقة رصاص ، ولكنه نظرا لأن العرب لا يهتمون كثيرا بما اذا كانت الطلقة بالرصاص أم بالبارود فقط ، فإني لم أجدْ في الأمر ما يستحق اهتماماً خاصا . على أنني عند نهوضي ، وجدت أن عربيا صحراويا قد جرحه أحد عبيد الأمير السود بين فروع الأشجار التي تحيط بخيمة زوجة السلطان .

وفي الصباح قدِّم أمام مجلس خاص لمحاكمته . وقد تبين من أقواله ، أنه قصد أولا الى خيمتنا فلاحظ أننا متيقظون ، ولذلك اتجه الى خيمة الخزينة . ولما وجد الحرس فيها على أهبة الاستعداد ، تراجع ، هو وأربعة آخرون لينتظروا حتى منتصف الليل . وقد صرح الجاني بأن نيته لم تكن متجهة إلى السطو على خيمة السلطان ، بل على خيمة مجاورة لها . وقد أضاف بكل برود قائلا : « يَالِـــي من كَلْبٍ غير محظوظ ! فقد قمت أنا وزملائي عند إحراق تكدمت بنهب كلٍّ ماوقع في أيدينا . ولكنه يبدو الآن أن وقتي قد حان . لقد شاهدت الكلب الأسود (العبد) في الظلام وهو يلبس برنوسا أسود ، ولكنني ظننته حماراً ، ولاسيما وأنه كان يمشي على أربع ؛ فلم يساورني شك في أنه إنسان حتى سمعته يضغط على الزناد ووقعت على الأرض ! » . وقد حكمَ عليه بالشنق ولكن تنفيذ الحكم أوقف حتى يصادق عليه السلطان .

وفي يوم 20 من الشهر ، وصل مندوبان أرسلهما رئيس أساقفة الجزائر حاملين معهما هدايا عبارة عن ساعة وشمعدانان ، وقد كان الغرض من مقدمهما التباحث في مسألة الصلح . ولكنه نظرا لأن الأمير لم يكن يميل الى الصلح ، كما أشرت ، فقد عادا أدراجهما دون أن يتمكنا من تحقيق أي غرض . وقد وصلتنا الأخبار بأن قوات الخليفة البو حميدي فاجأت مركزا عسكرياً فرنسيا متقدما يوم 17 من الشهر ، فأنقضت عليه ثم عادت حاملة معها خمسة أسرى وعشر رؤوس فرنسية وفي يوم 18 ، عاد الفرنسيون الى معسكر ، وأخرجوا فرقا مسلحة لجمع العلف للحيوانات ، ولكن قوات الأمير هجمت عليهم . وبعدما تكبدوا خسائر معتبرة في الأرواح ـ رجعوا على أعقابهم ليتحصنوا بأسوار المدينة . وكذلك أخذ ستة من العرب الذين يعملون في جيش العدو أسرى وحكم عليهم بالإعدام جزاءا على خيانتهم . إن المناوشات تقع يوميا . وقد أتيح لقوات ابن علال منذ بضعة أيام أن تسجل انتصارا في احدى هذه المعارك الصغيرة . ان من الصعب معرفة الخسائر التي تكبِّدها العرب ، حيث انهم يخفونها بعناية ، وأما خسائر الفرنسيين في المعركتين

الأخيرتين فتقدر بنحو مائتي قتيل . وفي المعركة التي وقعت عند معسكر ، قام العرب بهجوم يمتاز بتصميم كبير ، بينما دافع الفرنسيون عن مواقعهم بكثير من الشجاعة .

وفي يوم 23 من الشهر ، نفذ حكم الاعدام في السارق الذي حاول السطو على خيمة زوجة السلطان في يوم 18 ، وقد جرى تنفيذ الحكم في ساحة عمومية في تكدمت ، أمام جمهور غفير من الناس . وقد قدمت قبيلته مبلغ الفي دولار لفديته ، ولكن بدون جدوى .

وبعدما قرأ الشهادتين ، لاحظ ببرود أنه من الصعب أن يموت الانسان موت كلب . وعندئذ سمح للجلاد بأن يضبط الحبل حول رقبته ثم رُفع على منصة يبلغ ارتفاعها نحو ثمانية أقدام . وبعد مضي حوالي ساعتين استخلصت جثة الرجل وأوقفت على رجليها بين لوحتين تستند إليها يداه وظلت كذلك بضعة أيام لبث الخوف في نفوس من يخطر ببالهم القيام بأعمال السرقة .

وفي يوم 24 من الشهر ، تم القبض على اللصوص الثلاثة الآخرين الذين تمكنوا من الهرب ، وكان ذلك أثناء غزوة وقعت على قريتهم وقد صودرت جميع قطعانهم وممتلكاتهم وأخذت الى الزمالة . قد يبدو للبعض أن مما لا يتفق وقواعد العدالة غزو قبيلة بأسرها ومعاقبتها بسبب جرم أرتكبه بعض أفرادها . وعندما قلت لسي الجيلالي أن هذا هو رأيي ، أجاب قائلا : إن القبيلة بأجمعها مذنبة ، لأن من واجب شيخها أن يعرف أشرارها ويعمل لاصلاح اعوجاجهم . ومتى كان العقاب الذي ينزله بهم غير كاف لردعهم ، كان عليه أن يقدمهم أمام الخليفة الذي تقع تحت سلطانه القبيلة والذي يتمتع بسلطة كافية لضمان النظام والأمن العام وأخذ الحق من المذنبين . وكون شيخ القبيلة قد فشل في مهمته ، أمر واضح للعيان وكون القبيلة مذنبة بإيوائها للمجرمين وبعدم تقديم معلومات عن أعمالهم الاجرامية ، هو أيضا أمرٌ واضح . وإذا لم نضرب مثالا في صرامة العقاب في الفترة الحرجة التي يمر بها بلدنا فإن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ الى أي مدى ستنتشر مثل هذه الأعمال الإجرامية .

إن حجج هذا الشيخ الجليل حججٌ قوية ، ما في ذلك من شك ، وان قوة منطقه وحكمته هي التي جعلته يتمتع بثقة الأمير التامة . وكون الأمير مضطرٌ للمحافظة على الأمن والأخلاق العامة من عدوان أفراد من القبائل الجبلية الذين يتدربون على السرقة منذ نعومة أظفارهم ، أمر لا يمكن أن يشك فيه كل من زار هذا القسم من افريقية .

كنت أستريح وقت القيلولة مع السيد نيكولا مانوتشي حينما سمعنا المحادثة التالية . بين امرأتين عربيتين . إنها ستعطي القارئ فكرة على العوائد السّبَرْطيّة المنتشرة في هذا الجزء من العالم .

المرأة الأولى ـ تقوم المرأة التي كُلِّفت بخدمة المسيحيين بغسل ثيابهم في النهر وقامت صبيحة ، ابنتها التي تبلغ الثامنة من العمر باختطاف قميصين ، ولكنها لم تحسن اخفاءهما بحيث أن « الكلب » (٭) عثر عليهما وأخذهما منها . وكذلك قامتْ بمحاولة ثانية فأخفَتْ زوجين من الجوارب في حائكها ، ولكن قطعة جورب كانت تتدلى إلى الخارج وبذلك اكتُشفَتْ سرقتها مرة ثانية . ولكن « الكلب » (٭) المسيحي أعطاها لكمة هذه المرة .

وقد علقت المرأة الأخرى على هذا الحادث قائلة : يالها من فتاة صغيرة مسكينة . ستكون أكثر مهارة عندما تتقدم بها السن ! ولكن عليك أن تضربيها بشدة أكثر كلما اكتشِفَتْ سرقة لها . وبذلك تصبح أكثر مهارة في حركتها ! .

فأجابتها أم الفتاة قائلة : «إنني أنوي أن أفعل ذلك !» . ولكنها انتقمت لنفسها وعوضت على غباوتها بأن عَضت عددا من أزرار قمصانهم بينما كانت تنشفها في الشمس ! وفيما يتعلق بقميصي أنا ، فقد وجدت أن جميع أزراره قد انتزعت منه . وهكذا ،

(٭) بالعربية في الأصل .

(٭) بالعربية في الأصل .

فإن البعض يرون ـ كما كان يرى المقدونيون ـ أن السرقة ليست هي الجريمة ، ولكن الجريمة هي أن يكون السارق من الغباوة بحيث يكتشف أمره ! .

وفي يوم 25 من الشهر الماضي ، عثر على اللصين الآخرين الذين حاولا السطو على خيمة السلطانة . ولكنه بعدما قبض عليهما وزج بهما في السجن ، تمكنا من الفرار من معتقلهما .

وقع نظري اليوم صدفة على السلطانة بينما كنتُ مستلقيا في ظل شجرة وكانت هي تمر قريبا مني في طريقها الى ضريح والدها (الذي كان من الصالحين) . إنها تبلغ حوالي خمسة أقدام وثلاث بوصات في الطول ، سوداء الشعر ومُرتفعة عظام الوجنتين نوعا ما (وهذه ميزة لكثير من النساء الجزائريات ، مثلما هي ميزة للسكوتلانديات) وعيونها زرقاوان كبيرتان ، وسيقانها مكتنزتان يعلوهما وشم جميل بالحروف الهيروغليفية يرتفع حتى منتصف الساق . لقد أنعمتْ علي بنظرة . هذا كل ما في الأمر ، وهذا أقصى ما يمكن أن يطمح اليه مسحي من امرأة عربية . وحتى لو أراد الزواج بمسلمة ، فانه يتحتم عليه أن يتخلى عن دينه ويعتنق الاسلام .

ومتى فوجئتَ وأنتَ تتحدثُ بلغة ناعمة الى سيدة من الطبقة الراقية ، فإن ذلك قد يكلفك رأسك . إذا كنتما أعزبَيْن ، قد تتفادى الحادث بالزواج بها بعدما تنطق بكلمة« أشهد ألا اله الا الله وأن محمد رسول الله » (*) . .

وبعد ذلك تمنح إسماً جديداً من الأسماء العربية . ومهما تكن الذنوب التي ارتكبها الانسان ، فإنها ستغفر له بعد اعتناق الدين الاسلامي .

أبلغني السيد جيلاني أن جيش السلطان قد غنم مائة وسبعين سلاحاً في غضون الشهرين الماضيين ، أخذت كلها من القتلى أو الجرحى .

(*) العلامات في الأصل .

وصل اليوم الى هنا أربعة من العرب مقيدين بالأغلال لأنهم أخذوا عجولا الى مستغانم وتاجروا فيها لتموين الفرنسيين . والشريعة الاسلامية تقضي بقطع اليد اليمنى والرجل اليمنى لكل شخص يقوم بتموين العدو أو تزويده بما يحتاج اليه في وقت الحرب . واذا تكرر منه هذا العمل ، تقطع يده اليسرى ورجله اليسرى . وفي المرة الثالثة تقطع رأس الجاني . ونظراً لأن هذه هي المرة الأولى التي قاما فيها بهذه العملية فقد حكم على كل واحد منهما بقطع يده اليمنى في السوق العمومية . وهذه العملية التي يقوم بها الجزار ، تؤدي عادة الى الوفاة حيث أن المذنب لا يتلقى عناية طبية . وهذا ما حدث للشخصين المذكورين اللذين ماتا بعد يوم أو يومين عقب العملية .

26 يونيو. وصلتنا أخبار بأن الجنرال الذي يقود حامية معسكر قد وضع خطة ، بعدما عرف أنه لا يوجد سوى نحو 800 جندي من المشاة في معسكره الذي يقع على مسافة نحو فرسخ من المدينة ، تقضي بأن يهجم على المعسكر فجأة ويقبض على الأمير . وقد قرر القيام بهذه العملية يوم 21 يونيو على الساعة الثانية صباحا .

ولكن الأمير الذي يحتفظ بالجواسيس في جميع المدن المحتلة أبلغ خبر هذه الخطة ، فقام بحركة على رأس جيشه تحت جنح الليل الى مكان يقع الى الوراء على مسافة ميلين .

وفي الوقت المحدّد للهجوم خرج الجيش الفرنسي القوي بنحو ألفي رجل وكانوا يسيرون في صمت تام . ولما وصلوا الى الحديقة التي كان معسكر الأمير مضروبا فيها ، أحاطوا به من جميع الجهات ومكثوا ينتظرون مطلع الفجر بكثير من القلق ليدخلوا في المعركة الحاسمة والقبض على شخص صاحب السمو الملكي ويحصلوا على الجائزة التي وُعِدَ بها من يقبض عليه حيا أو ميتا ، وهي مائة ألف فرنك . وليس من شك في أن كل جندي وضابط في هذه القوة كان يتوقع أن يكون الشخص المحظوظ الذي تقع في يده الجائزة ، ولربما بلغت به الأحلام الى حد التفكير في طرق انفاقها واستثمارها بفائدة . والشبان المتحمسون كانوا يرون خيال جوقة الشرف وهي تزين صدورهم

ويتوجهون في استعراضات عسكرية كبيرة الى قصر التويلرى ، والأصابع تشير اليهم من الجمهور والأصوات ترتفع : « أنظروا .. انظروا ، هذا هو الذي نزع الشوكة الهائلة التي سَلَخَتْ جانب الأمة العظيمة » (*) وذلك في الوقت الذي تلتهمه عيون حبيبته بالإعجاب قائلة : «أهذا أنت الذي هزم عبد القادر! إن هذا العمل يستحق قبلة مني ، أيها البطل العظيم !» (*) .

كان كل جندي وضابط قلقا في حماسه العارم ، وكان الوقت يمضي ببطء ثقيل على نفسه ، وعندما أخَذَتْ النجوم تسحب ضوءها اللامع الذي كان يحل محله ضوء النهار تدريجيا ، أخذ الجيش يضم صفوفه لكي يقفز كرجل واحد ويقتطف الثمرة العظيمة التي كان يتوقع وجودها في هذه الحديقة ، أو الفردوس الموعود .

ولكن الفردوس الموعود ، تحول ، مثل فردوس ميلتون المفقود ، الى أكوام من الرماد وخيبة الأمل .

وعلى أثر هذا الاكتشاف ، تعالت الأصوات من كل جانب معلنة مرارة الخيبة : « لقد نجا الأمير الشاب ! » .

ماذا بقي أمام الجيش الفرنسي سوى أن يجرَّ أذيال الخيبة ويعود الى معسكر . وفي الطريق ، استيقظ الفرنسيون من حلمهم الجميل على وقع طلقات البنادق العربية التي راحت تطارد مؤخرتهم في هجوم عنيف ...

27 يونيو . وصلتنا الليلة رسالة من الخليفة ابن علال موجهة الى سي الجلالي تقول بأن أحد جواسيسه قد أبلغه خبراً استقاه من مصدر مطلع جدا في مدينة الجزائر مؤداه أن الحلفاء قد طلبوا الى فرنسا اعادة الجزائر الى الباب العالي في ظرف أربعة أشهر . أما أنا فإنني لم أصدِّق هذا الخبر في ذلك الوقت ، ولكنني مع ذلك ، كنت أتصور

(*) هذه الجملة كتبت بالفرنسية في الأصل وبين الفواصل المعكوفة :

(*) الكلمة الفرنسية في الأصل

أن الباب العالي ربما طلب الى الدول الخمس التي تضمن معاهدة القسطنطينية والتدخل في الموضوع ، حيث أن وحدة الأراضي العثمانية تشمل الجزائر ، مثلما تشمل سورية . واحتلال فرنسا جميع الأراضي الجزائرية سيفتح لها سوقا عظيما للتصدير والاستيراد تبلغ قيمتها ، في تقديري مالايقل عن سبعة ملايين جنيه استرليني .

إن التجارة الرئيسية مع تمبكتو والصحراء التي تحتوي على عدد مهم من المدن الكبيرة ، تجرى عبر تلمسان في طريقها الى فاس ، التي ينقل منها التجار البضائع الانجليزية ، في الوقت الحاضر الى هذه المناطق . ولكنه متى احتلت القوات الفرنسية خط تافنا ، فإن الطلب على المنتجات البريطانية سيكون قليلا ، وذلك حتى لو قام المغرب الأقصى بتخفيض التعرفة الجمركية عليها عند الحدود . فإن التجار المحليين سوف يعملون على الاستعاضة عن المنتجات البريطانية بالمنتجات الفرنسية التي تكون أرخص سعراً من منتجاتنا . وذلك لأن جميع المنتجات الأروبية تخضع لرسوم جمركية بنسبة 10 ٪ عند نزولها في الموانيء المغربية ؛ مضافاً اليها نسبة 10 ٪ ضريبة على مرور هذه البضائع ، الى الداخل قبل أن يسمح بنقلها الى أي مكان من فاس . وبذلك تبلغ مجموع الرسوم الجمركية التي تؤخذ على المنتجات قبل أن تصل الى أراضي الأمير عبد القادر 20 ٪ .

وبالاضافة الى ذلك ، فإن الفرنسيين سيقومون باغراق أسواق المغرب الأقصى بمنتجاتهم عبر تافنا ، تلك المنتجات التي ستلقى رواجاً مؤكداً حيث أنها لا تكون خاضعة للرسوم الجمركية التي تستخلص لدى إنزال البضائع في موانيء ولايات السلطان عبد الرحمن .

والحقيقة أن فرنسا ستستحوذ - متى احتلت الأراضي الجزائرية - على جميع التبادل التجاري مع هذه المنطقة ، قبل أن تتوسع لتغرق فاس نفسها .

والمعروف أن فرنسا عندما قامت بغزو الجزائر ، قد أعطت كلمتها بأن تعرض مسألة الجزائر على مؤتمر للخلفاء . ومثل هذا المؤتمر لم يطالب أحد بعقده حتى الآن .

ومن جهة أخرى ، فإذا قرر الخلفاء إعادة الأراضي الجزائرية فيما عدا الموانىء البحرية - الى السلطنة العثمانية ، فإن هذا القرار سيكون غير عملي ، إذا لم يرض الأمير عبد القادر بالخضوع للسلطان العثماني . وهذا الحلّ ربما قبله الأمير عبد القادر لو مُنِحَ لقب الباشا على غرار محمد علي ، والي مصر .

غادرتْ قوات فرنسية معسكر منذ بضعة أيام في طريقها الى مستغانم . وفي غضون هذه المسيرة وقعت عدة معارك صغيرة بينهم وبين العرب الذين أخذوا أربعة أسرى .

وقد قام الحاج مصطفى بهجوم على أسوار مستغانم أثناء وجود القوات الفرنسية في معسكر ، فاستولى على 13 أسيرا . والجدير بالذكر أن عدد الأسرى الذين يحتفظ بهم الأمير عبد القادر في تازا وحدها حتى يوم 28 يونيو يبلغ 105 أخذوا كلهم منذ شهر مايو .

إن الأمير يسير على طريقة لا يعتريها تغيير . فمتى خرجت القوات الفرنسية من إحدى المدن التي تحتلها لتغزو أراضي قبيلة مجاورة ، ومتى خضعت تلك القبيلة لهم لكي تتجنب تخريب الفرنسيين الذين يتركونها بدون حماية ، فإن الأمير ينقض عليها . وبذلك تتعرض للخراب الذي تجنبته من الفرنسيين على يد قوات الأمير ، جزاء لها على خيانتها .

والقارئ قد لا يعرف ما يسميه الفرنسيون « الغزوة » (*) . ولذلك فسأخبره بأن هذه الكلمة تعني حملة عسكرية على قبيلة معينة مدفوعة بتلك الروح « المسيحية السامية » (*) لتقتل جميع الذكور وتدمّر كل ما يمكنْ نقله ثم تعود بالنساء والأطفال أسرى . ولضمان مثل هذه العملية ، يجري تخطيطها وتنفيذها بأقصى ما يمكن من السرية وتتخذ الاجراءات الصارمة للاحاطة بالقبيلة المنوي تدميرها بقوات كبيرة بحيث يكون الهرب مستحيلا لأي مخلوق . والسكان الآمنون لا يدركون الخطر المحدق بهم الا

(*) : Razia

(*) العلامات في الأصل

عندما يسمعون قرع الطبول التي تضرب نغمة مؤذية للسمع . وبعد ذلك تقع المفاجأة التي لا نجد لها مثيلا الا فيما نعرفه من قصص إبادة الهنود الحمر .

في الخامس من يوليو ، وصل هارب من الجيش الفرنسي المرابط في مستغانم وحمل الينا خبرا مؤداه أن جيش الإحتلال يعتزم الخروج ليتجه الى المنطقة التي تقيم فيها قبيلة السلطان ، وقال ان إشاعة رائجة تقول انهم يعتزمون بناء قلعة أوحصنا في هذه الارض .

وهذه المنطقة عزيزة على نفس السلطان حيث أنها مسقط رأسه ومرقد أبيه وأجداده منذ عدة أجيال . وكذلك ينظر اليها جميع العرب بعين الاحترام ، بل والتقديس، بسبب العدد الكبير من الاولياء والصالحين الذين توجد أضرحتهم فيها . والذين سبق لي أن ذكرت أضرحتهم من الرجال الذين ينتمون الى أسرة السلطان ، يعتبرون في مقدمة الاولياء والصالحين .

دُعِيَ خلفاء تلمسان ومعسكر وتكدمت الى أن يعقد كل واحد منهم اجتماعا برجال القوات غير النظامية في ولايته .

وصل هارب فرنسي يستخدمه المهندس دوكّاس يحمل رسائل منه تفيد بأن كميات كبيرة من معدن الرصاص موجودة في الجبال التي تمتد في جنوب شرقي تازا . ويضيف هذا الخبير أن نسبة الفضة في الخامات التي أنكشفت في بعض المناطق تبلغ الخمس . وقد أحضر لي هذا الرجل حجراً جميلا ثمينا أخذه من محجر يقع غير بعيد من تازا . وأنا مقتنع بأن هذا الحجر الجميل يستحق الاستخراج والاستغلال التجاري .

وقالت الرسالة أيضا أنه يوجد معدن النحاس في مكان يقع على طريق الى مليانة ، يمكن إستغلاله بسهولة . وأنا أعرف أن السلطان حريص أشد الحرص على استغلال الثروة المنجمية التي يحتوي عليها تراب بلده . ولكنه ، للاسف ، لايمكن القيام بأي عمل لتحقيق هذا الهدف الخطير الشأن ، مادامت الحرب مستمرة .

وفي يوم 8 يوليو، وصلتنا أخبار تقول بأن جيشا فرنسيا غادر مستغانم يوم 3، ووصل الى معسكر يوم 5 من الشهر. ونظرا لان هذه القوة لم يكن عدد أفرادها يزيد عن 15,00 جندي وضابط فقد قرر الأمير شن هجوم عليها في طريق عودتها. وكذلك قرر الامير القيام بزيارتنا في الزمالة بمجرذ مايدفع بجنود العدو وراء أسوار مستغانم.

وبينما كانت القوة المذكورة تتجه الى معسكر، كان جيش آخر يتكون من 15,00 جندي وضابط يتجه الى وادي شلف (1) وهذه القوة واجهها ابن عراش في هجوم شنه عليها يوم 6 من الشهر. وبعدما تكبد خسائر معتبرة في الأرواح، عادت القوات الفرنسية أدراجها الى مستغانم يوم 9 من الشهر.

خرجت القوات الفرنسية المرابطة في معسكر في جولة لجمع العلف، ولكن الحاج مصطفى كان لها بالمرصاد. وفي نهاية الاشتباك، أستولى على 16 أسيراً، غير أن 14 منهم حزّ العرب رؤوسهم متحدّين أوامر من الأمير بالمحافظة على حياة الاسرى. وهذا العمل عُزي الى القوات غير النظامية في ولاية معسكر الذين تعرضوا لغزوات الجيش الفرنسي الذي دمر محصولهم من القمح في الوقت الذي كانوا يستعدون فيه للحصاد. ولكن الملاحظ أنه اذا كان القصد من أعمال الجيش الفرنسي الوحشية هو إجاعة العرب، فهي حقا تدل على الحمق والطيش، لان العرب يملكون كميات كبيرة من الحبوب في مطاميرهم تكفيهم لعدة سنوات. والعرب يخزنون كل حبوبهم في مطامير بدلا من مستودعات الحبوب. وهم يحفرون ما يتراوح بين أربعين وخمسين مطمورا للقبيلة يتسع كل منها لحوالي ألف

---

(1) أهم أنهار الجزائر. هو نهر شلف الذي يتكون من فرعين يبلغ طول أحدهما 270 كيلومتر وينزل من جبل عمور ويحمل على التوالي أسماء وادي سبقج ووادي البيضاء. ووادي تاجوين. ووادي بتين. والفرع الثاني يبلغ طوله 170 كيلومتر ويسمى نهر الوصل وهو يهبط من جبال تيارت. وبعدما يتجه الى الشمال الشرقي، يتحول الشلف فجأة في الاتجاه الغربي ويجتاز السهول التي تمتد بين الظهرة وجبال الونشريس ثم يعود الى الاتجاه الشمالي بعد غليزان، وينصب في البحر الابيض على مسافة 12 كيلومتر في الشمال الشرقي من مستغانم. ويبلغ طول مجرى النهر من جبل عمور حتى البحر الابيض 700 كيلومتر:

بوشل (1) والمكان الذي يختاره العرب لحفر مطمور يكون مكانا جافا رملي التربة ، ويتخذ شكل آنية ضخمة من الفخار . والمطمور تملط حيطانه بكثافة نحو قدم ثم يعبأ بالقمح حتى الفم الذي يكون من السعة بحيث يكفي لدخول الرجل ، وهو يقع على حوالي ثلاثة أقدام تحت سطح الأرض . وهذا الفم يملط بدوره ثم يغطى بالتراب حتى يكون المطمور على مستوى الأرض المحيطة به .

وأما الارض التي تستخرج من حفر المطمور ، فتنقل بعيدا عن موقعه وتوزع في الحقول ، بحيث لا يكاد يمضي شهر أو شهران حتى ينمو العشب على فم المطمور ويختفي كل أثر له ولا يعرف أحد شيئا عن هذا الكنز الثمين .

والحبوب المدفونة بهذه الصورة تحتفظ بسلامتها عدة سنوات . ولقد أتيح لي أن أتناول خبزا في الزمالة عجن من قمح يبلغ عمره عمر السلطان ، حيث أنه أودع المطمور في السنة التي ولد فيها . وإني أشهد أن طعم هذا الخبز لا يختلف جودة عن الخبز المعمول من قمح محصود هذه السنة .

* * *

(1) البوشل = كيل كان يستعمل قبل ظهور النظام المتري ، وهو عبارة عن 8 جالونات .

الفصل التاسع

في يوم 14 يوليو ، تلقينا أخيراً خبرا بأن مائة برميل من الذخيرة أرسلت الى السيد مانوتشي عبر فاس لحساب السلطان عبد القادر قد وصلت الى تكدمت . وقد أرسل السيد صمويل ابنصبور لاستلام هذه الكمية .

وقد رافقه ، أو بعبارة أدق ، حمِلَ معه كنديدو المسكين لكي يبحثوا له عن طبيب في تلمسان يمكنه أن يقطع يديه اللتين أصيبتا بتجمد منذ اليوم الذي دخلنا فيه الى تلمسان . وبسبب عدم وجود عناية طبية ، كانت يداه تتساقطان شريحة شريحة . وكذلك أصيبت رجله اليمنى بنفس الآفة وأخذت تتفتت ، حتى قمت بقطعها له بنفسي منذ وقت . وقد ركبت جوادي وسرت مسافة طويلة حتى بلغت تكدمت لكي أطمئن على سلامة رحلته ، ثم وضعته أمانة في عنق السيد ابنصور . وعلى الرغم من أن كنديدو كان خادما للسيد مانوتشي ، فإني أخذته تحت رعايتي ، حيث أن لي نوعا من الخبرة الطبية ، اذا كانت متواضعة ، فهي على كل حال أفضل من خبرة السيد مانوتشي .

ولما ودّعته ، سدَّد المسكين اليّ نظرة قويّة التعبير فهمت منها أنّه يعتقد أن هذه هي المرّة الأخيرة الّتي نلتقي فيها على هذا الجانب من الأبديّة . ولكنّه لما وجّه اليّ كلمة الوداع ، أعرب عن أمله في أن نلتقي في عالم آخر ، ثم تساقطت من عيني

هذا الشاب المعترف بالجميل دموع غزيرة . وقد مددت له يدي لأصافحه ناسيا الحالة التعيسة التي توجد فيها يداه ، ولكنني أسرعت فحوّلتها لألمس خدّه ثمّ ودّعته مرّة أخرى وسارعت لامتطاء جوادي واتجهت الى الزمالة والأفكار والتأمّلات تغمرني طول الطريق عن سخافة الوجود والحياة البشرية . أهذا هو الشّاب الأسود المرح والذكيّ والذي طالما خففت دعابته ونكته من وطأة ساعات الحراسة في اللّيل في تيـطـــوان ؟

يا لها من حالة بائسة تلك التي يجد فيها الإنسان نفسه بدون يدين وبرجل واحدة . أن حياته ، إن أمكن انقاذها ، ستكون بدون متعة ، بل وسيفتقد حتى ما يخفف عنه العذاب ، مابقى في هذه الدّنيا . أن هذه الصورة المحزنة قد ظلّت تضغط على نفسي عدّة أيام بعد رحيل كنديدو . وكلّما مررت بالشّجرة التي كنت أشرف على نقله ليمدد تحت ظلها كلّ يوم لكي يستنشق الهواء ، كنت أتخيّل الشّاب المسكين يرحّب بمقدمي بابتسامة ويجيب عن سؤالي بأنّه لا يحتاج الى شيء .

وعندما ودّعته رجاني رجاءًا حارا أن أحمل إليه قطعة من خشب هذه الشّجرة متى سافرت الى تلمسان ، حتى ينقش عليها صورة العذراء ويعلّقها حول رقبته . وكذلك قطع على نفسه عهدا بأن يصنع رجلا من الشمع يصبغها بالأسود ويحيط أطرافها بهالة بيضاء رمزا للثلج ويكرّسها للعذراء مريم تذكَارًا لِبُرْءِ رجله الأخرى الذي قال أنّه إنما تم بمعجزة رعاية العذراء التي بَدَتْ له في أحد أحلامه . ولطالما حاولت اقناعه بأن الكلام عن المعجزات هذيان لا طائل تحته ، ولكنّه كان يقول لي إنني رجل عسكري لا يؤاخذ على هذه الأقوال ، أمّا هوَ ، فقد ظلّ على اعتقاده بأنّه لولا تدخّل العذراء لماتت رجلــــه .

وفي يوم 17 من الشهر ، بلغتنا أخبار بأن الجيش الفرنسي قد قام بمحاولة أخرى لمغادرة معسكر ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، مثل المحاولة الأولى ، تحت ضغط الأسلحة العربية ، الأمر الذي أضطر معه الى العودة أدراجه ليعتصم بأسوار المدينة . وفي هذه المناسبة وقعت معركة حامية بين الفرنسيين والجيش العربي بقيادة

الأمير شخصيا . وهكذا ، فقد أصبح الجيش الفرنسي سجينا في معسكر تحيط به قوة من المقاتلين العرب غير النظاميين ، وجيش ولاية معسكر النظامي ، تبلغ 15 ألف مقاتل .

وفي يوم 19 من الشهر ، أخذ يهوديان من وهران وطباخ الجيش الفرنسي أسرى . وقد وجههم الخليفة البوحميدي الى تلمسان ووضعوا في المشور مع بقية الأسرى الفرنسيين . على أن اليهوديين أخرجا وقدما للبيع . وقد عرض بعض العرب مبلغ 230 دولار سعرا لممالكي يحزوا رأسيهما ، ولكن إخوانهم من يهود تلمسان قدموا مبلغ 240 دولار في مقابلهما ، وبذلك أنقذوا رأسيهما من الخنجر المسلول ، على الأقل ، مؤقتا !

وقد ذكر اليهوديان أنهما علما أن العلاقات بين فرنسا والباب العالي على وشك الانقطاع ، وأن إشاعات كثيرة رائجة بهذا الشأن .

يبدوا أن الامة الفرنسية في مجموعها راغبة في قيام حالة حرب أروبية ، وذلك لأن كرامتها قد جرحت كثيرا بسبب الدور الضئيل الذي لعبته في تسوية مسألة الشرق . على أن الملك يميل الى السلم ، لعلمه بأن حزبا جمهوريا قويا موجود في بلده وأنه اذا تلقى مساعدة مائتين أو ثلاثمائة ألف اسباني ، فسيقوم بمحاولة لقلب نظام الحكم ويضع نظاما جديدا يرجح ألا يكون الملك على رأسه . ولو أندلعت نيران الحرب لقامت اسبانيا التي هي حليفة انجلترا ، بإدخال جيش كبير الى فرنسا ليثأر لاسبانيا مما عانته من التدخل من هذا البلد في السر والعلن ، لسحق قوات الحرية التي ظهر فجرها لاول مرة أثناء الحرب الاسبانية ، والتي يؤمل أن تنمو وتقوى مع مرور الايام ، خصوصا بفضل بيان 1840 .

ومصالح فرنسا قد قضى عليها لدى الرأي العام من الاحرار ، خصوصا ، بسبب تدخل الجيش الفرنسي لقمع أنصار الدستور في سنة 1823 ، بقيادة الدوق أنجوليم (1) .

---

(1) الدوق انجويم البوربوني . ولد في فرساي (1775 ـ 1844) ، هو الابن الاكبر لشارل العاشر وولي عهده . وقد تولى قيادة الحملة العسكرية الفرنسية التي تدخلت في أسبانيا في سنة 1823 وأعادت الملكية المطلقة ، بعدما كان فرديناند السابع قد أرغم على اعلان الملكية الدستورية وحلف يمين الولاء لها في سنة 1820.

والامة الاسبانية قد استحقت هذا الدستور خصوصا ، بفضل نضالها المجيد من أجل الحرية والاستقلال ، بقيادة بطل وترلو والشجاع «ميما» وغيرهما. وفي سنة 1814 ، اعيد فرديناند السابع المشئوم الى الحكم ووضع اسبانيا تحت نظام إستبدادي ، وألغي العمل بالدستور المتحرر الذي كانت تتمتع به اسبانيا .

ولكن بذور الحرية كانت منتشرة في كل مكان ، ولذلك فقد عجزت حتى السياسة الميكيافيلية التي انتهجها هذا الغشوم المستبد عن اقتلاعها . ومرة أخرى، رفع علم الحرية رجال من أمثال ريجو (1) وطوريخو. وقد كانت دماؤهم التي أراقوها من أجل قضية حرية بلدهم المقدسة ، وسيلة أخرى لانعاش بذور الحرية . وستكون ذكرى مقتلهم نفحات لتذكي شرارة الحرية التي هي دائما على استعداد لان تصبح ناراً مقدسة .

وأما دستور 1868 ، الذي أنتزعه الشعب الاسباني من الملكة ماريا كريستينا فقد كان من المعلوم لدى الخاص والعام أن الظروف هي التي فرضته عليها . والجيش كان يشعر منذ سنة 1837 ، نتيجة لعدم إحترام الحكومة لذلك الدستور الذي أقسمت على أن تدافع عنه ، بأنه عندما تنتهي الحرب مع حزب الدون كارلوس ، سيتحتم عليه الدخول في نزاع مع الملكة كريستينا ، وإرغامها ، إما على مساندة نظام الحكم الدستوري أو نفيها هي وأنصارها من الفرنسيين الذين وقعت تحت ضغطهم ولا تمارس الحكم إلاّ اسميا .

والذين خدموا في جيش نفارو يعرفون جيدا أن سياسة لويس فليب السرية تستهدف إقامة حكومة ديكتاتورية في اسبانيا لتكون وسيلة لتدعيم ديكتاتوريته هو على فرنسا . وعلى الرغم من أنه لم يكن في استطاعته مساعدة الدون كارلوس علانية، فانه

(2) ولد الجنرال رفائيل ريجو (Rigo) في سانتا ماريا دوطونة في سنة 1785. وقد قام بنضال وطني مجيد من أجل قضية الحرية وأعدم بناء على أوامر فرديناند السابع في سنة 1823 . والقصيدة التي قيلت في تمجيد بطولته ستصبح النشيد الوطني الرسمي حينما أعلنت الجمهورية الاسبانية في سنة 1831 .

أخيرا مع ذلك ، الى تقديم المساعدة المادية لدون كرلوس . فإن المدافع الستة التي غُنمَتْ في بَانَاسِرْدة ، لم تكن من صنع فرنسا فقط ، بل ان الجياد التي كانت تجرها وأجهزتها كانت فرنسية أيضا ، وكانت قد أجتازت الحدود منذ بضعة أيام قبل أن يستولي عليها القائد الشجاع اسبارتيرو (1) الذي يشغل الآن عن جدارة واستحقاق ذلك المنصب الذي اختارته لشغله أصوات الناخبين الاسبان .

ولما وجد لويس فليب أن صديقه الدون كارلوس الذي لطخ أرض اسبانيا بدماء ثورته (بلغ عدد القتلى من الطرفين 600,000 قتيل حتى نوفمبر سنة 1840) قد طرد من البلد ، حاول استمالة حكومة كلو يونارد واريزولا المكروهة اليه . وبناء على نصيحة الفرنسيين أعتمدت هذه الحكومة قانونا يضع جميع السلطات في يد التاج . وكما ذكرت ، فإن الجيش كان يتوقع هذه الازمة منذ وقت . ولمادعت قيادة الحرس الوطني في مدريد الى الوقوف في طريق تنفيذ هذا القانون ، أنضمت اليها جميع فيالق الجيش التي أختارت لواء الحرية . وعبثا حاولت الملكة كريستينا الوصول الى ترتيبات جديدة . فان الشعب يعرفها جيدا حتى لا يضع فيها ثقته . وتبعا لذلك ، فقد أضطرت الى مغادرة البلد والالتجاء الى صديقها ومستشارها ، لويس فليب ، الذي يحاول الآن إقناع الدون كارلوس بالموافقة على زواج ابنه بايزابلا ، وذلك من أجل اشعال نار الحرب الاهلية من جديد في اسبانيا . وهذا المشروع هو الآخر فشل فيه ، ولكن لويس فليب مصمم على إشعال نار الفتنة في اسبانيا بجميع الوسائل . ومرة أخرى ، فإن كريستينا التي تجد نفسها على استعداد للقيام بأي عمل من أجل استعادة العرش ، تقوم الان بنشر ادعاءاتها ، كما تجري الاستعدادات لقيامها بمحاولة لهذه الغاية في شهر مايو القادم .

لقد أثبتت أسبانيا في وجه العالم أجمع أنها مصممة وقادرة على المحافظة على استقلالها . وهذه المناورات الجديدة التي تحبك ضد حريتها قد تصاب بنفس

(1) الجنرال اسبارتيرو (Espartero) سياسي محنك وقائد مظفر في ثورة الدون كارلوس . تولى الوصاية على عرش اسبانيا خلال الفترة بين 1841-1843 .

الفشل الذي منيت به المناورات القديمة . هذه على الأقل ، هي الامنية المخلصة التي يعبر عنها معجب متحمس لشجاعة أمة لم تبق خلف بقية الدول الأروبية الا بسبب قبضة الحكم الحديدية والاستبداد وتعصب الكنيسة الاعمى التي منعت استعمال أي كتاب الا اذا مرَّ برقابتها المتفحصة . فإن الكنيسة تعتبر الكتابة هرطقة خطيرة . والتعليم لم يتح حظ منه إلاّ للجيل الجديد . وفي هذا السياق أود أن أسجّل تطلع الجيل الجديد لكسب العلم والمعلومات التي حرم منها آباؤه . وكذلك نرى المدارس تبنى الآن في كلّ مكان والأكاديميّات تفتح للموسيقى والرّقص هنا وهناك، حتى في المدن الصّغيرة .

في 18 من الشهر ، عاد السفير الذي وجّهه الأمير عبد القادر الى فاس حاملا معه خمسين فرسا وخمسمائة بندقية وطنين ونصف من البارود هدية من السّلطان عبد الرحمن ، سلطان المغرب ، في مقابل الجياد التي بعث بها إليه الأمير ، كما ذكرت سابقا .

ذكرت من قبل أنّ الأسود كثيرة جدا في المناطق المحاورة لتكدمت . وقد ظهر أحدها في اللّيلة الماضية على مسافة 13 أو 14 ياردة من منزل السّيد مانوتشي ، الذي لم تكن قد رُكِّبت عليه بعد الأبواب وأبواب النوافذ ، بسبب الصّعوبات الّتي تواجهها السّلطات في الحصول على الخشب . وقد كان الحاج محمّد واليهودي الّذي يعمل مترجمًا لي يقومان بالحراسة عندما شاهدا الحيوان أمام المنزل . وكان اليهودي هو الّذي شاهده أوّلا ، ولفّت نظر الحاج محمّد اليه .

وقد سارع اليهودي الى الإنسحاب في وجه الأسد وخبّأ نفسه وراء أكياس السكّر . وكأنما رأى أنّ مخبأه غير مأمون بالكفاية ، فراح يعمل للفّ نفسه في غطاء سميك . وأمّا الحاج الذي كان لديه من الجرأة والشّجاعة ما يسمح له بمواجهة الشّيطان لو جاء اليه بنفسه ، فقد أخذ بندقيّته ووضع فيها رصاصة وسدّدها الى الحيوان الذي انقلب على ظهره على الفور .

لقد قيل إن شوارب محمّد علي باشا تقف متّجهة الى أعلى حينما يقع نهباً للعواطف . ذلك على الأقل ما يؤكّده اللّورد بايرون . أمّا أنا فقد كنْتُ غير مقتنع بصحَّة هذا القول . أمَّا الآن ، وبعدما شاهدت شوارب الحاج محمّد وهو يقف مثل الهرّة المتنمرة وعيناه تشبهان كرتين من النَّار ، فإني أستطيع أن أعترف بإمكان صحَّة الحركة التي تُعْزَى الى شوارب محمّد علي !

في يوم 24 من الشهر ، تحركت الزمالة لتضرب مخيما لها في مكان يبعد عن لكدمت بنحو نصف ميل ، عند جدول رقراق ينحدر من الجبال المجاورة .

والغرض من هذه الحركة ، هو نصب الخيام بحيث تكون متقاربة أكثر من ذي قبل ، فإن السّلطان قد قلق لزيارات الأسود المتكرّرة للزمالة مؤخّراً . فقد حدث منذ بضعة أيّام أن ظهر أحد هذه الحيوانات في حوش ، ولما تراجع اصطحب معه خروفاً .

وفي اللَّيلة الماضية ، اكتَشَفَتْ الأسُود مَقَرَّنَا الجديد ، وقد زارنا أحدها واستولى على عِجْلَة يبلغ وزنها نحو مائة كيل وجرّها حتى مسافة مائة ياردة من الزمالة . كان الوقت وقت الفجر ، عندما شاهده أربعة من الحرس العرب الَّذين امتطوا ظهور جيادهم وساروا في إثره ، على أنّ طلقات بنادقهم أخطأته . وهذا الضجيج ودوي الطّلقات النّارية جعلت الحيوان يغلي من الغضب ، وقد ترك البقرة وشأنها وحمل على الفرسان الَّذين لم يجدوا أمامهم الوقت لإعادة حشو بنادقهم . ولذلك فقد هربوا أمامه وعادوا الى خيامهم التي كانت في حوشها شاة راقدة . ولمّا لمْ يتمكّن الأسد من نيل مأربه من الفرسان ، التقط الشّاة كما يلتقط فارًا بمخلبه وسار بها في اتجاه الجبال المجاورة ، وهو يضرب جوانبه بذيله الضّخم بينما كانت عيناه تلمعان مثل كوكبين عظيمين .

وفي يوم 26 من الشهر ، تلقّينا رسالة من الأمير يخبرنا فيها أنّ الجيش الفرنسي قد غادر معسكر سالكا طريقا غير الطّريق التي وضع عندها قوّاته الرّئيسية للهجوم عليه ،

ولكنّه وقد تلقّى في الوقت الملائم أخبارا بهذا التغيير في الاتجاه ، قام بنفسه بمطاردته على رأس جيش معسكر والقوّات التي كانت تحت أوامره شخصيّا ، وحمله على الدّخول في معركة يوم 22 من الشهر. وقد صرّح الأمير بأنّ الخسائر التي تكبّدها العدو بلغت 120 قتيلا . وأما الخسائر التي تحملها جيشه في هذه المعركة وفي المعركتين السّابقتين لها ، فقد قدّرها بحوالي 600 رجل . وكذلك نرى أن خسائر الفرنسيين لا تبلغ نصف الخسائر العربية . وهذا التفاوت مرجعه ، خصوصا ، الى النقص الذي يشكو منه الأمير في ضبّاط المدفعية ، حيث أنّه توجد لديه عدد كبير من القطع ولكنّه لا يوجد من يتمتع بالكفاءة في استعمالها . وأمّا الأشخاص الذين يلقّبون بضباط المدفعية هنا ، وهم من الأتراك الذين كانوا يعملون سابقا في مدينة الجزائر ، فإنّ معلوماتهم عن المدافع لا تزيد عن معلومات المدافع عنهم !

وفي يوم 27 من الشهر ، أرسل مائة جمل ومائتا بغل تابعة للزمالة لنقل خزائن الحكومة وكنوزها الى الصحراء . أمّا المكان الذي نُقِلَتْ اليه ، فإنّه لا يعرفه سوى الأشخاص الذين يقومون بهذه العملية وقد احتفظ بالسرّية التّامة بشأنه .

وفي 29 من الشهر ، أبلغني سي الجيلالي ، أن الأمير قد قرّر ، بناءً على نصيحة ابن علاّل والبوحمدّي والحاج مصطفى ، أن يرفض جميع المقترحات التي يتقدّم بها الفرنسيون لعقد الصّلح إذا صيغت في عبارات مماثلة لتلك التي صيغت بها المقترحات التي يحمّلها السيّد نيكولا مانوتشي . وقد كرّر القول من جديد ، بأن هذه المقترحات مناقضة لتعاليم دينه ولشرفه بوصفه أميرا وأنها سوف تجلب له احتقار رعاياه وتفقده ما يتمتّع به من التقدير في عين السلطان عبد الرحمن الذي سيجد في نهاية الأمر ملجأ له ولأنصاره في أراضيه ، إذا ساءت الأمور ، ويمكنه أن ينطلق منه في غارات لا تُبْقِي ولا تَذَرعلى العدوّ، حتى النصر النهائي .

لقد صرّحتُ أكثر من مرّة في هذا الكتاب بأنّي معجب بشخصيَّة السّلطان . وبعد نظر هذا الشّاب المحارب قد أكّد اعجابي به وتقديري له . ورأيي الذي يتّفق

دائما وبدون استثناء مع رأي السّلطان ، هو أن عبد القادر سيصبح ، طال الزمن أم قصر ، سيّد جميع الأراضي الجزائريّة وملكها ، بما في ذلك مدينة الجزائر نفسها . إنّ هذه حقيقة لا يخامرني أدنى شك فيها ، ولكنّ السؤال الذي يتردّد في ذهني ، هو ما إذا كان سيقنع بالجزائر ملكا له . فإنّ الصّحراء تفتح له مجالات واسعة . . . وأنا شخصيّا آمل في أن أتمكّن من القيام برحلة استكشاف مجاهل الصَّحراء تحت حماية علـــم السّلطـــان .

في يوم 28 من الشهر ، غادرت والدة السلطان الزمالة لتقوم بزيارة لابنتها ، زوج الحاج مصطفى .

وفي ليلة 30 من الشهر ، أيقضني من نومي نباح الكلاب المزعج. ولما تطلّعت الى الخارج من خيمتي شاهدتُ أسداً ضخماً يغدو في سبيله في شيء من الكسل متّجها الى حوش الخيمة . كان يمشي على مسافة نحو 30 ياردة ولكنّه لم يكن يبدي أيّ اهتمام بوجودي ، حيث كان جلالته يرى أن من حقّه أن يمدّ مخلبيه إلى شاه كلّما عن له ذلك ، دون أي عقاب . وعلى أي حال ، فقد مارس حقه في هذه المرة أيضا بحكم كونه الأقوى ، ولو أنّه اختار معزة . وأنا أفترض أنه قد أختار المعزة حتى يغير وجبته من لحم الضأن ...

لقد قام الجيش الفرنسي الذي أحتمي بأسوار مستغانم (1) حتى يوم 29 بحملة أخرى للسطو والنهب ، في سهول شلف . والمفروض أنه كان يتجه الى مازونة التي تقع في شمال غربي تكدمت على مسافة ثلاثة أيام منها ، ويقال أنها في حجم معسكر.

---

(1) تقع مستغانم في غربي شلف على مسافة 12 كيلو متر من مصبه. ومستغانم مدينة قديمة كانت أراضيها مشهورة بالطيبة والخصب في العهود الاسلامية الاولى. وصفها البكري بأنها « مدينة مسورة ذات عيون وبساتين وطواحين ويبذر في أرضها القطن فيجود » . وقد كانت مستغانم بعد احتلال مدينة وهران الميناء الذي أهتم الفرنسيون باحتلاله والتمسك به ، حتى في ظل معاهدة تافنا .

وفي يوم 30 من الشهر ، وصل جيش تكدمت النظامي وجيش ومعسكر غير بعيد من الزمالة . وقد وجهت هذه القوة الى المنطقة نتيجة لشعور السخط العارم الذي يسود بين القبيلة التي ينتمي اليها الشخص الذي أعدم في حادث السرقة . وقد أكتشفت اتصالات قاموا بها مع الجنرال الفرنسي قائد حامية معسكر.

قمت بالتفتيش على هذا الجيش وكان يرافقني سي الجيلالي في صباح يوم الاول من الشهر. ويبلغ عدد رجال هذه القوة 800 جندي وضابط ، وجميعهم من سكان المدن ، وقد جرى التفتيش على الجيش وهو مصطف في خطوط منظمة ، وبعد ذلك قمت باستعراضه في مسيرة طوابير ، وأخيرا أمرتهم باعادة تشكيل الصفوف وباطلاق نار الفرح (*) من اليمين . وزيّ الجنود يتكون من سراويل تركية وجاكيتة زرقاء مصنوعة من الجوخ مقفولة بازرار ، وحزام يشبه الحزام الذي يستعمله أفراد الجيش الاسباني لحمل الذخيرة . وضاربوا الطبول ، معظمهم من الجنود الهاربين من الجيش الفرنسي ، وتبعا لذلك ، فقدكانت معظم أنغام « المارش » التي يضربونها فرنسية .

والضباط يتميزون بحمل صفحة صغيرة من الفضة تتدلى ، معلقة بسلاسل من الفضه عدة أهلَّةَ . وكل جماعة يقودها ضابط واحد برتبة قبطان (سياف).

وأما ضابط الصف فهو يتميز بصفة مماثلة لصفة الضابط العامل ، وبزَيّ أحمر ويحمل ثلاثة أشرطة من الفضة أو الذهب على كمّه . والقبطان (السياف) وضابط الصف ، كلاهما يلبس زيا أحمر اللون

وقعت المعركة في يوم 31 من الشهر ، بين الخليفة ابن علال وبعض الوحدات العسكرية الفرنسية التي كانت تتجه من مليانة الى مدينة الجزائر . وذكرت الأخبار

(*) في الاصل: Feu de joie

التي وصلتنا أن خسائر الفرنسيين تبلغ ثلاثين قتيلا . بينما كان عدد القتلى من جيش ابن علال لا يتجاوزعشرين .

وقد غنم ابن علال ستين رأسا من البقر أخذها من قبيلة موالية للفرنسيين كما اصطحب معه عددا من النساء ، وهي الحصيلة العادية لكل غزوة .

نجح الخادم الاسباني رفائيل في نسف أحد أصابيعه . ونظرا لان هذا الاصبع هو الذي يضغط على الزناد ، فانه لا مجال لتخوفه من أن يؤخذ للخدمة العسكرية لدى عودته الى اسبانيا – وهو أمركان دائما يزعج أحلامه . والطريف أن هذا الخبيث قد أعترف فيما بعد بأنه قام بهذه العملية عمداً ! وبالطبع ، فإن العملية لم تثر في نفسه احساسا بالسرور ، وذلك على الرغم من استغاثته الملهوفة بالعذراء وبجميع القديسين . ولكنه بعد ذلك بساعة واحدة ، كان يغني موالا ... وكأن شيئا لم يحدث لاصابعه !

في يوم 9 أغسطس ، وصلتنا أخبار بأن الخليفة ابن علال قد أستدعى الاحتياطي والجنود غير النظاميين في ولايته لحمل السلاح. فان جيشا فرنسيا ضرب معسكره غير بعيد من نهر سيق (1) أي في منتصف المسافة بين وهران ومستغانم . والهدف من إختيار هذا الموقع ، هو حماية المدينتين من هجمات العرب ، وذلك في الوقت الذي يتمكنون فيه من ارسال فرق لجمع العلف ، والحبوب . ولكنه من المؤكد أنهم لن يتمكنوا من جمع شيء على الاطلاق ، اللهم الا اذا أكتشفوا مطمورا صدفة . فان العرب قد نقلوا كل ما هو قابل للنقل ووضعوا كل شيء وراء متناول أيديهم .

وأمّا عدم تقدّم هذا الجيش الى مازونة كما كان المتوقّع ، فإني أعزوه الى الخسائر الفادحة التي تكبّدها في الأرواح ، في المعركة التي اشتبك فيها مع الأمير غير بعيد من معسكر. والموقع الدّفاعي الذي اختاره الجيش الفرنسي في الوقت الحاضر ، يحملني على الإعتقاد بأنّ الخسائر التي مني بها في تلك المعركة كانت أكبر كثيرا من تقديرات الأمير .

(1) نهر في ولاية وهران ينصب في البحر في جنوب شرقي آرزيو ، على مسافة 21 كيلومتر من المدينة .

ونحن نعلم أيضا أن الأوبئة والأمراض تحصد باستمرار أرواح الفرنسيين ، في الجزائروهران على السواء .

إن رئيس أساقفة الجزائر مستمرّة على مراسلة السلطان ، وقد صرّح مؤخّرا بأنّه ينبغي أن يقوم السلام بين الطرفين على شروط تختلف عن الشروط الّتي اقترحها السيّد مانوتشي وأنّه يجب على الفرنسيين أن يتخلّوا عن جميع الأراضي الّتي استولوا عليها في هذه الحرب . وقال أنّه سيستمرّ على الدّعوة للصلح حتى ولوكان صاحب السمو الملكي غير مستعد لذلك في الوقت الحاضر .

في 15 أغسطس ، عاد الجيش الفرنسي الى مستغانم . ولّما تأكّد السلطان أنهم قد تحصّنوا الآن وراء أسوار المدينة ، أجرى مقابلة مع ابن عرّاش في أمور في غاية الأهمية .

وفي 16 من الشهر ، وصل رسول برسالة تقول بأن السلطان سيصل في غضون هذا النهار . أما أنا فقد حدث أنني كنت أقيم في تكدمت في هذا اليوم ، حيث أفضل الحياة في منزل على الحياة في الخيمة في الزمالة . وعلى السّاعة الحاديّة عشرة ، وصل السّلطان وهو يرتدي برنوساً أبيض ، وجميع ملابسه من نفس اللّون .

لم يرافق السّلطان أي حرس ، فيما عدا حاشيته الّتي يبلغ عدد أفرادها نحو أربعين فارسًا . ولّما نزل من على ظهر فرسه عند المسجد الرّئيسي الذي يقع على مرمى بندقيّة من المدينة دخل الى المسجد وبقي هناك نحوساعة .

وعندئذ توجّهت إليه لأقدّم له احترامي ولأعرب له عن اغتباطي بسلامة وصوله وبنجاة سموّه من الأخطار الكثيرة الّتي أحاقت به منذ لقائنا الاخير . واثر ذلك ، قدّمت القهوة والمرطّبات ، وتقدّم كلّ من وجد في نفسه الجرأة لتقبيل يد سموّه (والألقاب والرّتب غير معتبرة في مثل هذه المناسبة ، وعند ما يستقبل سموّه عامة الشعـــب) .

وَقَدْ اسْتُقْبِلَ مَقْدَمُ صاحب السموّ الملكي بتسع طلقات من المدافع المركّبة في القلعة والتي نجَتْ من التّدمير ومن سطو الفرنسيين عليها عندما قدموا الى المدينة . وقد أفْلَتَتْ من قبضتهم لأن الباشطبجي (رئيس المدفعية) قد أخفاها تحت الأرض وغطّاهَا بعدّة أقدام من التراب . ونظرًا لأنّ هذا الضابط المحترم لم يكن يسمع بحَامِلاَت المدافع ، فقد ركّبها في هذه المناسبة على بضعة أحجـــار . . .

إن سلطان الأمير على جميع المؤمنين ، مرجعه إلى أن المسلمين يعتبرونه المدافع عن مبادىء الإسلام . وعندما يصلي في المسجد ، يتقاطر النّاس من كلّ جهة لتقبيل يده أو قطعة من ثيابه حاملين معهم مساهمات من النّوع الذي يحملونه للمرابطين . وهو يتقبل هذه الهدايا ويبارك أصحابها ثم يضعها في منديل نضيف منشور أمامه . والمساهمات تتراوح ، عادة ، بين ستّ بنسات ودولار واحد . ومن هذه المبالغ يعوّل السّلطان نفسه وعائلته . وهو لا يقبل الهدايا أبدًا ، الا اذا كانت سلاحًا . ومتى قدّمت اليه هدية عينا ، أمر ببيعها وبوضع ريعها في خزينة الدّولة لمواجهة تكاليف الحرب .

حاول شخص ذات يوم أن يقدّم اليه خمسين دولار ، ولكنّه رفض المبلغ باشمئزاز ، قائلا ان هذا ليس بالمبلغ الذي يمنح لمرابط على سبيل «الوعدة» . ولكنّ مبلغا كهذا للسّلطان يعتبر إهانة ، حيث أن السّلطان يملك رعاياه وما يملكون !

وبعد الانتهاء من مداولاته مع ابن عرّش ، اجتمع السّلطان باثنين من شيوخ قبيلة هوارة (قبيلة اللصّ المشنوق) . فقد عثر معهما على رسائل يحملانها الى الجنرال ، قائد حامية معسكر . وبعد هذه المقابلة مباشرة ، ضُرِبَتْ رأسا الرّجلين في عين المكان. ويبدو من مضمون الرّسائل التي اكتشفت مع الخائنين أنّ القبيلة قد عَرَضَتْ أن تشترك في العمليات في جانب الفرنسيين متى قرّروا الزحف على تكدمت ، وبعدما يستولون على الزمالة . وقد علم أن قائد معسكر قد حوّل هذا العرض الى قائد وهران الذي أجاب بأنّه لا يمكن قبول مقترحات القبيلة في الوقت الحاضر . ولكنّه يمكن الإستجابة

الى رغبتهم في الأسبوع الأول من شهر أكتوبر. والرّسائل التي كان الشخصان يحملانها تحثّ الفرنسيين على شنّ الهجوم قبل ذلك الموعد.

ومن الردّ الذي قدّمه قائد وهران يبدو أنّه لا يمكن أن نتوقّع أي هجوم جدي قبل أوائل اكتوبر.

أصدر الأمير أوامر بقمع بعض القبائل التي رفضت دفع الزّكاة. ولهذه الغاية أرسلت تشكيلات عسكريّة لجمع المساهمة المتأخّرة.

أعلن اليوم أمرٌ ملكي بواسطة تشكيلة تتكوّن من عشرين جنديّا بلباس زي جيش تكدمت مع عدد من ضاربي الطبول مؤداة أن على كل من تغيب عن صفوف الجيش دون أن يحصل على اجازة أن ينضم الى فرقته في اليوم التالي. ومن خالف هذا الامر، تصادر ممتلكاته، اذا كان يملك شيئا، والا فسيجلد مائتي جلدة ثم يلقي به في السجن للمدة التي يراها السلطان.

وجه السلطان الحاج عبد القادر بوشليجة لكي يقوم باستخلاص غرامة قدرها أربعون ألف دولار كان قد فرضها على احدى القبائل وعين مكانه حاكما (قائد) على تكدمت ليقوم بتسيير الأعمال مكانه. على أن القائد الجديد لم تمر على تعيينه في هذا المنصب سوى بضعة أيام حتى شرع في استغلال نفوذه وفي جمع الرشوة. ففي إحدى القضايا الاولى التي عرضت عليه تلقى مبلغ 40 دولار رشوة. ولما بلغ الامير خبر هذا السلوك، أمر بوقفه على العمل في الحال.

ونظرا لان بوشليجة كان مضطرا للتغيب مرارا في أمور هامة من أمور الدولة، فان الامير، عين مكانه قائدا جديدا لتكدمت. وقد تم تنصيبه في منصبه بعد ظهر اليوم بمحضر كل من القائد (بوشليجة) ومولاي الطيب (القائم بأعمال السلطان عبد الرحمن)، وكان ذلك في المنزل الذي يستعمل في الوقت الحاضر قاعة للمحكمة. وبمجرد ما أقسم اليمين التقليدية، خلع عليه السلطان برنوس القيادة

الأحمر ، وفي نفس الوقت ، أطلقت أعيرة نارية من بنادق رجال المدفعية الذين كانوا مصطفين عند الباب أثناء اتمام مراسيم التعيين .

24 أغسطس . وصل وفد من قبيلة هوارة يسوق أمامه قطعانا من البقر والغنم في محاولة لتجنب العاصفة المنذرة والتي كانوا يشعرون بأنها ستهب عليهم ، طال الزمن أم قصر . ولكن السلطان رفض قبول هذه الحيوانات ما لم يحضر رؤساء القبيلة أمامه ليتلقوا حكمه عليهم بسبب إقامتهم علاقات مع العدو.

سافر الحاج محمد اليوم الى تيطوان بسبب وفاة عمه الذي تـرك لــه ثروة طائلـة .

في 30 أغسطس أصدر الامير أمرا الى جميع سكان معسكر سابقا بأن يتجهوا الى قرية تقع في جوار المدينة . وكان بعض هؤلاء ممن استقروا في تكدمت قد احتجوا لدى القائد وأعربوا عن رغبتهم في البقاء في المدينة . ولكن أمر السلطان أشبه مايكون بقانون الميداس عند الفرس. والذين كانوا أشد الناس جُؤاراً بالمعارضة باللسان ، سرعان ما أصبحوا أكثر طواعية من الحملان بفضل حجج العصا القوية . والعصا الرسمية هنا ، هي أية عصا تقع في يد الجلاد عند الحاجة ، حيث أنه لا يوجد مخزون من العصي التي تستخدم القانون ! وقد لاحظت أن الباشطبجي كان نشيطا بنوع خاص ... عند تنفيذ هذا الأمر . وقد كان يسدد ضرباته بيديه الى المذنب بحسن ارادة بالغة ، بحيث أن المسكين كان يمشي على أربع .. . . لكي يجهز نفسه للرحلـــة الى معسكـر !

وصلتنا أخبار بأن فرنسا قد قررت تسليم الجزائر الى الباب العالي . وأنا لم أعر هذه الاخبار أية أهمية . على أن أربعة آلاف من الجنود « الاتراك » ، أو على الاقل ممن يلبسون اللباس التركي قد نزلوا الى البر ومعهم جوقات موسيقية على الطراز التركي . وهذا الخبر صحيح ، ولكن الاتراك المزعومين ليسوا الا فرنسيين يشتركون في تمثيل مهزلة مع عمر ، ابن الداي الاسبق (1) .

وقد وزعت بيانات مضللة أصدرها الفرنسيون للتشويش ، وصل الينا بعضها ، وتقول بأن فرنسا قد تخلت عن الجزائر للسلطان العثماني وأنها عينت عمر بايا على المدينة ، وأن الحرب الآن لا تجري ضد الكفار الغزاة ، بل بين المسلمين الذين يعتنقون نفس الايمان ، ويحث هذا البيان القبائل على اعلان طاعتها وخضوعها لاسيادها السابقين ، ويعد بالحماية من قبضة الامير الحديدية الخ . وبعض القبائل أغترّت بالزي التركي الذي كان يلبسه أولئك الجنود وبمضمون هذا البيان ، فأسلمت نفسها رجالا ونساء وحيوانات وحبوبا ... ولكن الحبوب التي لم يستخلصوها من المطامير أستولى عليها الامير ، ولما وجدوا أنفسهم في قبضة العدو ، كانت خيبتهم عظيمة حيث وجدوا أنفسهم ضحية لخدعة حربية ، ولكي يتجنبوا وقوع بقرهم ومواشهم في يد الأمير في غزوة من غزواته قاموا ببيعها الى الفرنسيين ، فإن جنود السلطان كانوا يقومون بغزوات بإستمرار ، وبعض هؤلاء المساكين عادوا أدراجهم وركعوا عند أقدام الأمير لطلب العفو عليهم ويعدونه بأن لا يثقوا بالتركي أو بالكافر أبدا !

* * *

الفصل العاشر

فاتح سبتمبر. بدأ هذا الشهر بوصول قافلة من فاس تتكوّن من ستّين بغلا مثقّلة بالأقمشة للجيش وبمائة برميل من البارود من نفس المصدر الذي جاءت منه مواد أخرى منذ بضعة أيّام . وقد رافق هذه القافلة ابن الحاج طالب بن جلّول (ابن رئيس وزراء المغرب) نفسه .

وفي يوم 15 من الشهر ، وصلتنا أخبار بأن الجيش الفرنسي يقوم بتحركات أخرى . فقد خرج فيلق وهران وآخر من مستغانم ، ويبلغ عدد رجال الفيلقين ما يتراوح بين ألف وألف وخمسمائة .

كنت قد ذكرت سابقا أن جملا كان قد سقط من التعب وترك لمصيره . وقد جاء اليوم رئيس احدى القبائل العربيّة وأحضر معه حوالي 25 رطلا من القُشّاغ الذي كان ضمن الشحنة التّي يحملها هذا الجمل . وهذه المادّة هي الوحيدة التّي لم تصل الينا من تلك الشّحنة ، وأمّا الباقي فقد أعيدت الينا كلها من قبل .

وهذه الحادثة تعطي للقارىء فكرة عن الخوف والرّعب الذي يوحي به الأمير وأحكامه الصّارمة في نفوس اللّصوص .

وفي يوم 6 من الشهر ، اكتشفنا أن الهدف من خروج الجيش الفرنسي من مستغانم هو حماية قبيلة تقطن في المنطقة المجاورة أعلنت خضوعها لهم وطلبت اليهم الخروج

في مظاهرة عسكريّة . كان السيّد نيقولا مانوتشي قد وقع ضحيّة للحمّى لعدّة أيام . وقد لاحظ السّلطان ذلك وقال لشقيقه إن سبب المرض هو عناية السيّد نيقولا المفرطة بنفسه . وأضاف قائلا : «وأنت ترى أن ذلك الإنجليزي وأنا ، لا نقع ضحيّة للمرض . والسّبب في ذلك ، هو أننا لا نهاب شيئًا ! » . وأنا مدين بهذا الثناء من الأمير ، لأنني عرضتُ عليه أن أقوم بهجوم عاصف على معسكر ، من جهة ، ولأنني سافرت ذات مرّة ليلا وبمفردي الى تكدمت للإستيلاء على بعض الوثائق التي تلقي ضوء على مناورات الحكومة الفرنسيّة هنا . وكان من المعلوم أنّه ما من عربيّ يستطيع محاولة القيام بهذه العمليّة ليلا بسبب كثرة الأسود الهائمة في هذه المنطقة والتي تشارك ابن آوى وجباته من جثث الجياد في اللّيل (الجياد التي تخرج من المدينة ويلقي بها في السهول المجاورة لكي يلتهموهـــا) .

وفي اللّيلة المذكورة ، كنت أتوقّع أن أصادف في طريقي على أحد هذه الحيوانات . ولكنني كنت دائما أعتقد أن تلك العناية الإلهية القوية والتي تحكم جميع الأشياء ، هي وحدها التي تحكم متى حانت ساعة الإنسان الأخيرة . وما لم يصدر الحكم من هذه المحكمة العليا ، لا توجد قوّة تستطيع أن تُلْحِقَ أذًى بشعرة واحدة من جسمنا . وحينئذ ستحيط بنا السلامة أينما كنّا ، في ميدان القتال ، أوفي مهب عاصفة على حديقة هايدبارك . وعلى العكس من ذلك ، فـمتى حان الأجل ، لا توجد زاوية في الأرض ، مهما كانت بعيدة ، يمكن أن نتجنب فيها يد ملك الموت الباحثة عنّا ونداءاته المفجعة .

وموضوع الدّين يذكرني باعتقاد غريب يسود بين العرب ! وهو أننا ، معشر الإنجليز ، لَسْنَا مسيحيين تَمَامًا ، وإنما ننتمي الى نوع من الدّين ، هو بين المسيحيّة والإسلام . وهم يقولون إن محمّدًا صديقٌ كبير للإنجليز وأنّه . . . كتب اليهم رسائل يدعوهم فيها لاعتناق الدين الحقيقي ، وأننا كنّا مقبلين على اعتناق الإسلام فعلا عندما توفي محمّد وانتهت الإتصالات بين الإسلام والإنجليز . وقد بقَيْنَا بعد ذلك على الكفر ولكننا لسنا على درجة كفر غيرنا ، حيث أننا لا نعبد الصور والتماثيل .

والمعروف .أن القرآن يحرّم الصور والتماثيل . وأنا قد سَمَحْتُ للنّاس بالإستمرار على هذا الإعتقاد ، لأنّه شائع بحيث لا يمكنني اقتلاعه في النفوس . ومتى سئلت ، الى أيّة جنسية تنتمي ، وأجبت بأنني انجليزي ، كان جواب المخاطب على الفور : «مليح» ! (*) ولكنني أجبت في بعض المرات بأنني فرنسي ، فكان الردّ : «كلب بن الكلب !» (*) . وأمّا الإسبان ، فإن قيمتهم تقدَّر على أساس السعر الذي يدفع في مقابل الواحد منهم في أسواق العبيد في المغرب الأقصى . . .

وفي يوم 7 من الشهر ، وصلت قافلة من تمبكتو. وقد أستغرقت خمسة عشر يوما في طريقها من تافيلالت ، أو مدينة التمر . وقد أخبرنا تجار هذه القافلة ، أن التمر هو غذاء السكان الوحيد في تافيلالت . فهم يزرعون القمح وغيره من الحبوب ، ولكنهم يقدمونها لعلف الخيول والبقر . والتمر يجفف ويصنع منه الكعك . وأما مسيرتهم من تمبكتو ، فقد استغرقت أكثر من ثلاثة أشهر حيث أنهم توقفوا في عدة أماكن . وقد كانوا يحملون معهم 15 عبدا وأمة من السود للبيع ، ومعظمهم من الفتيات اللائي كن جميعا فيما عدا واحدة في سن أقل من العشرين . وسنهن يتراوح بين 12 و16 ، وهن يبدو عليهن الرضا حيث يمرحن ويلعبن أمام خيمة سيدهن التي ضربت غير بعيد من السوق العمومية . وهذه السوق تعقد مرة في الاسبوع ــ يوم الخميس . ومتى حل يوم الخميس ، سيعرض هؤلاء العبيد للبيع ، اذا لم يكن سيدهم قد تخلص منهم بعقد بيع في هذه الاثناء . وبينما كنت أتفرج عليهم ، وصل عربي وأخذ يفحصهم بقصد الشراء ، وقد شرع في فحص سواعد الفتيات ثم لمس نهودهن الخ . ! وقد عرض في مقابل واحدة منهن ، وهي أجملهن ، وكانت تبدي صدرا أعجبه كثيرا حيث قال عنها « مليحة » ! (*) سبعين دولارا ، على أن التاجر في اللحم البشري طالبه بثمانين دولارا . وتبعا لذلك ، فان الصفقة لم تتم . وقد كان السعر الذي يطالب به تاجر العبيد للفتيات يتراوح بين 60 و80 دولارا .

(*) بالعربيّة في الأصل
(*) بالعربيّة في الأصل

ولما اعربت عن رغبتي في معرفة الطريقة التي حصل بها التاجر علهين في تمبكتو ، سألته عما اذا كان قد اشتراهن من عائلاتهن أم أنهن وقعن غنيمة في يد قبيلة معادية . فأجاب التاجر بأن الفتيات يختطفن عادة من أسرهن ، ولكنهن يقعن في بعض الحالات أيضا غنائم في الحرب . وفي حالة فتياته هو ، قال إنهن أحضرن الى تمبكتو ووضعن في مبني يقع خارج المدينة طبقا للوائح الحكومية ، حيث أن التاجر الذي يقصد الى هذا المبنى لشراء العبيد ، لا يسمح له بالدخول إليه ، وإنما يطلب منه أن يقدم بيانات عن عمر العبد أو الأمة وكم عدد الذكور أو الإناث الذي يريد شراءهم . وقد أحضر إليه هؤلاء العبيد وعقد صفقة بشأنهم في مقابل ملكية . وأما المال فغير مقبول هناك حيث يرون في بيع العبد أو الامة بالمال ذنبا كبيرا . والبضائع التي يباع بها العبيد هناك ، عادة ، هي الحايك والاغطية المصنوعة في فاس وعقود السيدات والسكاكين الاروبية . وقال هذا التاجر ان تمبكتو مدينة كبيرة لاتقل عن فاس ، وقد ألح علي كثيرا لمرافقته الى هناك عند عودته في شهر ديسمبر ، وأقسم برأس سلطان المغرب ورأس السلطان عبد القادر بأن يعود بي الى تكدمت سليما .

ولو كان الأمر في استطاعتي لما ترددت في مرافقته الى تمبكتو بصفتي خادما له ، حيث أعيش معه في خيمة منفصلة . وأنا أعتقد أنني لو اصطنعت الصمم والبكم عندما نكون مع الأجانب وأخذت معي مترجمي بصفته خادماً للتّاجر ، لعدت في أمن وسلام . وبالطّبع ، يتحتّم علي حينئذ ، أن أتخذ جميع الاحتياطات حتى لا يكتشف أمري . وأما الملاحظات التي أسجّلها ، فسوف أكتبها على ضوء الشموع . وكذلك يقتضي الأمر أن أحلّق رأسي وألبس ثيابا تركيّة . وبهذه الطريقة ، أستطيع جمع معلومات أوسع من المعلومات التي أجمعها لو قمت بالرّحلة ضمن بعثة باهضة التكاليف وبصفتي مسيحيّا يعتبر «كلبا» يمكن لمن يقتله الدّخول الى الجنّة ، حيث أنّه يقوم بالتجسّس لحساب أمم أخرى ويعمل لإعداد البلد للغزووالاحتلال .

من البديهي أن التّبر والعاج يمثلان المنتجات الرّئيسية التي تتاجر فيها تمبكتو. والتّبر يساوي هنا في تمبكتو ما يتراوح بين 150 و 160 دولار للرّطل ، اذا اشتريته

من تاجر. على أن السّلطان عبد الرّحمن يحتكر التّجارة في الذهب ويرغب في المحافظة على هذا الاحتكار. وليس من شك في أن موت دافيد صون يمكن أن تغزي الى رغبة سلطان المغرب في التخلّص منه حتى لا يكشف عن طريق تحويل التجارة من تمبكتوإلى فاس (1).

وفي يوم 8 من الشهر، عاد السيد عبد القادر بوشليجة من الحملة التي قام بها لمعاقبة القبيلة التي رفضت دفع الزّكاة، وقد أنزل بها العقاب الذي تنصّ عليه الشّريعة الإسلامية بصرامة، حيث قام بغزوة من النّوع الملائم لأراضيها. وقد عادت قوّاته العسكريّة بروح معنويّة عالية حيث أطلقت العنان لخيولها وراح أفرادها يطلقون أعيرة ناريّة في الهواء للإحتفال بالنّجاح الذي لقيته غزوتهم.

وقد غنمت الحملة مبلغ 150 ألف دولار و80 ألف رأس غنم وألف رأس من البقر ومائة فرس بسروجها وأعنّتها وأكثر من مائتي بغل. وكذلك عادوا بنحو خمسين من رؤساء القبيلة ليكونوا رهائن لضمان حسن سلوكها في المستقبل. وهؤلاء الرّؤساء يمكن تمييزهم من بعيد عن الجنود وهم يشبهون في مظهرهم فرسان العصور الوسطى، بامارات البؤس والشّجن التي تعلووجوههم. وكذلك يمكن مقارنة جيادهم الهزيلة النحيلة بفرس الدون كيشوط. وان بطونها ضامرة وعظامها بارزة. حقا إن جنود بوشليجة لم يتركوا وراءهم شيئا يذكر!

---

(1) دافيد صون (Davidson)، سائح أنجليزي ولد في 23 ديسمبر 1797. اشتغل في الصيدليّة وحاول دراسة الطبّ ولكنّ الميل الى الأسفار الطّويلة تغلب عليه. سافر الى نابولي في سنة 1827، ومن هناك عبر الى سوريا. وبعد جولة في النمسا وبولندا عاد الى انجلترا. وفي جولة ثانية، زار مصر وفلسطين والقسطنطينيّة. وفي سنة 1831، سافر الى الولايات المتّحدة وكندا والمكسيك قبل أن يقوم باعداد بعثة استكشافية على حسابه الى افريقية. وقد أبحرت البعثة من انجلترا في سنة 1835 ونزلت بالمغرب الأقصى في محاولة لعبور الصحراء الكبرى والوصول الى تمبكتو. ولكنّ دافيدصون قتل في الطّريق وَسُلِبَتْ أثقال البعثة عند بئر عيسى في 18 ديسمبر 1836. وقد كان دافيد صون عضوّا في الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة. وأما المذكرات التي سجّلها في غضون هذه الرّحلة، فقد عثر عليها ونشرها شقيق دافيدصون في سنة 1839 في لندن بعنوان:

وأما القائد ، فانه ، بدون شك ، قد أستولى على حصة الاسد من الغنائم ، كما يدل على ذلك تصرف أفراد أسرته . وأنا شاهدت « قلمون » برنوس عبد له مليء بالدولارات ، وهو يساوم جهازا كاملا لفرسه .

والقبيلة التي أشرت اليها من ضمن قبائل سواحل الريف التي تنحدر من أصل فلسطيني وبعض أفرادها يذكرون حتى أسماء المدن التي كان ينتمي إليها أجدادهم قبل أن يخرجهم اليهود منها في العهود الغابرة .

وفي يوم 9 من الشهر ، وصلت قافلة أخرى من فاس تتكون من 75 بغلا ومن عدد كبير من الجياد وتحمل خصوصا الثياب وملابس الجيش . وأما الجياد التي يبلغ عددها حوالي مائة ، فقد أرسلت هدية للبوحميدي ، خليفة تلمسان .

وفي 16 منه ، سافر نيقولا مانوتشي متجها الى الجزائر ، وقد رافقه أخوه حتى مليانة ، والجدير بالذكر أن الأمير لم يسلمه أية رسالة الى الحكومة الفرنسية .

وكان الأمير قد كتب رسالة بناء على مشورتي (راجع الملحق 2) ، ولكنّه بعدما ختمها وسلّمها الى السيد مانوتشي ، أرسل في طلبها ومزّقها . وتبعًا لذلك ، فإن السيّد مانوتشي قد فشل في مهمّته وسيقدّم الى سادته ، وخصوصا الى بيجو ، تقريرا غير مرض تماما، عن التقدّم الذي أحرزه في مفاوضاته مع الأمير. ومع ذلك فإن الأمير الذي اشتهر بروح المجاملة ، أرسل عددا من الغزلان وجلود الأسود الى الجنرال بيجو .

وفي يوم 17 منه ، تزوج سي الجيلالي الذي يبلغ الثالثة والستين من العمر من فتاة صغيرة ستكون له سندا في أواخر أيامه . فان العروس الجميلة لم يكن سنها يزيد عن السادسة عشرة ، وهي قريبة للبوحميدي . وسي الجلالي له ابنة جميلة هي عروس

الزّمالة (1) ومفخرتها . وقد أتيح لي أن أرى ملامحها ذات يوم بينما كنا عائدين من الصحراء ، انها في مثل جمال الزنبقة وتشبه حورية الجنة . ليته كان من الممكن الحصول عليها بشروط أقل من تحليق الرأس ! واذا لطلبت يدها على الطريقة العربية وبدون مغازلة ، واذا لاستوليت عليها كما نستولى على قلعة محصنة ، أي بدون رضا الطرف الآخر .

جرت مقابلة بين ابن علال ومسيوكروتز (2) بمحضر عدد من كبار تجار الجزائر . وأما موضوع هذه المحادثة ، فقد ظل حتى الآن سرا ولم يبلغنا عنه شيء في الزمالة .

(1) أصبحت الزمالة عاصمة الأمير عبد القادر المتنقلة عقب تدمير معسكر وتكدمت واحتلالهما . وقد كانت الزمالة تشتمل على جميع المنشئات والمؤسسات العموية التي تحتوي عليها عاصمة الأمير السابقة ، بما في ذلك المدارس والمساجد ومصانع الأسلحة وورش التصليح ومصانع السروج والمدابغ ودكاكين الخياطين والحدادين ، وذلك بالإضافة الى المتاجر العادية . وكذلك كانت تعقد في الزمالة أسواق دورية للتبادل التجاري يقصدها السكان المقيمون على أطراف الصحراء لمبادلة منتجاتهم بمنتجات الزمالة ومصنوعاتها . والى جانب ذلك ، كانت الزمالة تأوي الدواوين الحكومية وخزينة بيت المال وخزائن الولايات ومستودعات الخلفاء ورجال الدولة من الأموال والمجوهرات الخ .. ؛ وقد كان عدد سكان الزمالة عندما استولى عليها الفرنسيون يتراوح بين 60 و 70 ألف نسمة تنتشر خيامهم في المنطقة التي تمتد بين تاجوين والبيضاء، في أعالي شلف، فكانت الزمالة من السعة بحيث أن الشخص الذي يفقد فيها أحد أقاربه ، قد يقضي في البحث عنه يومين أو أكثر .

ولهذه الاعتبارات كلها ، فقد كان سقوط الزمالة في يد الدوق دومال (16 مايو 1843) أكبر كارثة لحقت بالأمير عبد القادر في هذه الحرب التي كانت مليئة بالكوارث . وقد استولى دومال على الزمالة بناء على على وشاية خائن اسمه عمر ، على رأس جيش يتكون من 1300 من المشاة و 600 فارس ، مغتنما فرصة غياب الأمير وجيوشه وخلفائه (فيما عدا ابن عراش) . ومما زاد من هول المفاجأة أن الزمالة قد انتقلت من مكان الى آخر وكان السكان منهمكين في ضرب الخيام . وقد بلغ عدد القتلى من العرب حسب المصادر الفرنسية 300 ، وعدد القتلى من المهاجمين 9 والجرحى 12 . وأما الغنائم والكنوز التي استولى عليها الفرنسيون فهي وراء كل تقدير ، وكذلك استولوا على 3000 أسير من بينهم عدد من أفراد عائلات الخلفاء ، وأما أسرة الأمير ، فقد نجت من الأسر بأعجوبة .

(2) لاكروز (La Crutz) تاجر وضابط برتبة كلونيل ورئيس المحكمة التّجاريّة في مدينة الجزائر ، قام بعدّة عمليات تجاريّة لحساب الأمير عبد القادر في الدّاخل ومع بعض البيوتات التّجاريّة في فرنسا بواسطة شقيقه الّذي كان يقيم في وهران ، أو بواسطة يهوذا بن درّان الذي كان صديقًا له وشريكًا في بعض الصّفقات التّجاريّة الكبرى .

ولكنني أتوهم أنه هو نفس الموضوع الذي عالجه رئيس أساقفة الجزائر في مراسلته مع الامير.

وفي يوم 20 ، قصد السلطان الى معسكر أغا مدينة معسكر ، وقد عاد الى الزمالة في صباح اليوم التالى .

وفي يوم 22 ، فكّرت في الطّريقة الغبيّة الّتي انتهجها السيّد نيقولا مانوتشي في مفاوضاته مع الأمير من أجل السّلم ، وطلبت مقابلة على انفراد مع صاحب السموّالملكي .

وفي هذه المقابلة ، وضعت أمام سموّه خطّة واضحة أعتقد أنها هي الكفيلة بتحقيق أفضل النتائج في مصلحته . وقد عرضت أن أقوم برحلة الى أروبا لهذه الغاية ، إذا لَمْ تسمحْ لصديقي نويل مانوتشي مشاغله وأعماله للقيام بهذه المهمّة . وفي هذه الحالة ، سيبقى السيّد مانوتشي هنا ويشغل مكاني ، ولا سيما وأن لُغته العربيّة جيّدة ، الأمر الذي سيجعله كبير الفائدة . ولكنّه إذا لم ير الأمير مانعًا ، فإني أفضل أن أصطحبه معي . وقد كان سي الجيلالي هو الشخصية الوحيدة التي شهدت هذه المقابلة . وقد اتفق معي في كل ما أقترحته على الأمير .

وأثر ذلك مباشرة ، بعث الامير برسول خاص الى مليانة يحمل أمرا الى السيد مانوتشي بأن يعود الى الزمالة على الفور .

وصل أحمد بن سالم (1) ، خليفة دلس صباح اليوم لإجراء مقابلة مع السلطان . وقد أصطحب معه ثلاثين بغلا مثقلة بمختلف أنواع الفواكه والهدايا ، وثمانية بغال أخرى محملة بالنقود .

(1) خليفة الأمير على بلاد القبائل وينتمي الى قبيلة بني جعد . كان آخر خلفاء الأمير الذين ظلّوا على المقاومة . وقد استسلم للمريشال بيجو في 27 فبراير 1847 ، قبل بضعة أشهر من استسلام الأمير نفسه (يمكن لمن يهمّه معرفة مقاومة أحمد بن سالم مراجعة الدّراسة الّتي وضعتها عنه — وهي ضمن مجموعة من الأبحاث بعنوان « دراسات في تاريخ الجزائرالحديث » ، وهي تحت الطّبع .

وعندما كان الذهب والفضة تنقل الى خيمة الخزينة ، قال لي ابن عبو: لو استطعنا أن نبيع مالدينا من الصوف الخ ، لحصلنا على مايكفي لملء خيمة كاملة بالذهب . وأنا أعتقد أن هذا الشيخ على حق ، لانني لا أشك في أن خزينة السلطان ستحصل على الاقل مبلغ مليونين من الجنيهات الاسترلينية من الصوف والشمع وحدهما، حيث أن البلد لم يصدر شيئا من ذلك في غضون السنوات الثلاث الاخيرة .

وكذلك اصطحب ابن سالم معه عشرة جياد جميلة هدية للأمير .

وعند وصوله ، ضرب ابن سالم خيمته غير بعيد من الزمالة . وأما حرس ابن سالم الشخصي ، فقد كان يتكون من خمسين فارسا من كبار ضباطه . وقد غادر السلطان خيمته لاستقباله وفي معيته خليفة تكدمت وبوشليجة وسي الجيلالي ونحو عشرين شخصا من حاشيته .

وقد رتب حرس ابن سالم في طابور واحد على مسافة عشرين ياردة من خيمته ، بينما وقف الخليفة نفسه أمامهم على مسافة 12 خطوة من الصف .

ولما وصل السلطان الى مسافة نحوعشرياردات من مخيم ابن سالم ، تقدم الاخيراليه وأحنى ركبته وأخذ يده ليقبلها ولكن الاخير رفع يده في رشاقة ثم تعانق الزعيمان عناقا قلبيا . وأما الباقي ، فقد تقدموا في طوابر من اليمين وكلما وصل واحد منهم الى الامير أحنى ركبته وتشرف بتقبيل يد سموّه .

وفي هذه الاثناء كانت جموع العرب محتشدة وغاية أماني كل شخص منهم هي أن يلمس ثوب السلطان أو برنوسه . ولكن الحرس الاسود كان يقف بينه وبينهم سدا منيعا .

وبعد اتمام مراسم الاستقبال الرسمية ، رافق السلطان ابن سالم الى خيمته حيث أرسلت اليهما القهوة والمرطبات زوجة السلطان . وهذه السيدة بارعة جدا في صنع

الكعك والحلويات من جميع الانواع . وكذلك كانت الصينية التي أرسلتها بهذه المناسبة تحتوي على جميع الانواع . وقد قام ابن سالم بواجبه كاملا نحو الصينية .

واثر ذلك ، عقد السلطان اجتماعا على انفراد مع الخليفة استمر حتى أذن المؤذن لصلاة العصر . وعندئذ تقدم الركب بأكمله الى داخل الزمالة وأصطفوا للصلاة بكل خشوع وتضرع ، وكان السلطان نفسه هو الذي يقوم بدور الامام . وبعد انتهاء الصلاة ، أنسحب كل واحد في اتجاهه الخاص .

عرضت اليوم قضية قبيلة هوارة للفصل فيها ، بعدما قرر زعماء القبيلة أن من الحكمة الوقوف أمام المحكمة ، وقد صدر الحكم عليهم بغرامة قدرها مائتي ألف دولار. ولدفع هذا المبلغ ، منحت القبيلة مهلة ستة أشهر. ولكن هؤلاء الرؤساء لم تكن تعلو ملامحهم البهجة والسرور ، حيث أنهم سيضطرون الآن الى الحفر لإستخراج كنوزهم المدفونة . وكذلك تبدو على وجوههم علامات اضمار الغدر والرغبة في الانتقام ، وقد لاحظت لابن عبو أن هذه القبيلة ستكون مرتعا ملائما لغزوة بعد ستة أشهر من تاريخ اليوم ، فكان الرجل على رأي .

في يوم 26 من الشهر ، دخل عليَّ مترجم السلطان ليترجاني بأن أقوم باعداد مسودة بالوثائق التي أحتاج اليها لرحلتي المقبلة بحيث يأمر بترجمتها على الفور ، حتى لانضيع أي وقت بعد وصول السيد مانوتشي .

ولما علم مولاي الطيب ، القائم بأعمال سلطان المغرب بنيتي في السفر ، عرض علي أن يكتب لي رسائل الى السلطان أو لاية شخصية أخرى في المغرب . وهذا الشاب (لم يكن عمره يزيد عن 20 سنة) ينتمي الى أسرة سلطان المغرب ، ويتحلى بأدب ولياقة من أعظم مارأيته في أي بلد من بلدان العالم . انه يلبس دائما أفخر الثياب الشرقية ، وجميع ملابسه من الحرير أو القطن الرفيع ، والبرنوس الذي يلبسه (وهو من صوف الخروف) أبيض ناصع البياض . وهو قلّما يلبس العمامة

الخضراء ، بل يلبس على رأسه خيوطا خضراء من الحرير بدلا من الخيوط المصنوعة من الوبر ، مثل العرب .

أنتشرت أمراض خطيرة في المدينة ، بحيث يموت يوميا ما يتراوح بين 5و6 أشخاص . والنشيد الجنازي يبدأ من بيت الميت ويستمر حتى يواري التراب . والكلمة الوحيدة التي أميزها ، هي كلمة « لاله الا لله » (*) . وقد دفن اليوم شاب ، هو شقيق قايد تكدمت . على أنني لاحظت أن الاناشيد في هذه المرة تختلف بعض الشيء عما كنت أسمعه في المناسبات السابقة . ولما سألت مترجمي عن جلية الخبر قال لي انها مرثية تنعى شباب الراحل الذي ترك حبيبته وراءه . وهذه الفكرة أثارت في نفسي كثيرا من العواطف وأعادت الى ذهني مرثية امرأة ايرلندية ساخرة أحفظها عن ظهر قلبي :

« أيهـــا الحبيـــــب ، علـــــم تمــــوت
وتتــركني أنـــا ومحصـــــول البطـــاطـــــس !

وقد شهد هذه الجنازة الخليفة وجميع أعيان المدينة الذين كانوا يسيرون في طوابر تتكون من أربعة أشخاص يمسك أحدهم بذراع الاخر . وهم يسيرون في مقدمة النعش وليس في مؤخرته كما هي العادة في أروبا .

وعلى الساعة الثالثة بعد الظهر ، تلقينا أخباراً تقول إن جيشا فرنسيا قد غادر مستغانم ويتجه إلى تنس حيث يستعد ميلود بن عراش لينظم لهم استقبالا حارا . وكذلك غادر السلطان نفسه المدينة عند منتصف الليل على رأس حرسه الخاص ؛ وقد ترك أوامر مع إبن بكير بأن يجمع القوات غير النظامية في المنطقة ويسير على رأسها في أثره في أقــرب وقت ممكن . وقد أبلغت أن الفرنسيين قد خرجوا وأخذوا عددا من العرب الذين فاجأوهم وعادوا بهم إلى معسكر بقصد إعادة تعمير المدينة .

(*) بــالــعــربــيّـــة في الأصـــــل

أصيب صديقي مولاي الطيب وجميع أفراد أسرته بالحمّى . وقد توفيت زوجته اليوم، بعد مرض لم يدم سوى ثلاثة أيام . لقد كانت فتاة بارعة الجمال . ومنذ بضعة أيام فقط ، رأيتها وهي تتبختر في جمال وروعة — وقد كان ذلك بمحض الصدفة حيث بدات من نافذة غرفة النوم في الوقت الذي كنت فيه في طريقي لمقابلة زوجها ، وقد عرفت بنبإ وفاتها عندما تلقيت رسالة من مولاي الطيب يرجوني فيها أن أقدم إليه شيئا من الكافور ليوضع في أذنيها ، وهذه عادة عربية متبعة في جميع أنحاء البلد ، مما أدى إلى انعدام الكافور في الحوانت .

تلقيت رسالة من السيد مانوتشي يبلغني فيها أنه سيحضر إلينا بعد بضعة أيام وأنه سيحاول تنظيم أعماله بحيث يتمكن من مرافقتي إلى أروبا .

وفي يوم 13 ، وصلت أخبار تقول بأن الجيش الفرنسي قد بلغ إلى نهر مينة ، وأنه على مسافة نحو خمسة فراسخ من تكدمت . وأنا قد سبق أن ذكرت أن خطة مشتركة بين قبيلة هوارة والفرنسيين تتوقع القيام بعمليات في الأسبوع الأول من شهر أكتوبر .

وفي صبيحة يوم 14 من الشهر ، لاحظت أن عددا كبيرا من العرب قد دخلوا المدينة في الصباح المبكر ، تحت ستار الحضور إلى السوق ـ وهو يوم سوق بالفعل . ولكننا تشككنا في نياتهم ، أنا ومولاي الطيب ، واعتقدنا انهم إنما جاءوا لِشراء البارود والرصاص ، حيث أنهم لم يكونوا يحملون شيئا معهم لمبادلته .

ونظراً لاقتراب الفرنسيين من المدينة ، فقد أصدر قائد تكدمت أوامر إلى سكان المدينة في الليلة الماضية بأن يستعدوا للرحيل ، مرة أخرى إلى الصحراء ، وأن يأخذ كل واحد سلاحه في يده .

ونتيجة لهذه الأوامر ، فقد كان الجميع يحملون بنادقهم على أكتافهم ، وهذا كان من حسن الحظ . ولما بلغت الساعة الثامنة صباحا كان عدد العرب الذين دخلوا السوق حوالي الفين .

وقد بدأت قبيلة هوارة في تنفيذ عمليتها بأن استولى أحد أفرادها على سلّة من الأحذية تابعة لأحد سكان المدينة وكانت تلك هي الإشارة الرمزية لعمليّة نهب المدينة . ولو لم تلق هذه المحاولة ما يتطلبه الموقف من العزم والتصميم لنجحت عملية تدمير السوق وتخريب المدينة نجاحا تاما . ولكنها فشلتْ ، فإن التاجر الذي أخذتْ سلته (وهو من أصل مغربي) قد أثبتَ أنه يستطيع معالجة موادّ أخرى ، غير الجلد. فقد جرد مسدسا من صدره وسدّد رصاصة منه إلى خصمه اخترقت القلب .

وقد تلى ذلك هَرَجٌ ومَرَجٌ ومشادات ، وكانت الطلقات النارية تأخذ كل اتجاه . لم لم يلبث الشغب أن انتشر في المدينة نفسها ، فكان الرصاص يدوي في كل اتجاه في شارع المدينة الرئيسي . وأما أنا ، فقد وقفت في هذا الإضطراب كالمعتوه ، حيث أنني لم أكن أدري من أسدد إليه سلاحي .

وبعد بضع دقائق أخذ المهاجمون ينظمون صفهم ويخرجون من الجمهور استعداداً للإنسحاب . وعند هذه النقطة وضعت إصبعي على الزناد . وقد حملت عليهم بمساعدة صديقي الباشطبجي ورجال المدفعية وتعقبناهم حتى مسيرة ميل خارج المدينة . وقد تركوا وراءهم سبعة من القتلى ، وعرفنا فيما بعد أن عدد الجرحى بينهم قد بلغ خمسين جريحا .

لمْ نَرَ من الحكمة مطاردتهم إلى أبعد من هذا الحدّ في الظروف الحالية ؛ ولذلك عدنا إلى المدينة حيث أرسلنا في الحال دوريات من الفرسان لتقوم بالطواف ووضعنا حرسا على المرتفعات يرفعوا إشارة الخطر ، إذا ما رأوهم يعيدون الكرة .

وعند هذه المرحلة ، عَرَفْنا أن خمسة آلاف منهم يعسكرون على مسافة ثلاثة فراسخ من المدينة ، في انتظار مساعدة من أصدقائهم الفرنسيين .

كنت أعتقد أن هذه القبيلة ستوفِّر مرتعا خصبا للغارة ، ولكنهم الآن خَتَمُوا مصيرهم بأيديهم ، كما حدث للقبيلة التي ذكرتها سابقا . فإن العاصفة ظلت تحوم حولهم نحو سنة حتى ظنوا أن الأمير قد نسيهم تماما ، فدخلوا في اتصال مع العدو في سنة 1840 .

وحينئذ فرض الأمير عليهم غرامة قدرها 40 ألف دولار ، على أن تدفع في الحال . ولما عجزوا عن الدفع ، وقعت الغزوة . والأمير حينما يجد نفسه في مثل هذه المناسبة ، لا يترك إلا مهلة قصيرة — تماماً مثل الفرنسيين .

كان صديقي مولاي الطيب نشيطاً بصفة خاصة أثناء وقوع هذا الحادث ، وبذلك أثبتَ أنه من سلالة الرسول حقا . فقد ضرب بخنجره رأس أحد العرب المهاجمين الهاربين بقوة وشدة بحيث شطر الرأس إلى شقين وسقط الرجل جثة هامدة في السهل .

وفي يوم 16 من الشهر ، تلقينا أخبار بأن السيد نيقولا مانوتشي سيعود مرسلا من قبل حكومة الجزائر ليحاول الإتصال من جديد بالأمير لصنع ما يمكن صنعه ، أو على الأقل ، حمله على كتابة رسالة على غرار التي استرجعها منه في المرة الأولى . فقد ذكر الجنرال بيجو أن مثل تلك الرسالة تصلح لتكون أساسا للمفاوضات التمهيدية . وتبعا لذلك ، فإن السيّد نيقولاي مانوتشي قد يصل بين يوم وآخر من مليانة حيث يتباحث حاليا مع إبن علال .

حمل إلينا جواسيسنا أخبارا تقول إن باخرة فرنسية قد وصلت إلى مستغانم في يوم 12 ، وأنه بمجرد وصولها إلى الميناء وجه رسول إلى قيادة الجيش . وعلى أثر استلام الجنرال قائد الجيش الرسالة ، انسَحب الجيش مباشرة وعاد إلى مستغانم . وبذلك تحررنا من كابوس زيارة غير مرغوب فيها ، زيارة الفرنسيين التي كنا نتوقعها في كل يوم .

17 منه زارتنا الحمى المنتشرة هنا بدورنا . وقع ضحية لها أولا ، المترجم ثم دومنيجو ، ثم جندي فرنسي هارب يعمل في خدمتي (وكان من قبل يعمل في مصنع دوكاس) . وأخيرا ، جاء دوري . على أنني صممت على أن أحملها على التراجع في أسرع وقت ممكن . ونظرا لعدم وجود «الكالوميل» تحت تصرفي ، فقد عمدت إلى تحطيم مرءات ثم ابتَلَعْتُ الزئبق الذي وراءه كله . ولما جاءت فترة الرعشة ، سارعت إلى أخذ كأس من الملح الصخري . وقد واصلت تناول الملح الصخري لمدة ثلاثة أيام امتنعت خلالها عن تناول الطعام . وبعد تجويعها ، ذهبت الحمّى ، ولو أنها كانت تعود الفينة بعد الفينة

خلال ما يقرب من شهر ، ولكنها لم تلازمني قط أكثر من يوم واحد ؛ لأنني كلما شعرت بالبرد الذي يسبقها ، سارعت إلى تناول الملح الصخري .

وفي يوم 20 منه ، جرت معركة في جوار معسكر . وقد تكبّدت الخيالة الفرنسية خسائر فادحة بسبب الإرهاق الذي أصاب جيادها . على أن جيش معسكر النظامي ، قد تحمل هو أيضا خسائر معتبرة حيث أن ثقل المعركة كله وقع عليه . وأما الخيالة غير النظامية ، فإنها لم تتصرف بما عرف عنها من الفروسيّة .

وفي يوم 25 منه ، غادر الجيش الفرنسي الى مستغانم من جديد ليرافق قافلة لتموين حامية معسكر . وقد تُرِكَ لِيَمُرَّ دون أن يتعرض أحد لمطاردته ، حيث أن الأمير قرر أن يغتنم فرصة غيابه لكي يقوم بغزو القبائل التي خضعت لفرنسا في تلك المنطقة (منطقة مستغانم) . وقد قام السلطان بهذه العمليات بأقصى ما كان يتوقع من النجاح . وقد اصطحب معه خمسين امرأة وأربعة آلاف رأس من البقر وثمانية آلاف رأس من الماشية .

وفي يوم 29 منه ، وصل السيد نويل مانوتشي وشقيقه . وفي يوم 30 زارته الحمى التي عانينا منها جميعا .

وفي فاتح أكتوبر — صادف رؤية هلال رمضان واليوم الأول في شهر الصوم . وقد احتفل بهذه المناسبة بكثير من البهجة والسرور فأطلقت أعيرة نارية في جميع أنحاء المدينة . ولَيْتَ هذه الكميات الكبيرة التي ذهبت هباء في الهواء قد استخدمت في المعارك مع العدوّ .

وفي هذا الشهر يمتنع المسلمون عن تناول الطعام والشراب طوال النهار . وبصفة عامة ، فإن نظام الحياة ينقلب بحيث يتناول الناس وجباتهم (الإفطار عند الغروب والسحور الذي يتناولونه على الساعة الثالثة صباحا) . والليل كله مرح وحبور واستمتاع بين جميع الطبقات الشعبية . ولكن الجنس اللطيف يتخوف كثيرا من هذا الشهر ، حيث الأزواج الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة يسهرون جزءا كبيرا من الليل ثم يغدون لممارسة أعمالهم اليومية كالعادة ، ومن ثمة فهم متوترو الأعصاب ومزاجهم معكر في أكثر الحالات ،

وحيث أنهم لا يجدون من يصبّون عليه جام غضبهم سوى نصفهم الحلو ، فهم كثيرا ما يبلغ بهم الأمر إلى حدّ استعمال العصا .

4 نوفمبر — أطلق صديقي الباشطبجي طلقات للتحية الملكية من سبعة مدافع ، وذلك للإحتفال بانتصار عظيم سجله البوحميدي الذي اقتحم أسوار مدينة وهران وعاد بغنائم وأسلاب كبيرة . فقد 75 امرأة واستولى على 150 فرنسا و 1,000 رأس من البقر وما يتراوح بين 5000 و 6000 رأس من الماشية من ممتلكات القبائل التي خضعت للحكومة الفرنسية .

والجدير بالذكر ، أن البوحميدي قام بمهاجمة أسوار وهران مرتين في هذه السنة ولَوْكَانَتْ معه بعض الصوارخ والمدافع ، لكان ، بدون شك ، قد أشعل النار في المدينة . ولكن هذه الأسلحة الضرورية جدا تعوز الأمير ، كما سبق أن ذكرت . إن كل ما يحتاج إليه الأمير للنجاح في هذه الحرب الصعبة ، هو كتيبة مدربة على استعمال الصوارخ وقطعتان من المدافع الخفيفة التي يديرها ضابط خبير . وأما « طعام البارود » كما يسمي نابليون بونابرت الجيش ، فهو متوفر بكثرة . إنني أعتقد أن العرب يشبهون الأفعى الأسطورية ، فكلما قطعت رأسا ظهرت مكانها عشرة رؤوس .

يعسكر الجيش الفرنسي في الوقت الحاضر عند « زيدة » . وقد وقعت اشتباكات منذ بضعة أيام بينه وبين العرب الذين كانوا يحاربون تحت أوامر صاحب السموّ الملكي نفسه . وقد ذكرت الأخبار التي وصلتنا أن خسائر العرب بلغت مائتي قتيل. وأما خسائر الفرنسيين فقد قدرت بمائة وخمسين قتيلا .

الفصل الحادي عشر

إن مرض صديقي السيد نويل مانوتشي يجعل من الضروري أن أقوم برحلتي الى أروبا بمفردي .

وجّهت رسالة إلى صاحب السموّ أقرّر فيها رأيي هذا ،وعلى الفور تلقيتُ أوامر منه بأن أتّجه إلى معسكره الذي يقع في الوقت الحاضر على نهر مينة . وتبعا لذلك ، فإني لم أضيّع أي وقت للقيام بالإستعداد ات الضرورية لرحلتي .

وفي مساء يوم 25 من الشهر ، قصدت إلى الزّمالة لكي أودع صديقي السيد مانوتشي الذي كان ملازما للفراش . وعندما وضعت جميع الترتيبات باتفاق معه ، قمت باستهلاك آخر قطرة من « روم » جمايكا القديم الذي أحضره لي السيد نيقولا مانوتشي من البليدة . وإثر ذلك ، تلقيت تمنيات من السيد مانوتشي ومن الجميع بأن أقوم بسفرة ممتعة عبر صحراء الأنكاد والمغرب الأقصى ، ثم امتطيت جوادي العربي الأصيل وألقيت نظرة وداع أخيرة على الزمالة ، معبرا عن أملي في أن أجدهم جميعا بخيروعافية لدى عودتي .

ولما وصلت إلى تكدمت ، طلبت الى القايد أن يعّين دليلا ليرافقني في الصباح الباكر يوم الغد في طريقي الى معسكر السلطان .

وفي صباح يوم 7 منه ، ودّعت السيد نويل مانوتشي الذي كان يقيم في تكدمت ، ثم أطلقت العنان لجوادي ، وفي رفقتي المترجم وخادمي (الجندي الفرنسي الهارب) وجندي من المخزن ووجهتي تيطوان التي لا يساورني سوى أمل ضئيل في الوصول إليها .

لقد صمّمت مهما كلفني ذلك ، على القيام بزيارة فاس . ونظرا لأنني كنتُ أعرف أنه سيكون من المستحيل الوصول إليها إذا أقمت بالسفر في مظاهرة رسمية ، فقد قرّرت أن أسافر مع قافلة . وحتى لا أترك لصاحب الجلالة سلطان المغرب أية فرصة يمنعني من الدخول إلى فاس ، قرّرت أن أضعه أمام الأمر الواقع بحيث لا يعرف بخبر وجودي في مملكته إلا بعدما يستقرّ بي المقام في فندق من فنادق المدينة .

قضينا هذه الليلة بين خيام بعض العرب على نهر مينة . وقد وضعتْ تحت تصرفي أحسن الخيم ، وهي لرئيس القبيلة نفسه . وقد عاملني بكل لطف وكرم ، لأنني كثيرا ما قابلته في تكدمت .

وفي يوم 28 كان علينا أن نمرَّ بأراضي قبيلتين أشتهرت بلصوصهما الخطيرين وبولائهما للفرنسيين . ونظر لمعرفتي بهذه الحقيقة فقد تقمصت شخصيّة ضابط فرنسي يحمل رسالة من الجنرال بيجو . الى الأمير عبد القادر . وهذه الخدعة قد أبقت على أمتعتي ، وربما ، على رأسي أيضا. ولكن هذا لم يمنعهم من الإستيلاء على كأسي التي كان مترجمي يحملها في « قلمون » برنوسه ! ونحن لم نكتشف هذه السرقة إلا عندما وصلنا إلى أول جدول ، حيث توقفنا وأردت أن أنظف حلقي من الغبار بقطرة من الكحول والماء . ولما بحثنا عن الكأس كانت قد اختفت .

ونظرا لعدم رغبتي في الوصول إلى معسكر الأمير في وقت متأخر في المساء ، فقد قرّرت التوقف في مكان على مسافة فرسخين منه في قرية عربية تمتد أراضيها على جبل واستعملت إحدى خيام القرية لقضاء الليل . ولم يكد يستقر بنا المقام حتى وصلنا عشاء طيب ، عبارة عن كسكس ودجاج مغلي ، وتناولت قدحا من الكحول التي بقيت معي ، فلمْ يكن ينقصني سوى سرير مريح لقضاء ليلتي على أحسن ما يرام .

على أن هذا من الكماليات التي أصبحت غريبة عني منذ ثمانية أشهر . وقد كان برنسي ووسادة من الحجر ، هما العوض عن حشية الريش والوسادة التي تعودت عليها .

وفي يوم 29 ، وصلنا الى معسكر السلطان على الساعة الحادية عشر صباحا . وقد ضرب هذا المعسكر في مكان خلاب الجمال على ضفة نهر مينة ، غير بعيد من خرائب خزان ضخم مبني بالحجر يبلغ عرضه نحو 70 ياردة وطوله ما يتراوح بين 15 و 20 قدما . وأنا أعتقد أنه كان يوجد في هذا المكان في الأزمنة القديمة عدد من الطواحن . وكذلك توجد على مسافة ميل من هذا الخزان ، خرائب مدينة وقلعة قديمة . وخرائب القلعة هي فيما يبدو ، من عهد الرومان . ونظرا لموقعها العسكري الحصين ، فإني أميل إلى الإعتقاد بأن هذه القلعة كانت مستودعا للدقيق أو للحبوب للجيش الروماني .

كان جيش الأمير في العراء ، والخيمة الوحيدة فيه (وهي تشبه خيمة الغجر) هي خيمة السلطان . ولما وصلت إلى مسافة قصيرة من المعسكر ، أرسلت مترجمي ليعلن للسلطان خبر وصولي .

كان السلطان منهمكا في محاكمة القبائل المخالفة والتي اكتشف اتصالاتها مع الفرنسيين . كان إصدار الحكم سريعا مثل تنفيذه . ومتى كان الحكم بالجلد ، استخدمت العصا بكفاءة ؛ وحينما تكون الغرامة هي العقاب ، يرسل جماعة من الجنود لاستخلاصها بدون توان . ومتى تعذر استخلاص الغرامة نقدا ، عاد الجنود بالجياد والبقر والماشية التي تساوي مبلغ الغرامة .

ولما لاحظ الأمير اليهودي / المسلم ، استدعاه إليه وأبلغه الأخير خبر وصولي . وقد أمر السلطان في الحال بإخلاء بقعة بجانب خيمته لكي أقدم فيها العلف لفرسي واستلقي بجانبه . وكذلك قصدتُ إلى البقعة لاحتلالها . ونظرا لأنه كان منشغلا ولأنني أكره المراسم الشكلية ، فإنني لم أقصد إلى السلطان لأقبل يده . وأنا على كل حال ، متأكد من أنه سيختار الوقت الملائم لاستدعائي .

ونظرا لأننا في شهر رمضان ، فإني لم أتوقع وجبة غداء . على أنه ، لدهشتي ، لم يمض سوى وقت قصير حتى رأيت أحد حجاب السلطان أمَامي حاملا معه سلة من التين تكفي لتغذية كتيبة من الجيش بأسرها ، وسلّة أخرى فيها عدة أرغفة من الدقيق الأبيض وقال الحاجب إني اذا كانت أرغب في شاة فسيأمر بذبح واحدة في الحال . ولكنني وقد تعودت الآن على شظف العيش وخشونته ، مثل السلطان نفسه ، فقد رجوت الحاجب أن يبلغ سموه أن ما بين يدي من الطعام يكفيني . وكذلك تناولت غذائي مع فنجان من القهوة بشهية كبيرة وشعرت بأن هذا الغداء لا يقل ترفا عن غداء الأريستوقراطي الأنجليزي الذي يبدأ بشربة السلحفاة . وبعد ذلك أخذت غليوني وشرعت في التدخين . والسجاير ، على كل حال لا يمكن الحصول عليها إلا في مناسبات متباعدة حين تصل من المغرب الأقصى .

وعندما شعرت بأنني أخذت قسطا من الراحة ، أخذت أتجول لاستكشف موقعنا الحالي .

وبعد نظرة متفحصة ، وجدت أن هذا الموقع ممتاز من الناحية العسكرية ، حيث أن الأمر لا يتطلب سوى وضع حارس على أحد جوانبه حيث أنه يمتد مع منعرج للنهر . والحراسة على كل حال ضرورية ، لا لتجنب مفاجآت العدو فحسب بل وأيضا لضمان عدم انطلاق الجياد من عقالها بالليل .

وبعد الفراغ من صلاة المغرب ، أحضر إلي صحن كبير من الكسكس ولحم الضأن المغلى ، كما أحضر صحن آخر لخادمي الفرنسي .

ولما فرغت من تناول القهوة ، لفَفْتُ سجادة الركوب واتخذت منها وسادة ووضعت معطفي على كتفي وأعددت نفسي للنوم ، وأنا مقتنع بأن السلطان لن يطلب مقابلتي قبل الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلا .

على أنني لم أكد أستغرق في غفوة حتى أيقضني الحاجب ليعلن إلي أن صاحب السمو يوجد الآن بمفرده وأنه يرغب في الإجتماع بي في خيمته .

ولما دخلت عليه في الخيمة أشار بيده إلى كاتبه لكي ينسحب . وبعد مراسيم تقبيل اليد العادية (أي أخذ يده وتقبيل يدي) أمرني بالجلوس إزاءه . وقد استمرت محادثتنا هذه حتى الساعة الواحدة صباحا .

وقد اتفقنا على أن يقوم السلطان بنفسه بإعداد الوثائق والأوراق التي احتاج اليها في مهمتي في اليوم التالي .

كانت محادثتي مع السلطان تتناول الشؤون الخارجية . وفي غضونها ، وجَّه إلي سموه أسئلة عديدة تتصل بتوازن القوى بين مختلف الدول الأروبية بحجم أسطول كل منها البحري وقواتها العسكرية ، وتجارتها الخارجية الخ .. وقد أعرب سموه عن تقديره بأن روسيا وأنجلترا هما أعظم الدول الأروبية . وقال لي أنه سمع كثيرا من الأخبار التي تتعلق بروسيا أثناء مروره بمصر في طريقه إلى مكة المكرمة .

وصرحلي سموه بأن عدم احترام الطرف الفرنسي لمعاهدة تافنا قد ترك في نفسه فكرة سيئة للغاية عن هذه الأمة وأنه لا يستطيع منح ثقته لأية معاهدة أخرى معهم .

وكذلك تناولت محادثاتنا بعض الهاربين الفرنسيين الذين دخلوا في خدمته ووضع ثقته فيهم ولكنهم خانوه جميعا في نهاية الأمر . وكان المرتد ليون روش مترجم بيجو حاليا وإبن رئيس بلدية وهران سابقا ، في مقدمة هؤلاء الخونة (1)

---

(1) ولد ليون روش (Roches) في جرينوبل في سنة 1810 وتخلى عن دراسته ليلحق بأبيه في الجزائر في سنة 1832 . وهناك عكف على دراسة اللغة العربية ثم عين مترجما محلفا في سنة 1835 . وبعدما وصل إلى رتبة ملازم أول في الخيالة ، رافق كلوزيل في حملته على المدية . وبعد توقيع معاهدة تافنا التحق بخدمة الأمير بعدما أعلن إسلامهُ بصورة مزيفة . وفي هذه الأثناء كان يعمل جاسوسا ويمد قنصل فرنسا بالمعلومات والأسرار . وفي أكتوبر سنة 1839 ، هرب وعاد إلى الجيش الفرنسي ليعمل مترجما عسكريا من الدرجة الثانية في خدمة فالي ثم عين كبير المترجمين في قيادة بيجو . وقد قام بجولة مزعومة بناء على تكليف بيجوإلى تونس ثم إلى مصر ومكة حيث عاد حاملا معه فتوى مزوّرة تبيح للجزائريين الإستسلام (1841—1842) . وهذه الأسفار محاطة بكثير من الشك بحيث يرى بعض الباحثين أن روش أخفى تنقلاته على بيجووأنه لم يكن قد غادر تونس ، أو على الأكثر وصل إلى القاهرة . وفي سنة 1844 ، شارك في الحرب المغربية الفرنسية ، ثم عين سكرتيرا في المفوضية الفرنسية في طنجة في سنة 1846 ، ثم قنصلا عاما في تريست ثم قنصلا عاما في طرابلس ، فقائما بالأعمال في تونس ثم قائما بالأعمال في اليابان . وبعدما أحيل على المعاش ، كتب مذكراته التي تحمل عنوان : « 32 عاما عبر الإسلام » التي نشرت في جزأين خلال 1884 1885 . وقد مات روش في يونيو 1901 .

فقد التجأ إلى الأمير الذي آواه وأدخله في أسراره وعامله كما يعامل الصديق وزوَّجه بإبنة إبن نونة حاكم تلمسان . ولكن هذا الوغد كان يتراسل سريا مع الفرنسيين وخصوصا ، مع قنصل فرنسا في معسكر ويقدم إليه نسخا من جميع الرسائل التي تبودلت بين الأمير وبين سلطان المغرب الأقصى . وعندما تبين أن الحرب واقعة لا محالة ، هرب إلى وهران تاركا وراءه زوجته المسكينة التي كان أمامها متسع من الوقت للندم لأنها تزوّجت جاسوسا حقيرا ووضعت ثقتها فيه .

والشخص الآخر الذي وضع فيه ثقته وكان برتبة قبطان قد غادره بعد وقت قصير وعاد إلى أهله .

وقد قلتُ للسلطان بكل براءة أنه هو المسؤول في هذه الحوادث لأنه وضع ثقته في أشخاص خانوا أوطانهم ولا يعقل أن يخدموا وطنا آخر بإخلاص . وقلت له كذلك ، إنني أنصحه بكل قوتي بأن لا يأخذ في خدمته في المستقبل مترجما إلا من بين اليهود من تيطوان أو من طنجة أو من بين رعاياه من العرب حيث أن رؤوس أسرته جميعا تظمن ولاءه وعدم هروبه إلى صف العدو . وإذا فوجيء وهو يقدم معلومات الى العدو فسيعرض رأسه هو للخطر جزاءا على خيانته .

وفي يوم 30 من الشهر ، حضر إلي الحاجب من قبل الأمير ، وعندما وصلت إلى خيمة السلطان ، وجدت أن سموّه قد أعدَّ جميع الوثائق ورتب جميع الأمور حسبما اتفقنا . وقد سلمني رسائل البوحميدي خليفة تلمسان وإلى عامل وجدة .

وقد رغب الأمير في أن يكون سفري عن طريق وهران بدلا من المغرب ، ولكن رغبتي في زيارة فاس كانت قوية ولذلك رجوت سموَّه في أن يأذن لي بالسفر عن طريق المغرب الأقصى ، وقدمت له عذرا بأنني لا أنظر بعين الإرتياح لأن أجد نفسي في يد الفرنسيين الذين قد يضايقونني ، كما ضايقوا السيد نويل مانوتشي في رحلته الأولى (*) ولربما منعوني من العودة .

(*) أرسل السيد مانوتشي إلى فرنسا مقيدا بالحديد ، بينما كان يعمل قائما بأعمال الأمير (تعليق المؤلف) .

وقد استمرتْ محادثتي مع السلطان حتى الساعة الحادية عشرة ، حينما لمح سموّه بأن بعض الأعمال تنتظره ، وأضاف قائلا إنه سيستقبلني في الصباح المبكر ، قبل سفري وتبعا لذلك ، فقد ودّعت سموّه . ولكنني لم أكد أخرج من خيمته حتى أخبرني الحاجب بأن السلطان خارج . ولما رفعت رأسي رأيت سموّه وهو يمتطي جواده ويغادر المعسكر بمرافقة حوالي مائة من رجاله .

وفي اليوم التالي ، علمت في الصباح أن السلطان قام بزيارة لأصدقائي اللصوص الذين خففوا حملي بالسطو على كأسي . ولم تكدْ الشمس تطلع حتى شاهدنا قطعانا من البقر والغنم والجياد تدخل إلى المعسكر . وقد علمت بمزيد الإغتباط أن حوالي سبعين من رجال القبيلة قد سقطوا في المعركة ، بينما ترك الباقي ليتصلوا بالفرنسيين ليخبروهم أن في إمكانهم أن يلتحقوا بهم ، بعدما خفف الأمير عنهم كل أثقالهم فيما عدا نسائهم وأطفالهم الذين لم يكن في حاجة إليهم .

وعندما استيقظتُ في الصباح ، وقعتْ عيني ، أول ما وقعت ، على السلطان وهو جالس حول موقد نار في الخلاء وفي ميعته شخص غريب حقا . فقد أقلق نومنا طوال الليل رجل معتوه بصياحه ولغطه ، وها هو الآن يجلس في ميعة السلطان بهدوء واتزان ويوجه إليه الخطاب بكل رباطة جأش ، بينما كان يكيل لَهُ السب والشتم المقذع في الليلة الماضية بصورة تجعله يود أن يقصر قامته بقطع رأسه . فقد كان يصفُ الأمير بمختلف النعوت المخجلة ، بما في ذلك « الكافر » ، (*) بينما كان سموّه يبتسم ويأمر بأن يقدّم إليه شيء من الطعام . وعلى سبيل المجاملة والشكر ، ردّ عليه الرجل بعبارة « الكلب بن الكلب » (*) .

يا له من فرق كبير بين منظر السلطان الآن ، ومنظره منذ أربع ساعات . لقد خلع سيفه الآن ووضعه بجانبه !

(*) بالعربية في الأصل .

كل شيء جاهز الآن لسفري . قصدتُ إلى الأمير ومدّ إلي يده مصافحا على الطريقة الأنجليزية وودعني متمنيا لي النجاح في المهمة الخطيرة التي ألقيت على عاتقي . وبعد ذلك نادى الضباط الذين اختارهم لمرافقتي إلى تلمسان وأمرهم بامتطاء جيادهم .

وللمرة الأخيرة ودعت السلطان متمنيا النجاح التام والنصر المبين لأسلحته .

وبعدما غادرت المعسكر ، وجدت أن حرسي يتكون من الآغا ، قائد حرس السلطان الشخصي ، ومن شخص شاب جميل الطلعة ، وهو إبن قائد القوات غير النظامية لولاية تلمسان ، ومع الضابطين جندي يعمل تحت أوامر الآغا . وقد مضينا في طريقنا محاذين لخط مستغانم وعلى مقربة من المدينة بحيث كان رجال من قوة السلطان المحاصرة لمستغانم يأتون إلينا بين الحين والحين ليسألونا عن هويتنا .

كان الآغا يضايقني كثيرا بترديد كلمة « فيسَعْ ، فِيسَعْ » (*) . ولكنني ، وأنا لا أرغب في إرهاق البغل الذي يحمل أثقالي ، فقدْت صبري وقلت له إن في استطاعته أن يسير هو « فيسع » إذا كان يخاف من أزيز الرصاص على أذنيه الحساستين ، بل وأن يذهب إلى الجحيم إذا شاء ذلك . ولكيْ أعطيَ له حجة عملية تؤيد أقوالي نزلت من فرسي والتجأت إلى ظل شجرة واستلقيت تحتها .

ولما اتّضح للجميع أنني لا أحتمل المزيد من الهذيان ، تقدم إلي إبن الآغا وترجماني في أدب الا أعير الآغا العجوز أي اهتمام ، حيث أنهم لا ينوون تركي وحدي . وقال إن أوامر السلطان هي أن نصل بك سلما إلى معسكر الخليفة البوحميدي في تلمسان .

لقد حملني هذا الشاب الذي كنت أميل إليه كثيرا على استئناف السير بعدما اشترطت أنه لن يكون هناك « فيسع » (*) بعد الآن .

لما حل الليل ، كنا قد وصلنا إلى نهر سيق . كان الظلام يغطينا كلية تقريبا ، ولكن الآغا العجوز كان مصمّما مع ذلك على أن نواصل السير . وإثر ذلك تمنيت

(*) بالعربية في الأصل .

له ليلة سعيدة وسفرا ميمونا ، ثم اتجهت إلى قرية كانت قريبة من الطريق . وعند ذلك انفجر صديقي الضابط الشاب بالضحك للطريقه التي اسوي بها مشكلاتي مع صديقي العجوز الذي اضطر الآن الى اقتفاء اثرنا . وكأنما أراد أن يصلح الامور التي ساءت بيننا فقد بذل جهدا كبيرا لجمع العرب لكي يقيموا خيمة لنا ويزودونا بكل ما نحتاج إليه

وفي الليل وصل رسول من السلطان لينذر القبائل المجاورة بأن الجيش الفرنسي قد وضع خطة للخروج إليها وأنه يجب عليها أن تنتقل في الحال إلى الداخل . وعند منتصف الليل نهضنا ومضينا في طريقنا ، ولم نصل إلى المكان الذي نقضي فيه ليلتنا حتى طلعت شمس اليوم التالي وكان المكان الذي ننزل فيه ، هو زمالة والد صديقي الشاب (آغا القوات غير النظامية) . وهنا تدفقت علينا النعم ، من الطيور واللحم المشوي والضأن المغلي وعدة أنواع من الكسكس . وكذلك أمدّتنا السيدات بأنواع الكعك والعسل . وأما القهوة والسكر فقد قمت بتوفيرها على حسابي . وقد قضينا طيلة الليلة التالية حتى الساعة الثالثة صباحا في الأكل والتمتع والقهوة . وبعد ذلك ، غفونا لمدة ساعتين حتى الساعة الخامسة ثم نفضنا النعاس عن أعيننا وأستأنفنا رحلتنا .

وفي يوم 2 من نوفمبر ، توقفنا عند نهر مقرة (1) حيث تقطن قبيلة دليلي العجوز . كان القمر الوليد ساطعا في الليل ، وقد تجمع جمهور عفير خارج الخيام لمشاهدته . فإن هذا القمر يؤذن بانتهاء شهر رمضان . ومتى كان الجوّ ملبَّدا بالسحاب ، بحيث يحجب القمر ، تحتم على المؤمنين مواصلة الصيام حتى يشاهدوا القمر . وإذا شوهد القمر في جهة من جهات القطر ، أرسلت الرسل على جناح السرعة لتبلغ الجهات الأخرى بظهوره ، وبالتالي بإنتهاء شهر الصيام . والشرط في صحة الرؤية ، هي أن يشاهد القمر شاهد ان عدلان أو أكثر ، ويحلفان أمام القاضي في المنطقة التي رأوا فيها القمر . وعند ذلك ينتهي الصيام وتبدأ الإحتفالات والأفراح بعيد الفطر .

---

(1) هو الاسم الذي يحمله نهر سيق في أعاليه .

كان مضيفونا حريصين وألحوا علينا في أن نبقى لقضاء العيد معهم في اليوم التالي ، ولكنني كنت شديد الرغبة في أن أصل إلى تلمسان في أقرب وقت ، ولذلك فقد اعتذرت عن قبول ضيافتهم الكريمة ، فواصلنا مسيرنا في اليوم التالي .

كان الأمير قد أعطاني رسائل إلى البوحميدي ، ولكنني وجدتُ أن السفر إلى معسكر الخليفة سيضيّع عليَّ يوما واحداً ؛ ولذلك قرّرت السفر إلى تلمسان مباشرة . وأما صديقي الآغا العجوز ، فقد كان حريصا على الاتجاه إلى معسكر البوحميدي ، ولذلك ، فقد غالطني عدة مرات وضلّلني الطريق . ولكنّني أعطيتُ البغّال أوامر صارمة بأن يبلغني كل محاولة يقوم بها لتحويلنا عن طريقنا إلى تلمسان . وقد كانت خطّتي هي أن أتركه يسير في الطريق التي اختارها بينما اقتفى أثر البغال في الطريق التي يسلكها . وكانت النتيجة أنه أدرك أنه عاجز عن مغالطتي بطرق أخرى .

قلتُ للمترجم أن يقول عني إنني أريد أن أتجه إلى معسكر البوحميدي . وأما الآغا الشاب والجندي ، فقد تظاهرا بأنهما يريدان تركنا لتسليم بعض الرسائل لأصدقائهما ، وذلك لكيْ يتركا الفرصة للآغا العجوز ليحل مشاكله معي بالطريقة التي يستطيعها .

لم يلبث الأمر أن سوّي عندما وصلنا إلى ملتقى طريقين ؛ الطريق التي تؤدي إلى معسكر البوحميدي والطريق التي تؤدي إلى تلمسان . فإن صديقي العجوز قال للمترجم إنه يجب علينا أن نسلك الطريق المؤدية إلى البوحميدي . ونظراً لعدم مقدرتي على أن أعبّر للرجل عن امتعاضي واستنكاري القوي لسلوكه باللغة العربية ، فقد جرّدت سيفي من غمده في الحال وقلت له إنه يتحتم علينا (كما يقول شكسبير) أن نجد للأمر «خاتمة» ، وسوف لا يستطيع أحدنا الإتجاه إلى البوحميدي أو إلى تلمسان . وبعدما وجّهت البغال والمترجم في طريق تلمسان ، توقفت عن السير . ولكن الآغا أصبح عند هذه النقطة يذوب لطفا ورقة . وقد اعترف لي بأنه سَيَسْلك الطريق التي أريدها ، ولكنه أضاف بأنه إنما أراد أخذي الى البوحميدي تنفيذا لتعليمات السلطان الذي كتب الى البوحميدي يطلب إليه أن يعطيني فرسا وجلود أسد . أما انا فقد عرفت بامر هذا الفرس

وبأوامر السلطان ، ولكنني فضلت تركه عند البوحميدي ، حيث أعرف أنه ليس في استطاعتي الإبحار به من تيطوان .

وعندما التحق بنا صديقي الآغا الشاب ، ضحكنا كثيرا من هذه الحادثة .

قضينا ليلتنا في قرية عربية كبيرة في الوقت الذي تقدمني فيه بعض مرافقي إلى الجبل حاملين معهم رسائل إلى والد الآغا ابن هادي الشاب وقد حضر إلي بنفسه يوم الغد مع رفقائي . أخبرني الآغا أن جيشا فرنسيا قد غادر وهران وأنه لم يعرف بعد اتجاههم . ولكن الإعتقاد السائد هو أنه يتجه إلى تلمسان . وقلت للآغا أنني واثق من أن العدوّ لا ينوي احتلال تلمسان في الوقت الحاضر ، حيث أنهم لا يملكون قوات كافية لهذه الغاية ؛ ولكن المرجح هو أنهم ينوون القيام بغزوة لمحو عار الهزيمة التي ألحقها البوحميدي مـؤخـراً بهم .

أزاء تحركات العدو ، اضطر الآغا إلى العودة ليكون بجانب السلطان . وأما صديقي ابن هادي ، فقد بقي مع والده الذي وجَّه اثنين من جنوده لمرافقتي إلى تلمسان وحملهما رسائل الى بنونة وإلى ابن موسي ، الخزنجي العام ، والى قائد القرية التي سنمر بها ، يأمره بأن يستعدوا لإيوائنا لقضاء الليل . ودّعت هذا الآغا مع تأكيدات متبادلة بالصداقة والمودة . إن وجهه الوضاح وحده يكفي ضمانا لهذه الصداقة . إن تقاسيم وجهه تشبه جون بول ، وأما جسمه المكتنز ، فهو يشبه جسم مزارع غني . وأما ابن هادي الشاب ، فقد ودّعني في عناق ودي ، وقد وعد بأن يأتي لملاقاتي عند عودتي إلى الجزائر .

قضينا ليلتنا في مخيمات القبيلة العربية التي أوصاها بنا الآغا خيرا ، فلقينا بينها كل عطف وكرم . وقد علمت أن قائد القرية متزوج بأخت الآغا .

وفي صبيحة يوم 5 من الشهر ، وصلنا الى تلمسان على الساعة الحادية عشرة . وقد كنت وجهت الجنديين ليحملا رسائل الى بنونة . ولما وصلت الى باب المدينة ، وجدت حاجبين في انتظاري ليقوداني الى المشور ، أو الحصن الذي يضم قاعة

المحكمة . وهناك قابلت ابن نونة الذي أخبرني أنه تلقي رسائل من السلطان (الرسائل التي وجهتها إليه) يطلب إلي فيها أن أعتني كل العناية بصديقه .

وقد سألني ابن نونة رأيي بشأن تحركات القوات الفرنسية ، فعبرت له عن نفس الرأي الذي أعطيته للآغا ، وبعدما وعدته بأن أقوم بزيارته في اليوم التالي ، استأذنت منه وانصرفت . وقد أرسل معي حاجبين ليقوداني إلى المنزل الذي أعدّه لإقامتي في الحي اليهودي في المدينة كما أصدر أوامر إلى شيخ الحي بأن يقدم إلي كل ما أحتاج إليه على حساب الحكومة . ولم أكد أستقر في المنزل ، حتى جاءني شيخان يهوديان ومعهما خدم يحملون إليَّ مختلف أنواع الطعام .

وكذلك حضر إلي صمويل ابنصور لمقابلتي بمجرد ما سمع بمقدمي . وبعدَمَا تناولنا بعض المرطبات ، رافقته لزيارة كنديدو المسكين . وجدت البائس تقريبا في حالة احتضار.

إن الحلم كثيرا ما يتحول إلى حقيقة . وهذا ما سيتضح من ذلك الحلم الذي رآه المسكين وقصه على ابنصور منذ بضعة أيام قبل وصولي . رأى في الحلم أنني قد وصلت إلى تلمسان على متن جواد أبيض (كان جواديْ في الزمالة عندما تركني كستنائي اللون) وأنني في طريقي الى تيطوان، وعلى الرغم من حالته الخطيرة فقد قبل المسكين يدي بحرارة .

وبعدما أعطيت تعليمات بشأن ما ينبغي عمله للتخفيف من خطورة حالتـه ، أوصيته بأن يحتفظ بروحه المعنوية ، قائلا أنه مهما يحدث ، فسوف أصحبه معي إلى تيطوان ، وهناك سأتركه في معيّة مترجمي حتى أعود إلى الجزائر.

قصدت إلى السيد ابن موسى للحصول على معلومات منه بشأن موعد سفر أول قافلة إلى وجدة. ولما عرفت منه أن قافلة ستسافر بعد بضعة أيام ، عُدْت إلى منزلي وتناولت العشاء مبكرا ثم استلقيت على فراشي لآخذ بعض الراحة التي كنت في أشد الحاجة إليها بعد العناء والتعب الذي عرفته في غضون الأيام العشرة الماضية .

لم تكَد الساعة تدق العاشرة عندما سمعت ابنصور يطرق على باب الدار ليخبرني بأن الجيش الفرنسي يقترب من المدينة وأن السكان يستعدون للجلاء عنها . ولكن معرفتي بأن من الصعب عمل أي شيء في غسق الليل ، جعلتني أقول لمترجمي وللخادم أن يلزم كل واحد منهما فراشه مثلي وينتظر الصباح .

ولما أصبح الصباح أدركت على الفور أن هذا اليوم يوم فرار ، وخرجت إلى الساحة العمومية حيث وجدت البوحميدي الذي وصل إلى المدينة على رأس جيش .

كان الخليفة وسط كوكبة من الفرسان يبلغ عدد أفرادها خمسين فارسا ، ويرتدي أفخر الثياب ، بينما تتدلى من عنقه سلسلة من الذهب ، وفي يده عصا جميلة شبيهة بعصا المريشال .

رجوته أن يزودني بأكبر عدد ممكن من البغال أو الجمال لكي أنقذ كمية من البارود هي ملك للسيد مانوتشي كان قد أودعها عند السيد ابنصور هنا . وقد وعدني بأن يستجيب لــرغــبتي .

وبعد مضي الوقت المعين ولم أر بغلا أو جملا في طريقه إلى منزلي ، عُدتُ مرة أخرى إلى الساحة العمومية لأتعارك مع البوحميدي . ولكن الخليفة كان قد غادر الساحة العمومية . وعند ذلك فقط ، أدركت أن الوقت قد حان لكي أغادرها أنا أيضا !

فإن جنود البوحميدي قد أخلوا الحي اليهودي من سكانه ، وقد امرهم ان يتركوا وفي منازلهم كل ما يعجزون عن نقله على ظهورهم أو على حيواناتهم .

وفي نفس الوقت كان عدد من الأشخاص المشبوه فيهم ، وهم ، بدون شك ، ينتمون إلى قبيلة الأنكاد التي اشتهرت بلصوصها الخطيرين يتسكعون في الطرقات منتظرين خروج الجنود من الحي اليهودي لكي ينقضوا عليه لنهبه .

وهكذا أدركت أنه لم يعدْ أمامي وقت أضيّعه ...

وأما ابن نونة ، فقد اتجه إلى وجدة . وكذلك قرّرت أن أسير في إثره ، مستغنياً على بغال البوحميدي وجماله ، ومستغنيا بما لدي من الوسائل المتواضعة . كان لدي

ابنصور بغل ، ولدي جوادي و بغل ، وقد سرنا بهذه الحيوانات ولا نحمل سوى الاشياء الضرورية . والمشكلة الوحيدة التي كانت تقلقنا ، هي كيف ننقل كنديدو المسكين . إنه لا يستطيع الركوب إذا لم يكن مشدود إلى الحيوان كما لا يمكنه النزول دون أن ينقله أحد . وبغل ابنصور ، مثل بغلي غير مزودين بأية وسائل لشده على ظهر أحدهما بطريقة مريحة ، وذلك فضلا عن أنهما مثقلان بـ « الشواري » (*) وما فيها من المتاع .

وأزاء هذه الظروف وأزاء ما توقّعته من الصعوبات في طريق الهروب أمام الزحف الفرنسي ، قرّرت أن أكتفي بكتابة رسالة ليسلّمها كنديدو إلى قائد القوات الفرنسية ، إذا دخلت المدينة . وإذا لم يدخلوها ، فقد صمّمت على أن نعود إليها في صباح اليوم التـالي .

وكذلك كتبت بضع فقرات ووجهتها إلى كنديدو مع أرغفة من الخبز وقربة ماء تكفيه لمدة ثلاثة أيام ، حملها إليه خادمي الفرنسي ، ثم مضينا في اتجاه باب وجدة .

وفي هذه الأثناء ، كان عربان الأنكاد قد بدأوا أعمالهم في النهب وكانت الصيحات تتعالى من بعض المنازل ، في الوقت الذي كنا فيه ننزل في طريقنا إلى أسفل المدينة .

ولما وجدنا أنفسنا خارج المدينة شاهدنا منظراً لا يمكن وصفه ولا يستطيع تصوّره سوى أولئك الذين رَأوا مثله في أوقات الحروب — نساء يحملن أطفالا يصرخون ، بغالا وجيادا تسقط تحت ثقل أحمالها ، أشخاصا يشتبكون مع آخرين لأنهم يمشون على أمتعتهم ومقتنياتهم ، وآخرين يسدون الطريق بأحمالهم . وقد اختلط بهذه الجموع لصوص من عربان الأنكاد الذين يحملون في أيديهم عصيا وهراوات يبلغ طولها ثلاثة أقدام وعليها عجزة تزيد عن حجم قبضتي يدين مجتمعتين ، مرصوصة بالمسامير وتكفي لقتل ثور . إنهم يقفون هنا وهناك كالنسور الجائعة التي تنتظر اللحظة الملائمة لتنقض على فريستها .

قررت أن أنتظر بعض الوقت عسى أن يصدر أمر آخر بالبقاء في المدينة ، لأنني كنت مقتنعا بأن الفرنسيين لا ينوون الاستيلاء على تلمسان في الظروف الحالية ، فحِدْت

(*) الكلمة بالعربية في الأصل .

برفقاي عن الطريق ثم أرسلت السيد ابنصور ليبحث عن بغل يستأجره من العرب ، إن أمكن ذلك. وقد نجح في الحصول على بغل وعاد به مع خادمي الفرنسي إلى المدينة لينقذ برملين من البارود . ولكن هذه الحركة كانت محفوفة بالمخاطير ، حيث كان العربان قد بسطوا الآن سيطرتهم على تلمسان ، على أن الحظ ساعده بالعودة إلينا سليما .

وعقب وصوله ، مضينا في طريقنا إلى قرية رأس بون التي تقع على يسار الطريق إلى وجدة ، على مسافة ثلاثة أميال من تلمسان . وهنا تمكنت من استئجار غرفة بدولارين وهو السعر المطلوب ، سواء أقمت فيها يوما واحدا أو شهرا كاملا . وقد كان العدد الكبير من يهود تلمسان اللذين التجأوا إلى هذه القرية يجعل من المستحيل العثور على منزل أو غرفة فيها .

مرّ المساء دون أن يحمل في طياته أخباراً جديدة . ولكننا في الصباح ، علمنا بأخبار السطو على ممتلكات بعض اليهود ، الذين كانوا في طريقهم للإلتحاق بابن نونة الذي كان ينزل في قرية عربية غير بعيدة على مسافة نحو ثلاثة أميال على الطريق إلى وجدة ، بعد قريتنا .

عرض السيد ابنصور أن يحمل إليه رسالة مني ، فكتبتُ رسالة أطلب إليه فيها أن يَبْعث إلي بجنود لحراستي وأخبرته برغبتي في اللحاق به .

أرسل إليّ ضابطا وثلاثة جنود ، ولكن هؤلاء كانت رغبتهم في العودة إلى تلمسان أقوى من رغبتهم في السير معي إلى إبن نونة . وكذلك اتجهوا إلى تلمسان ليشاركوا في السَّلب والنهب وقالوا بالعربية إنه يمكنني أن أذهب أنا والسلطان إلى الجحيم إن شِئْنا . وهذه الحادثة ستعطي فكرة للقارىء عن الأحداث التي تلت .

وكذلك قررت الآن أن أضبط أعصابي وأستعين بالصبر لانتظار ما سيحمله الغد من أنباء جديدة . وما سيحمله الغد أعْطَتْني عنه مضيفتي فكرة صامتة ولكنها بليغة في الدلالة ، حين جرَّتْ إصبعها على نحرها في حركة مفهومة .

وفي اليوم التالي ، قرّر اليهود جميعا أن يتجهوا إلى معسكر ابن نونة للإستئجار به . وكذلك قرّرت أن أقوم أيضا بنفس الخطْوة . ولكن الجماعة الأولى من اليهود الذين اتجهوا إلى إبن نونة تعرضت لهجوم اللصوص من الأنكاد الذين سلبوهم كل ما يملكون وتركوهم في حالة عري ، مما اضطرهم إلى العودة أدراجهم إلى القرية .

وهذا النجاح الأولي شجع اللصوص على شن هجوم على القرية كلها لنهبها . على أن الحظ أسعفنا بصدهم عنها .

كان الرصاص ينطلق في كل اتجاه . ولذلك فقد قرّرت إعادة « الشواري » إلى المنزل . ولكنني فوجئت بمضيفي يمنعني من ذلك ، بل ومن الدخول إلى المنزل بتاتـا ، حيث وقف هو وصديق له عند الباب ورفضوا السماح لنا بالدخول .

وازاء تعقد المشاكل بهذه الطريقة ، قرّرت إشعال غليوني ، والإنتظار لأرى كيف تتطور الأمور .

وعندما حاولت الدخول إلى المنزل من جديد لأبحث عن عود كبريت فوجئت بأن وجدتُ بندقيتين مسددتين إلى صدري ، ولكنني أبلغت مضيفي بهدوء أنه إذا أراد أن يقتل مندوب السلطان ووكيله فاليفعل ، ولكن ذلك سيكلفه ثمنا غاليا . وبحركة من يدي أدرت بندقيتي مضيفي وصديقه جانبا . أعقبت هذه الحركة لحظة قرأت خلالها في عيني الخبثين أنهما على وشك الضغط على الزناد ، ولكنهما فكرا قليلا وتركاني أدخل. والسبب الذي حمل مضيفي على عدم السماح لي بالدخول إلى غرفتي ، هو أنه أغتنم ما ساد من الهرج والمرج ، فسرق سجادا كبيرا كان يغطي أحمالنا . ولما اكتشفتُ هذه السرقة ، بعثتُ إلى القائد وأطلعته على أوراق اعتمادي من صاحب السموّ وطلبت إليه أن يجري تفتيشا للبحث عنها . وعند ذلك ، وجه أربعة جنود إلى المنزل للتفتيش فوجدوا السجاد وغيره من الأمتعة وقد وضعت في غرفة نوم كان النساء يجلسن فيها . على أن زيي العسكري وثلاثمائة دولار من الذهب قد اختفت إلى الأبد ، حيث لم انتبه إلى أمرها إلا بعد فوات الوقت .

لقد أصبح من الواضح من الطريقة التي عومل بها الفوج الأول من اللاجئين الذين يريدون الإحتماء بابن نونة ، أنه من المستحيل علي السير في هذا الإتجاه دون حراسة عسكـــريـــة .

وفي هذه الأثناء ، توصل اليهود إلى اتفاق مع شبان القرية العرب بأن يرافقوهم للحماية في مقابل ماثة دولار . وقد نصحني القايد أن أسير في رقتهم وأعطي تعليمات صارمة لهؤلاء الحرس بحراسة الجماعة التي تسير معي حراسة مشددة أعددت البغال للمشي ، وأما فرسي ، فقد أصيب بجرح في ظهره ولذلك فقد سرت مشيا على الأقدام . ولما اكتمل الركب مضينا في طريقنا بينما كان عدد كبير من العربان يحومون حولنا . ولكنه ، لحسن الحظ ، لم يكن يحمل أسلحة نارية إلا عدد قليل منهم ، ولو أن معظمهم كانوا يحملون هراوات .

اتخذت احتياطاتي بحيث أبقى في وسط الركب ، تاركا عددا من اليهود يسبقون ليتحملوا الصدمة الأولى ، وعددا آخر في الوراء ليقدموا الأنذار في الوقت لما عسى أن يـحــدث .

ولما وصلنا إلى المضيق الذي كان علينا أن نمر به ، توقف حرسنا ورفضوا المضي قدما إذا لم يحصلوا على مبلغ مائة دولار إضافي . وبالطبع ، فإن الجميع فضلوا دفع المبلغ على أن ينهب اللصوص كل ما يملكون . وبعدما وعد اليهود بدفع الفارق ، استأنفنا رحلتنا .

وفي الوقت الذي كانت فيه الصرخات تصدم أسماعنا من الوراء متعالية من الأشخاص الذين تعرضوا للسلب ، كانت الطلقات النارية تأخذ كل اتجاه في المقدمة ، بينما كانت عصابات اللصوص من الأنكاد تتجمع فوق الجبال المجاورة . وإزاء هذه الحالة ، لم يتمالك مترجمي أعصابه ، فأخذ يناول نفسه الكأس تلو الكأس من زجاجة الكحول التي بقيت معي .

ولما وصلنا إلى القرية العربية التي عسكر فيها ابن نونة ، علمنا أنه رحل عنها في الصباح المبكر في طريقه إلى وجدة ، بعدما دفع مبلغ ألف دولار لرئيس قبيلة الأنكاد في مقابل السماح له بالمرور سليما في أراضي القبيلة العاصية .

وازاء هذه الظروف ، قرّرنا المسير إلى قرية الكاف .

وقبل أن نصل إلى غايتنا بوقت قصير ، أوقف الركب وطلب إلي جندي أن أخرج ببغالي وابتعد مسافة عن الركب . وعند هذه النقطة ، أدركت ماذا سيحدث ، فرحت أساعد مترجمي في تناول بعض الكحول .

وفي هذه الأثناء أخذ العرب الحراس يجمعون من اليهود المبالغ التي وعدوا بها ، ومن تردد في دفع حصته تلقى إشارة بأن الهراوة لن تلبث أن تنزل على رأسه . وبعدما تم جمع المبلغ ، واصلنا سفرنا إلى الكاف . ولما وصلنا إلى هناك ، عرفنا أن الركب فقد ثلاثة من القتلى كما جرح أربعة أو خمسة آخرون .

* * *

الفصل الثاني عشر

الكاف ، قرية لا تخضع للأمير عبد القادر الا إسميا ، وبالتالي ، فلا توجد فيها إدارة يتوّجها قايد ، وإنما يتولّى شؤونها مرابطون من أبنائها ، وكذلك اتجهت إلى شيخ المرابطين فيها . ولحسن الحظ أنني وجدت فيه رجلا نبيلا من الأشراف اسمه مصطفى .

ولما أطلعته على أوراق اعتمادي من الأمير ، أقسم لي بالله وبِلَحْيته أنه سيمنحُني الحماية ويمنع عني كل ضرر ، وقد أخذني إلى منزله وخصص لإقامتي فيه أحسن الغرف ، وهي غرفة بائسة حقا . ولكنني هنا ، على الأقل أتمتع بالأمن والسلامة ، حتى تتاح الفرصة لمواصلة سفري .

وقرية الكاف تقع في مكان جميل للغاية ، في جبل يجري عند سفحه نهر تافنا بمياهه الفضية المتدفقة . وهذه القرية كانت محطَّة في عهد الرومان ، ولكنها فيما بعد ، وقعت في يد المسيحيين الذين لم يكونوا يعيشون في منازل بل في مغارات محفورة في الحجر على شاطيء النهر في مكان يرتفع فيه الجبل بصورة عمودية تقريبا . وهذه المغارات لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق مضيق وعر يصعد من ضفة النهر . وقد أحصيت ستين من هذه المغارات التي كانت تستعمل بدل المنازل . وأما ضوء النهار ، فإنما يدخل إليها من فرجات قدت من الحجر .

والمغارة الرئيسية من بينها تحتوي على ثلاث غرف يتصل بعضها ببعض . والغرفة الخارجية منها يبلغ طولها عشرين قدما وعرضها اثني عشر قدما ؛ والثانية اثني عشر قدما في ستة عشرة قدما . وأما الغرفة الثالثة التي تستعمل للنوم ، فيبلغ طولها اثني عشر قدما في ثمانية أقدام . وفي جانبها حفر مكان في الصخر لوضع فراش فيه ، يرتفع بنحو ثلاثة أقدام على الأرض ويبلغ طوله أربعة أقدام في عرض ستة أقدام .

وفي جميع هذه الغرف توجد مقاعد قُدّت من الصخر في حيطانها . وسكان هذه المغارات من المسيحيين . لم يكن لديهم ما يخافون منه من الخارج ، حيث أن الممرّ الضيق الذي يصعد إليها يقع تحت نظر الرائي من النوافذ . وبذلك يمكن لخمسين شخصا أن يدافعوا على أنفسهم في هذا الموقع ضد آلف من المهاجمين .

وعلى مسافة نحو ميل من الكاف ، يقف عمود معمول في شكل أوعية وضع أحدها فوق الآخر ، مما يدل على وجود معبد في هذا المكان في الأزمنة الغابرة ، ولكنه مع ذلك ، لم أعثر على حجر واحد يمكن اعتباره أثرا لهذا المعبد .

وفي محادثة أجريتها اليوم ، مع صديقي مصطفى ، قال لي أنه توجد نبؤة ستحقق بالتأكيد ، تقول بأن ابن أخ له سوف يحكم هذا البلد بأسره . وقال أن هذا المرابط ، أي المغفل ، المرشح لحكم البلد ، كثيرا ما يسافر إلى تيطوان أو طنجة بالليل ويعود إلى داره مع الصبح . وفي مناسبات أخرى ، يسافر إلى مليانة ويعود بنفس السرعة . ومضيفي يولي أهمية عظمى لهذا السير بالليل ، وبالتالي فهو يعتقد أن ابن أخيه آعظم منه شأنا !

ومهما يكن من أمر ، فإني مضطر إلى التظاهر بتصديق خرافاته ، وبذلك فُزْتُ باحترامه وتقديره ، بل إنني بالغت ورجوته أن يقدم احتراماتي إلى هذا المسافر الذي لا يفترّ ووعدني بأن يفعل ذلك كما وعدني بعطفه وحمايته حينما يرتقي عرش بلده ...

وفي اليوم التالي وقعت جماعة من اليهود المسافرين في نفس الطريق ضحية لعدوان اللصوص الذين قتلوا منهم اثني عشر شخصا واحتفظوا بالباقي رهائن حتى يفديهم بنو جلدتهم بمعدل 3 دولارات للشخص الواحد .

كنت شديد القلق عما يمكن أن يكون قد حدث لكنديدو المسكين . وقد عثرت على عربي كان يتجه إلى تلمسان ، فطلبت إليه أن يقصد إلى المنزل الذي يقيم فيه ويتأكد مما إذا كان لا يزال على قيد الحياة . ولما عاد أخبرني بأن المدينة نهبت عن آخرها وحتى أبواب المنازل حطِّمت لكي يستولي اللصوص على ما فيها من المسامير . وأما براميل البرود التي تركتها ورائي ، فقد أفرغت من محتواها وتركت مرمية على الأرض مع بقايا مرآة محطمة ويهودي مذبوح .

وأما كنديدو فقد كان ميتا ولكنه لم يتعرض لأعمال العنف . والمرجح أنه مات من الخوف والرعب عندما شاهد نهب المنزل .

إن الطريق من هنا إلى وجدة يمر بأراضي قبيلة أنكاد الذين لا يعترفون بسلطة الأمير عبد القادر (1) ولا بسلطة السلطان عبد الرحمن . والمرور عبر هذه الأراضي مستحيل إلا إذا كان ضمن قافلة كبيرة . ولهذا السبب ،قررت البقاء هنا حتى تمر قافلة مهمة ، أو يقرر صديقي مصطفى أن في إمكانه أن يضمن سلامتي في السفر .

وكذلك مرت خمسة أوستة أيام وأنا في هذه الحالة — حالة الإنتظار والإضطراب النفسي الشنيع . ونحن طيلة هذه المدة لا نسمع إلا قصص السلب والنهب والقتل في جميع الجهات . ومما زاد الطين بلة أن سكان الكاف قد دخلوا في خصام مع قرية مجاورة لأسباب تتصل بنهب تلمسان . وفي معركة جرت بين القريتين ، سقط عدد من القتلى من كلا الجانبين .

وفي اليوم السادس من إقامتنا في هذه القرية ، لبس صديقي مصطفى أحسن ثيابه وسار وراءه أربعة من أتباعه يحمل علما كبيرا أحمر اللون على عمود ، في مهمة لعقد الصلح. وقد حمل اثنان من أتباعهم بنادق معلقة على أكتافهم .

وفي غيبة مضيفي الكريم ، وُضِعَتْ خطة في القرية لاغتيالنا ولسلب أمتعتنا أبلغني أياها ابن صديقي مصطفى ، وهو يبلغ الثامنة عشرة من العمر . وأخبرني أن المتآمرين قد

(1) بل إن الأنكاد الشراقة كانت تعترف بسلطة الأمير كما سبق أن أشرنا إلى ذلك أعلاه .

طلبوا إليه أن يتغيب عن منزل الأسرة في الليلة التالية ، التي كان من المفروض أن تكون آخر ليلة في حياتي . ولكن الشاب أكد لي في نفس الوقت بأنهم لن يصلوا إلى غرضهم إلا إذا مروا على جثته .

وعند ذلك ، عقَدتُ مجلسا حربيا مع ابنصور ، وهو الشخص الوحيد الذي أستطيع الإعتماد على شجاعته . وكذلك توصلنا إلى الحل التالي :

إن العربان يكرهون الفشل عندما يحاولون السرقة . وهم في هذه الحالة يعرفون أن الجحيم مصيرهم إذا سقطوا في معركة مع ضحيتهم . فكانت خطتنا المضادة أننا أخذنا برميلي البارود ونزعنا الغطاء عن فوهتهما ثم ركّبنا عليهما فتيلا وعلقناه عند المدخل . وبعد ذلك استدعينا اثنين من السكان وأطلعناهما على البرميلين الجاهزين لإشعال النار ، ثم أخبرناهما بأننا على علم تام بنيات المتآمرين وأننا سندافع على أنفسنا أطول مدة ممكنة . وإذا اقتضى الأمر ، فسننسف أنفسنا مع المعتدين .

ولما رَأَيَا أننا نَأخذ الأمربهدوء وشاهدونا ندخّن أمام كميات كبيرة من البارود ، خشيا حتى من الإقتراب منّا حتى لا يذهبا ضحية حدث انفجار عرضي .

وكذلك تخلّوا عن سلبنا بالقوة ، ولكنهم وضعوا خطة أخرى وجرّبوها وفشلت هي الأخرى .

إن شقيق مصطفى مضيفنا ، رجل خبيث بقدر ما كان مصطفى رجلا صالحا ونبيلا . فقد حَضَر إليّ هذا الشخص وأبلغني أن رئيس قبيلة الأنكاد يوجد الآن في منزله ، وأنه على استعداد لإرسال حرس من رجال قبيلته لمرافقتي بسلام إلى وجدة ، إذا توصّلت إلى اتفاق معه . ونظراً لقلة ما كان يوحي به إليّ من الثقة ، فقد قلت له إنني لا أثق في بُوحْنَاني (رئيس القبيلة) وإنني لا أنوي الإنتقال من مكان إقامتي الحالي ، حتى يرسل إلي عامل وجدة قوة كافية لحراستي . وعند عودة مصطفى ، مضيفي ، عرفتُ أن الرجل قد دبّر مكيدة مع بوحْنَاني بأن ينظما حراسة لنا إلى منتصف طريق وجدة ، وبعد ذلك يسلمنا الحراس إلى فريق آخر ، ليتولى سلب أمتعتنا ويخفف أثقال بغالنا .

وعلى كل حال ، فقد تشاورت مع مصطفى الذي كنت واثقا من أنه لن يخونني حيث أقسم أغلظ الإيمان ، كما تناول الخبز والملح معي (وهي علاقة مقدسة عند العرب). و بناء على نصيحته قررنا الهروب على ضوء القمر — كما يقول السكوتلانديون .

وطبقا لهذه الخطة ، فقد بِعْتُ فرسي المُتْعَب وبدّلت بغلي واشتريت حصانا عربيا جميلا في عملية كلفتني عشر دولارات لتغطية الفرق . وعلى الساعة الحادية عشرة ليلا ، حينما كانت القرية في سبات عميق ، اتخذنا طريقنا إلى وجدة في رفقة مضيفنا السيد مصطفى و ابنه وأربعة من أصدقائه الأوفياء .

على أننا لم نكد نجتاز نهر تافنا الذي يشكل حدود مملكة اللصوص (الأنكاد) ، حتى توهمت أننا وقعنا ضحية خيانة . فبينما كنا نضحك ونمرح ونقول على سبيل التفكة إننا في طريقنا لنلتقي بأمتعتنا في مستودعات بوحناني ، فإذا بنا نلاحظ اثنين من عربانه مستلقين متربصين تحت شجرة على الطريق . وعلى الفور ، توهمت أنهما من اللصوص . ولكن كم كانت دهشتنا كبيرة وسرورنا عظيما حين اكتشفنا أنهما إذا كان من الأنكاد ، فهم أيضا أصدقاء السيد مصطفى الذي كلفهما بأن يدلانا على أقصر الطرق في أراضي العدو ...

واصلنا سيرنا في صمت وحذر وكنا كثيرا ما نمرّ بقرية عربية تقع على مرمى بندقية من الطريق ، ولكن سكانها جميعا نائمون (في خيامهم) ، وحتى الكلاب لم تكن تنبح ضدنا .

قال لي مضيفي إن الرسول يحميني ، لأنني صديق شعبه المكافح .

والكائن الحي الوحيد الذي صادفناه في طريقنا ، كان أسدا ، أراد بعض رفاقي إطلاق النار عليه ولكنني رأيت أن الوقت غير ملائم حيث أننا ربما أثرنا الإنتباه إلينا . وعلى كل حال ، فإن الحيوان سار في طريقه دون أن يسرع الخطى ولم يتعرض لنا ، على الرغم من أنه قد مرّ على مسافة 50 باردة منا .

وعند مطلع الفجر ، كان سروري عظيما حينما لمحت أبواب مدينة وجدة ، ولو انه كان علينا أن ننتظر خارجها بعض الوقت حتى تفتح أمامنا .

وبمجرد ما فُتِحَتْ أبواب وجدة ، قدمت نفسي لعاملها الذي خصّص لإقامتي غرفة في المشور ، حيث كان يقيم هو شخصيا ، وأما السيد بنّونة والذين هاجروا معه من التلمسانيين ، فقد ضربوا خيامهم داخل أسوار قلعة المدينة . ونظراً لأنني لم أكن أحمل معي خيمة ، فقد اعتبرت نفسي محظوظا ، حيث تمكنت من الحصول على ذلك الغار (الغرفة) من السيد العامل .

ولَدَى وصولنا ، مَنَحْتُ صديقي مصطفى أوقية من الذهب كما أعطيت لكل واحد من مرافقينا ثلاثة دولارات مكافأة على تعبهم . ولكنه نظراً لأن الشريف لم يمنحني عطفه وحمايته من أجل مصلحة مادية فقد رفض عرضي ، ولم أتغلب على معارضته إلا بجهد جهيد . وبعد عناق ودي غادرته هو وأصدقاءه مع تأكيد بالمودة الخالصة عند لقائنا المقبل في ظروف طيبة .

وقد علمت هنا أن البوحميدي قد أمر بإخلاء تلمسان نتيجة لشكوك ساورته بشأن اتصالات بلغته بين ابن نونة والفرنسيين . هذا ما سمعته ، ولكنني لا أستطيع التأكيد بشيء في هذا السياق ، ولو أنني شخصيا أشك في هذه الرواية .

وصل عدد من الرسل من طرف الخليفة (خليفة تلمسان) يحث اللاجئين على العودة إلى المدينة ، ولكنهم رفضوا جميعا العودة إلا إذا جاءهم أمر من السلطان نفسه . وقد وجهوا إلى السلطان شكاوي بشأن الأمر بإخلاء المدينة قبل الأوان ، الأمر الذي تعرض معه كثير منهم للإفلاس والخراب .

وفي يوم 26 ديسمبر ، تلقيت أخبارا بأن قافلة على وشك السفر إلى فاس ، فأخذت في تجهيز أموري للسفر معها .

ومن الأعمال الأولى التي قمت بها عقب وصولي إلى وجدة أنني كتبت إلى صديقي الأمير رسالة أوصي فيها على صديقي مصطفى وأبلغه أنني مدين لهذا الشريف بالشيء الكثير .

وفي يوم 28 منه ، غادرنا وجدة في الصباح المبكر. وكانت قافلتنا تتكون من نحو مائة بغل إلخ . وحراسة تتكون من 20 فارسا . وبعد مغادرتنا المدينة ، أبدى جنود الحراسة المرافقون لنا ، على عادة العرب كثيرا من الفضول ليعرفوا مقدرتي على ركوب الخيل . ولكنهم سرعان ما أدركوا أنني لست غريبا عن رياضة الفروسية . فقد أخذتُ بندقية من أحدهم ثم أطلقت العنان لجوادي وهم في إثري ، ولم يكد يمضي وقت قصير حتى تقدمتهم جميعا بمسافة . وبعد ذلك أطلقت عيارا ناريا في الهواء ثم عدت أدراجي لمقابلتهم .

إن الطريق التي سلكناها اليوم تعتبر خطيرة بشكل خاص ، وقد كان الليل مظلما ، وكان من نتائج السفر في وقت متأخر بالليل أن بعض الحيوانات كانت منهكة القوى تماما . وكذلك شعر البعض بتعب شديد ، ولا سيما أولئك الذين لم يستريحوا في الليلة الماضية والذين سُلِبُوا في الطريق . وهؤلاء يبلغ عددهم نحو العشرين . والرجال منهم سلبوا من كل ما يملكون فيما عدا قميص وسراويل . وأما الجنس اللطيف الذي كان بالأمس لا يسمح إلا برؤية عين واحدة تحت الحايك للمتطفلين ، فقد أصبح اليوم يعرض مباهج جسمه بدون أي ستار على الملإ أجمع ، حيث ترك النساء في غلالات النوم .

على أن السيدات الأخريات في القافلة سارعْنَ إلى إغاثتهن بما يسترن به أجسادهن عن الأنظار. وفي المساء ، وصلنا إلى سهول أزا الخصبة .

ولما اقتربنا من بعض القرى العربية ، خرج أعيانها لملاقاتي وطلبوا إلي النزول في خيامهم ، وقالوا أنهم كانوا أبلغوا خبر مقدمي وأنهم سيوفرون لي كل ما أحتاج إليه حيث أنهم من أنصار السلطان المدافع عن الدين الحنيف .

على أنني كنت مضطرا إلى رفض هذه الدعوة الكريمة ، حيث أن القافلة ستوقف في مكان بعد ذلك ، ولم يكن من الحكمة أن أتخلف عنها كثيرا . وبدلا من الضيافة العربية التي عرضها عليّ أصدقائي العرب ، فقد فضّلت عشاء جندي متقشف ، وهو عبارة عن فواكه وكأس من النبيذ .

يوجد هنا عدد كبير من اليهود الذين يشكلون جماعة ثرية . وقد تحرروا من بعض الأوضاع التي يعاني منها إخوانهم في المغرب الأقصى . وهذا الوضع الشاذ مرجعه إلى أنهم

يتمتعون بحماية قبيلة من قطاع الطريق . وفي مقابل هذه الحماية التي مُنِحَت لهم ، يقوم اليهود بدور الوسطاء للتخلص من البضائع التي ينهبها قطاع الطريق ...

ونظراً لأن الأمس كان يوم السبت وهو يوم الراحة عند اليهود فقد فرض شيخ اليهود على ابنصور وعلى يهودي آخر معنا غرامة مقدارها دولار واحد بسبب قيامهم بالسفر في يوم تحرم فيه الديانة اليهودية السفر فيه . ولو رفضوا دفع هذه الغرامة لكان من المرجح أن يتدخل قطاع الطريق العرب ، حماة شيخ اليهود لتنفيذ إرادته !

وعلى ذكر قطاع الطريق ، فإن القافلة لم تكد تمضي في طريقها بعد ذلك ميلا واحدا حتى اضطرت إلى التوقف والرجوع أدراجها لإنقاذ بعض المسافرين الذين احتجزهم قطاع الطريق . وقد وصلنا إلى المكان في الوقت الملائم لإنقاذ رفقاء الطريق .

وقد وقع الهجوم عليهم بينما كانوا يجتازون نهرا صغيرا جافا كانت جنباته عالية وتحتوي على مخبإ للصوص . وقد جرينا وراءهم صاعدين مجرى النهر ، ولكن الخبثاء كانوا يعرفون الطريق أحسن منا . وعند إحدى المنعطفات شاهدنا نحو اثنتي عشرة بندقية مسددة إلينا من على مرتفع من الأرض . أما أنا فلم يكن في يدي سوى سيفي الذي لا قيمة له في هذه الحالة . وتبعا لذلك ، فقد أشرت إلى الجنود بأن يطلقوا النار في اتجاههم ، وذلك حتى يردوا على النار بالمثل ونسارع في حملة عليهم قبل أن يتمكنوا من شحن بنادقهم من جديد . على أن الجنود دخلوا في حوار مع اللصوص واتفقوا معهم على أن يخلوا الساحة ويطلقوا سراح رفقائنا والسماح لنا بمواصلة سيرنا . والسبب الذي حمل الجنود على عدم إطلاق النار ، هو أن ذلك سيثير انتباه القبيلة ويشنوا علينا هجوما شاملا .

وهذا المنطق يبدو سليما حيث أن التستر في جميع الأمور هو أفضل سبل الوقاية !

على أن هذا الهجوم سيتخذه الجنود ذريعة لمطالبة البغَّال بنصف دينار على كل بغل ، حيث أنهم قاموا بعملية .

وقد توقفنا في المساء عند مخيم القائد بوزيّان عامل السلطان على المنطقة وعلى وجدة وتازا . وإذا اعتبرت المساحة الهائلة التي يشغلها مخيمه أمكنني القول بأنه يحتوي على ما لا يقل عن خمسة عشر ألف جندي وضابط .

لقد راجت إشاعات تقول بأن السيد بوزيّان قد جمع كل قواته على الحدود بقصد ضمها إلى قوات الأمير عبد القادر ، وقد كان الطريق اليوم مكتظا بالعرب الذين يتجهون إلى مخيمه . وقد تحدثت مع عربي كان يركب جملا ووجدت كثيرا من التسلية في رده على سؤال وجهته إليه عن طريق مترجمي بشأن الإتجاه الذي يقصده . كانت بندقيته معلقة على كتفه . وقد كان رده هو : « إلى مقاتلة الرومي الكلب » ! وقد أضحكني هذا الردّ وتمنيتُ له كل التوفيق في مهمته . كان في البداية يضنني فرنسيا ، ولكنه بعد محادثة أخرى ، اتخذ مني موقفا وديا وقد تمنى لي سفراً سعيداً وعوداً حميداً .

وفي أول يناير ، وصلنا إلى تازا . وفي ساعة نحس ، خرجت مع السيد ابنصور وابتعدنا بعض الشيء عن بقية المسافرين . ولم نكد ندخل المدينة حتى لاحظ أحد الأشخاص سراويلي الأروبية ورفع عنها برنوسي وأشار إليه أمام جمع من الناس قائلا : « إن هذا رومي ! » . وفي نفس الوقت رفع حجرا وحاول أن يقذفني به ، ولكنني انحرفت وتجنبته ، في الوقت الذي تدخل بعض المتفرجين بيننا .

لاحظت أن تازا في حالة سيئة كما تركتها وأنه لا يمكنني أن أصنع شيئا بدون مساعدة القائد . وتبعا لذلك ، فقد امتطيت فرسي وبمرافقتي ابنصور ، واتجهت الى المشور ، والشخص الذي أراد أن يعتدي علي (وهو مرابط) يسير في إثري ، ويدعو المؤمنين إلى مساعدته على قتلي . وسرعان ما انضم إليه جمهور غفير بحيث كان ورائي قبل وصولي المشور نحو ثلاثمائة شخص ، كانوا يتوقفون بين الحين والحين ، لإطلاق صرخة مثل التي يطلقها مصارع الثيران في إسبانيا قبل أن يجهز على حيوانه . وأما التجار الذين كانوا جالسين عند أبواب دكاكينهم ، فإنهم لم ينضموا إلى الجمهور ، وكانوا يكتفون بتوجيه كلمة «كلب ابن الكلب» !

كان هذا الجمهور يتوقع أن يشاهد منظر رأسي وهي تقطع عندما أصل إلى المشور . أوعلى الأقل ، سيستمتعون بمنظر الحلاق وهو يجزّ شعر رأسي ، إذا قررت النطق بالشهادة . وبعد ذلك ، يحملونني على لباس سراويل أكثر احتشاما من سراويلي الضيقة التي ينظرون إليها بعين الإحتقار .

ونظرا لعدم رغبتي في توفير إحدى المتعتين لهذا الجمهور المتعطش للتسلية ، فقد وضعتُ عنان فرسي في يد أحد الجنود ثم أبرزت أوراق اعتمادي امامه . وفي نفس الوقت ، قلت للقايد إن جمهوره غير مهذّب وأن من واجبه أن يحافظ على سلامتي لأنه سيكون مسئولا عن كل أذى يلحق بي . وقلت له إن من الصحيح أنني رومي وإبن الرومي وأنني أعتنق المسيحية ، ولكنني جئت لخدمة قضية الجزائر ولأساعد صديقي الذي يدافع عن الدين الإسلامي وأنني مندوبه ووكيله ، كما تثبت ذلك أوراق اعتمادي .

وقد أعرب القايد عن أسفه لان أتعرض للإهانة ، ولكن الذنب ذنبي ، لأنني خرجت بدون حماية جنود . وعلى الفور ، أرسل في طلب جنود ليرافقوني إلى الفندق وأعطى أوامر مشددة بمنع كل مضايقة عني .

ولما وصلتُ إلى الفندق ، لازمته طيلة مدة إقامتي دون أن أخر ج إلى المدينة حتى لا أوفّر للسكان منظر « رومي » مرة أخرى .

وفي صباح يوم 5 من الشهر ، أستأنفنا سفرنا ، وقد كان الجوّ بعد الظهر ممطراً . وفي المساء ، وصلنا الى بعض المنازل البائسة ، وكانت ثيابنا تقطر بالمطر وفي مقابل دولار واحد ، وجدت غرفة في أحد المنازل . ولكنه لما حل الليل ، اكتشفت أنني أنا ورفقائي لم نكن الوحيدين في هذه الغرفة ، حيث شاهدنا بقرة تدخل علينا ووراءها صاحبها الذي أراد أن يقدمها لنا ، وبعد ذلك لحق بها قطيع صغير من الماعز . وعندئذ أخبرنا مضيفنا أن سهرة التسلية قد بدأت الآن .

كنا قد أشعلنا نارا لدى وصولنا وجفّفنا ثيابنا وسجادنا الذي استعملناه فراشا في الليل ، الأمر الذي سمح لنا بقضاء ليلة مريحة نسبيا .

وأما الإحترام الذي قوبلنا به . من مضيفنا ، فيمكن أخذ فكرة عنه من أننا لما طلبنا شيئاً من القمح . قال الرجل لأخيه : « أحضر شيئاً من القمح لهؤلاء الكلاب » . والكلب على كل حال ، هو اللقب الذي يطلق على كل مسيحي ، مهما كانت ميوله .

وفي اليوم التالي ، توقفنا عند قرية تقع غير بعيد من الطريق . وعندما وصلنا إليها ، وجدنا جميع السكان جالسين أمام كوخ يستعمل مسجدا . وإزاء هذه البناية تقف بناية أخرى تستعملها السيدات لأداء فريضة الصلاة . ولما عرفوا هويتي ، قدموا لي هذا المبنى لقضاء الليل . وهو على كل حال كان أحسن مما كانوا ينوون تقديمه إلي في البداية ، عندما عرفوا أنني مسيحي ، وهو تركِي في الشارع ، أوْحزّ رقبتي .

وقد حضر شخص منهم ، وهو الوحيد الذي كان يحمل سيفا ، ووقف أمامي واضعا يديه على صدره ، وهو يردد بين أسنانه : «كلب ابن الكلب» ، بينما كانت شرارة الإنتقام تشتعل في عينيه . ولكنني قابلت تهجمه بضحكة .

ولما أبلغه أحد الجنود أنني لست فرنسيا ، كما كان يظن في البداية ، بل أنجليزيا في خدمة الأمير عبد القادر ، أخذتْ أساريره وجهه تتفتح شيئا فشيئا .

وعندئذ ، أخذت سيفه وجرّدْته من غمده لأرى ما إذا في إمكانه حقا أن يقطع رقبتي بطريقة معقولة . وقد وجدته في حالة جيدة للغاية ، ولذلك أوصيته بأن يقوم بتجربته في رقبة أحد الفرنسيين ، حيث أنني لا أنوي تركه يجرب براعته في رقبتي أنا .

ضحك الرجل ، ثم قال إنني « كلب ابن كلب » . ولكن هذه الكلمة ليست شتيمة في هذه المرة ، حيث أن العرب ليس لديهم كثير من كلمات « التدليل » والإعزاز. فأنت كثيرا ما تسمع امرأة وهي تداعب ابنها في ذراعيها تقول له : «كلب ابن الكلب» ، أو ، « يا كافر» .

جرت محاولتان أو ثلاث في الليل لسرقة فرسي ، ولكنها فشلت بفضل بغل ابنصور ، حيث كان الحيوانان مربوطان معا في قيد من حديد ولا يمكن أخذ أحدهما دون الآخر .

والطريق من تازا إلى فاس مضمون ومأمون ، فلا خوف على المسافر فيه من اللصوص ، حيث أن القرية التي ينزل فيها المسافرون مسؤولة عن سلامتهم أمام السلطة ، وهم يوفرون حارسا في كل ليلة ، بمكافأة تساوي 6 بنسات عن كل حيوان يحرسونه . وإذا قدمتَ

شكوى بسرقة أي شيء إلى فاس ، فهم مرغمون على تعويضه بعدما تُقسمُ يمينا لتأكيد قيمة البضاعة المسروقة .

كنا عازمين على قضاء الليل في قرية تبعد عن فاس بمسافة يوم واحد ، ولكننا لمّا وصلنا إلى موضع القرية ، وجدنا أن أهلها قد رحلوا عنها . ولذلك ، فقد كان من المحتم علينا السير إلى أبعد ما قدرنا . وعند الليل وصلنا إلى قرية تتكون من عدد صغير من الخيم نَّبهَنَا إليها كلاب ، ولكن الحظ لم يسعفنا بالحصول على خيمة . وبالتالي ، فقد بتنا ليلتنا في العراء . ومما زاد الحالة سوءا أن المطر قد أخذ ينزل ولم يكن من الممكن الحصول على حطب النار بسبب كثرة الشوك فيه .

وعلى الرغم من ابتلال ثيابنا ، فقد نُمْنَا نوما عميقا ، مثل الفئران التي أصيبت بالغرق .

وفي الصباح ، اكتشفنا أن أَحَدَ رُفاقنا ، وهو تاجر مغربي ، قد سلبت منه سجادة كان قد خيَّط فيها مبلغ مائة دولار . ولكننا لمّا وصلنا إلى فاس ، أرسلت السلطة جنديين إلى الشيخ وأمرته بالتعويض للتاجر .

وفي يوم أول يناير ، وصلنا الى مدينة فاس المشهورة (1) وقد أستغرقت رحلتنا أربعة أيام بدلا من اليومين اللذين تستغرقهما المسافة عادة ، وكان ذلك نتيجة لخصام بعض القبائل التي دخلت في حرب فيما بينها .

* * *

(1) فاس ، عرضها الشمالي 6َ — 34ً وطولها الغربي 59َ — 4ْ ، مدينة مشهورة بالمغرب الأقصى أسسها إدريس بن إدريس في سنة 192—193 هـ وقد ظلت فاس عبر الأجيال ، وخصوصا ، بجامع القرويين مهدا للثقافة الإسلامية ومقصدا للعلماء من مختلف الأقطار .

الفصل الثالث عشر

كان الجوّ ممطرا — لحسن الحظ — لدى وصولنا الى فاس . وأنا أقول لحسن الحظ ، لأن حالة الطقس منعت الناس من الخروج وحالتْ — بالتالي — دون تجمع جمهور من النوع الذي رافقني في تازا ، وبذلك وصلنا الى الفندق بدون عائق .

والمدينة القديمة مبنية على منحدر هضبة . وأما المدينة الجديدة . فهي تقوم على مستوى من الأرض في قمة تلك الهضبة . وفوق هذا المستوى ، تشرف جبال عالية في الشمال الغربي ، ومن هذا الجبل ينبع نهر سريع الانحدار يمرّ تحت أسوار فاس الجديدة الى المدينة القديمة ، وهذا النهر يسمح للسكان ، لا بمجرد الحصول على ما يحتاجون اليه من الماء بوفرة ، بل وأيضا باقامة طواحن عديدة . وإحدى هذه الطواحن تقع قريبا من المدينة الجديدة ، وأثارت نواعيرها اهتمامي ، لأنها تتمشّى مع أحدث طراز أوروبي محسَّن ، حيث أنها مزوَّدة بعجلة مصنوعة من الحديد الخ . .

والطرق ضيقة مثلما هي الحالة في معظم المدن الافريقية حيث لا تسير المراكب ذات العجلات ، ولكن فاس تشتمل على عدد كبير من البنايات العظيمة التي من بينها مسجد المدينة (جامع القرويين) .

والسلطان يقيم في المدينة الجديدة ويحيط به حرسه الشخصي الذي يتكون مما يتراوح بين 4 و 5 آلاف من الجنود الهاربين . وهذا الحرس تلقى مددا جديدا حضر

معنا ضمن قافلتنا ، وهو عبارة عن جندي إسباني . وقد أثار فضولي هذا الشخص وسألته الى أية منطقة ينتمي في اسبانيا ، فكان رده كما يلي :

إنني من سكان سر قسطة ، وقد نقلت الى مليلة حيث أقمت أربع عشرة سنة في السجن،ومنذ سبعة أشهر هربت بالقفز على أسوار مرتفعة بالليل ، وقد أطلق الحارس النار علي ولكن الحظ أسعفني على الفرار وفي الصباح قابلت رجلا من قبائل الريف أخذني وباعني بمبلغ شلنين و8 بنسات (أوما يساوي بوجوواحد) . وهذا المبلغ أخده الرجل ، بدون شك ، ليدفع لنفسه به أجرة خلع القيود على يدي المالك الجديد باعني لمالك آخر بمبلغ دولار ونصف ، ومن هذا الشخص هربت هذه المرة في تازا ، وأنا الآن في طريقي لأنضم الى حرس السلطان .

وكان هذا الجندي قد نقل الى مليلة لأنه طعن رجلا بخنجر وقتله . ولكنه أكد لي بكل برود أن الحكم عليه كان قاسيا ، حيث أن هذه الفعلة لا تعتبر شيئا يذكر ، على الأقل لدى الرأي العام في سر قسطة ! يمكن تقدير عدد سكان فاس بنحو 300,000 نسمة ، نحو 20000 منهم من اليهود . على أن حياة هؤلاء اليهود في فاس لا يحسدون عليها . فهم لا يستطيعون السير في القسم الغربي من المدينة الا بعدما يخلعون نعالهم ولباس رؤوسهم . ومتى لبسوا شيئا على رؤوسهم أخذه المسلمون منهم ورموه جانبا . بل إنهم كثيرا ما يبصقون في وجوههم . وأنا أيضا ، بصفتي مسيحي ، لو تجولت في المدينة طويلا ، لتعرضت ، بدون شك لنفس الاهانة . وتبعا لذلك ، فقد خطر لي أن من الحكمة البقاء في الفندق واكتفيت بارسال المترجم الى الحاج طالب لكي يأخذ أمرا من السلطان الى حاكم تيطوان ، ليسمح لي بالابحار وهذا التصريح ضروري لكل مسيحي أوهارب اعتنق الاسلام .

والحياة الممتعة التي عشتها في فاس خلال الأيام القليلة الماضية يمكن تكوين فكرة عنها مما يلي :

كنت أعيش في غرفة صغيرة يبلغ طولها 8 أقدام في عرض ستة أقدام ، ويدخل اليها ضوء النهار من فتحة صغيرة على النهر ويبلغ ارتفاعها على مستوى الأرض ثمانية

أقدام . ومن هذه الفتحة أيضا ، يدخل الى الغرفة ضجيج ماء النهر المتدفق بالليل والنهار وضجيج رحى الطاحونة التي لا يفصل بينها وبين غرفتي سوى حائط خفيف . وهذه الموسيقى كفيلة بأن تذهب بالنوم عن الإنسان طوال الليل .

ومن ثم ، فقد غادرت هذا السجن بالرضا والسرور في صباح يوم 14 واستأنفت السفر وفي معيتي ضابط عيّنه السلطان ، وابنصور ، وقصدنا الى محطة لانتظار قافلة في المدينة الجديدة .

سار ابنصور في مقدمتي بحوالي 12 خطوة ، وأما الضابط ، فقد كان ملازما لي ورائي .

لم نكد نخطو عدة ياردات من الفندق حتى تقدم منّا رجل بكل هدوء في الشارع ثم وقف ، وبكل وقار بصق على ابنصور ولما رأيت هذا الهجوم على مقدمتي ، خطر لي أنني سأكون الثاني في قائمة الاهانات ، ولكن الرجل مرّ بي ولم يصنع شيئا ، حيث اكتفى برفع شاربه ونظر إليّ بكل احتقار ، قائلا : « الرومي ابن الكلب » .

وكم كانت دهشتي كبيرة حين وجدتُ أنني خرجت من المدينة دون أن تعرض لاهانة أو عدوان ، ولكن الفضل في ذلك يرجع خصوصا ، الى «قلمون» برنوسي حيث لم يكن أحد ليعرف أنني مسيحي الا من سراويلي ، اذا نظر اليها .

كان علي أن أقطع المدينة القديمة كلها . وبعض الشوارع التي مررت بها تمتد على ما يقرب من ميل واحد ، والشارع الذي يباع فيه الحرير ، بهر عيني بأنواع الحرير وألوانه الخلابة وبروعة التنميق والتطريز .

ومصانع الحرير في فاس ومنتجاتها مشهورة في جميع بلدان المشرق ، ومن المعلوم في جميع المدن الاسلامية أن كل سلعة لها شارعها (سوقها) الخاص بها . وسوق الخضر والفواكه ، هو ، في العادة ، اكبر هذه الأسواق وأوسعها والفواكه والخضروات كثيرة في فاس وتباع باسعار رخيصة ، فان من الممكن للمرء أن يشتري نحو خمسين برتقالة بقطعة من الفضة تساوي 2 بنسا انجليزيا ، والخبز الذي يعجن هنا أبيض جميل . والكعك

الفاسي من اللذّ ما يتذوقه الانسان . والكحول ، هوالشيء الوحيد الذي يصعب الحصول عليه هنا ، حيث أن التجارة في الكحول ممنوعة منعا باتا .

وقد قامت يهوديَّة ببيع الكحول ، قبل وصولي بوقت قصير ، فضربت بالسوط على ظهرها وراح الشرطة يتجولون بها في الشارع بينما تتدلى من عنقها زجاجة ، وينادي مناد : « هذا عقاب من يتاجر في الكحول ! » .

ولكنه على الرغم مما يوحي به هذا العقاب من الخوف والهلع ، فانه لا يزال يوجد من يخاطر بالتجارة في الكحول ، ولو أنهم حذرون أشد الحذر في إختيار الشخص الذي يبيعون له هذه المادة .

والعقاب هنا يتسم بالقسوة . والمسلم أو اليهودي الذي يتعدى حدود القانون ، يستطيع أن يتأكد من العقاب الذي سينزل به . وأشد العقوبات وأقساها ، هي التي تنزل بالتجار الذين يحاولون غش الجمهور بالاخلال بالميزان ، حيث يعاقب الفاعل بقطع يده .

عندما شعرت أنني خرجت من المدينة تنفست الهواء بكثير من السرور والارتياح ، فإن هذا الهواء الطلق يختلف عن الهواء الخانق الذي كنت أستنشقه في غضون الأيام الماضية .

وأما خادمي الفرنسي ، فقد بقي في فاس ، لأنني لم أشأ تعريض نفسي للشكوك بطلب الترخيص لفرنسي بمرافقتي ، فإن ذلك ، بدون شك ، سيلقي ظلا على إخلاصي وولائي للقضية العربية الجزائرية في نفوس العرب الذين أتمنى لهم كل نجاح في سحق الأمة التي ينتمي اليها هذا الهارب .

انتظرت نحو ثلاث ساعات قبل أن تصل القافلة التي كانت تتكون من نحو أربعين بغلا .

كان الوقت متأخرا بعد الظهر عندما بدأنا المسير ، فلم نمض سوى نحو ثلاثة فراسخ حتى نزل الليل ، وتوقفنا في مكان غير بعيد من قرية عربية ، ولكنه نظرا لأن هذه محطة حدّدتها الحكومة ، فقد كان علينا أن ندفع مبلغ 6 بنسات عن كل حيوان .

اجتزنا نهر سبو على جسر يبلغ طوله 300 ياردة وعرضه 12 ياردة ، وهذا هو الجسر الوحيد الذي يستحق هذا الاسم بين الجسور التي شاهدتها في المغرب الأقصى.

وفي يوم 15 من الشهر ، توقفنا عند قرية عربية أخرى تقع على نفس النهر. وفي اليوم التالي أكتشفنا أن بغالينا ، لكثرة ترددهم على طنجة وتيطوان ، قد تعودوا على الكحول ، وذلك على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تحرم تناول الخمر تحريما باتا .

طلبوا الي أن أمنحهم شيئا من الكحول ، وقدمت لهم الزجاجة فأفرغوها عن آخرها . وقد كان من أثر تلك الزجاجة أن ادخلت شيئا من المرح على الرحلة ، حيث كانوا يغنون طول الصباح في الطريق .

وبعدما اجتزنا نهرا صغيرا ، نزلنا عند قرية عربية لقضاء الليل ، ثم واصلنا سفرنا في الصباح المبكر . ولكن اكتشفنا في الطريق أننا أضعنا بغلا من بغالنا . وقد عاد البغالون أدراجهم للبحث عنه في القرية . على أن السكان أنكروا أن يكونوا قد رأوا أي بغل بعد القافلة . وقد طلب البغالون الى اثنين من السكان أن يسيروا معهم الى القايد ليحقق معهم في التهمة .

وطريقة احضار المتهم هنا بسيطة ، فما على المتهم الا أن يجد شاهدين حتى يطلب الى الجاني المحتمل المثول أمام القاضي . واذا رفض حكم عليه غيابيا .

ولما قلت للمتهمين إنهما يعرضان نفسهما لخطر كبير بسبب سرقتهما بغلا هو ملك للحكومة ، بدا على وجههما الخوف وتوصّلنا الى اتفاق معهما بأن ندفع لهما دولارا في مقابل اعادتهما البغل المفقود . وكذلك عاد الرجلان بالبغل .

وهذه الحادثة قد أضاعت علينا كثيرا من الوقت ، ولذلك ، فنحن لم نقطع سوى مسافة نصف نهار ، قبل أن يحل الليل ونأوي الى أحدى القرى .

وفي يوم 18 من الشهر ، مررنا بمدينة القصر ، حيث تمكنا من الحصول على بعض الكحـول .

بينما كنت أسير اليوم في مقدمة القافلة ، شاهدت سلة ، من النوع الذي يحمله الحجاج عادة ، على جانب الطريق . ونظراً لأنني كنت أشعر بالكسل فلم أعرج عليها لأخذها ، وانما وجهت اليها عبداً أسود هو ملك لصاحب القافلة . ولما أحضرها ، وجدتها مملوءة بقطع من النقود النحاسية ، بلغت مجموع قيمتها 4 دولارات . ولما كنت عازفا عن الاستيلاء على أموال مؤمن حاج ، فقد سلمتها الى صاحب القافلة وطلبت اليه أن يعيدها الى صاحبها اذا ظهر صاحب لها .

وفي يوم 19 منه ، مررنا بقبر زمر الأسرى ، وكان اليوم يوم سوق . ونظرا لعدم رغبتي في المرور أمام الجموع الغفيرة ، فقد سلكت طريقا يدور بالسوق على اليسار . وقد قضينا ليلتنا في قرية عربية .

ولكن الأمطار سقطت بكميات كبيرة نجمت عنها سيول وأوحال جعلت من المستحيل الركوب على متن جواد في الطرق الضيقة التي تهبط من الجبل ، وقد اضطررنا الى قيادتها . وبينما كنت أحتفظ بيدي في جيوبي لبعض الدفء ، وقعت في بركة كبيرة من الوحل ، وبذلك أكتسبت شخصية في غاية الأناقة . وقد وصلنا الى الفندق في حالة يرثى لها .

ولكن نارا جميلة وكأسا من المشروبات الروحية أعادت الينا شجاعتنا على المضي قدما . وفي اليوم التالي ، بدت لنا أسوار تيطوان البيضاء على الساعة الثامنة صباحا ، ولكننا لم نصل الى المدينة الا بعد الظهر .

كنت راضيا كل الرضا لأن أقضي ليلة مريحة على سرير وأنام ملء جفني . فأنا قد نسيت الآن معنى السرير والفراش وفي يوم 26 يناير ، وصلت الى جبل طارق .

انتـهـى

الملحق الأول

معاهدة تافنا

المادة الأولى

يعرف الامير عبد القادر أن فرنسا تمارس سلطة في افريقية .

المادة الثانية

تحتفظ فرنسا لنفسها في وطن بلاد وهران ومستغانم ومزقران (1) وسائر أراضيها وأرزيو (2) ، بالحدود المذكورة بعد ، شرق المقطع (3) من المرجة (*) من المستنقعات التي يخرج منها الوادي ، والى الجنوب ، من المستنقعات المذكورة في خط مستقيم يمتدّ في جنوب السبخة على هدف سيدي سعيد حتى حد الوادي الملح «4» وتنزل مع هذا الوادي حتى البحر ، بحيث تكون جميع الاراضي التي تشملها الحدود المذكورة أعلاه ، تابعة لفرنسا .

---

1 ـ نهر يتكون من التقاء نهر الشفة بوادي «جرّ» الذي يروي المناطق الغربية من سهول متيجة ، ويسير موازيا للسفوح الغربية لهضاب الساحل ، ثم يعرج الى الشمال الغربي قبل أن ينصب في البحر ، على مسافة نحو 8 كيلو مترات في غربي سيدي فرج .

2 ـ كان ميناء آرزيو مشهورا في عهد الأتراك بتجارة الحبوب ، وأما مدينة آرزيو القديمة ، فقد كانت دار صناعة لعبد المؤمن الموحدي في منتصف القرن التاسع الهجري (12 الميلادي) . وقد احتل الجنرال دي ميشال مدينة آرزيو في 4 يوليو 1833 ، قبل أن تدخل ضمن مملكة الأمير بموجب معاهدة عبد القادر ـ دي ميشال .

3 ـ نهر في ولاية وهران ينصب في البحر في جنوب شرق آرزيو على مسافة 21 كيلو متر من المدينة .

(*) في الأصل :

4 ـ الوادي المالح ، (Rio Salado) نهر في ولاية وهران ، يمر بأراضي قبيلة أولاد خالفة ، وينصب في البحر الأبيض ، وقد اشتهر مصبه في عهد الأتراك بتجارة واسعة في الحبوب .

وفي وطن الجزائر ، مدينة الجزائر والساحل وسهول متيجة من الشرق حتى وادي خضرة (1) وما قبله (**) ، ومن جهة الجنوب ، حتى القمة الأولى من الجبل (الأطلس الصغير) حتى وادي الشفة (2) . وهذه الحدود تشمل البليدة وسائر نواحيها ، وغربا ، زاوية وادي مزقران ، ومن هناك في خط مستقيم حتى البحر وهذه الحدود تشمل القليعة (3) وجميع نواحيها ، بحيث تكون جميع الأراضي الدّاخلة فيها تابعة للفرنسيين .

المادة الثالثة

يمارس الامير عبد القادر السلطة في بلد وهران وفي المدية «4» وفي المناطق التي لا تدخل في حدود الأراضي المذكورة في المادة الثانية ، ولا يمكنه ممارسة السلطة في تلك الأراضي .

« يحكم الأمير ولاية وهران وتيتري (5) والجزء الذي يقع في غرب الحدود المذكورة في المادة الثانية من ولاية الجزائر » (*) .

(**) خلافا لجميع النصوص المعروفة للمعاهدة والتي تشتمل على كلمة au dela (وما وراء) ، فإن هذا النص يشتمل على كلمة (en devant) (أي ماقبله) ، أي من الأماكن الأخرى التي يحمل فيها الوادي اسماء أخرى .

1 ـ ينزل وادي خضرة من جبل بوزقزة ، وينصب في البحر باسم وادي بودواو بعدما يخترق أراضي الخشنة .

2 ـ أحد أنهار متيجة ، ينزل من جبال الأطلس المشرفة على البليدة التي يخترقها .

3 ـ تقع القليعة على مسافة 46 كيلو متر من الجزائر في مكان يبلغ ارتفاعه 146 م فوق مستوى البحر على المنحدرات الجنوبية لهضاب الساحل . والقليعة هي مسقط رأس الخليفة ابن علال ، وفيها ضريحه .

4 ـ قاعدة ولاية تيتري . تبعد عن الجزائر بمسافة 90 كيلو متر الى الجنوب . كان الفرنسيون قد احتلوها في المرة الأولى في شهر نوفبر 1830 ، وفي المرة الثانية في شهر أفريل سنة 1836 . وفي كلتا الحالتين جلت عنها القوات الغازية بعد احتلالها مباشرة . وكان الفرنسيون قد نصبوا عليها بعد الغزوة الثانية بايا صنعية اسمه محمد حسين . ولكن محي الدين الصغير ، خليفة مليانة ، لم يلبث أن هزمه وأسره .

5 ـ منطقة جبلية تمتد من الشلف عند مروره من قصر البغار حتى سيدي عيسى وحتى مسافة تقرب من سور الغزلان بأربعين كيلو مترا ، تحدها من الشمال السلسلة الأولى للأطلس ومن الجنوب ، الأطلس الصحراوي ، ومن الغرب ، مجرى نهر الشلف ، ومن الشرق السهل الذي يفصل جبل ديرِ بجبال ونوغة . وقد كانت في عهد الأتراك تشكل «بايلك» عاصمة المدينة .

(*) الفقرة الموضوعة بين الفواصل المعكوفة غير واردة في النص الذي نشره يفر ضمن النصوص التي تتعلق بمعاهدة تافنا ولا في النص العربي الذي نشره ايمرى وزعم أنه النص العربي الأصلي للمعاهدة .

المادة الرابعة

لا يجوز للامير بسط سلطانه على المسلمين الذين يختارون الاقامة في الأراضي التابعة لفرنسا . والذين يريدون العيش منهم في الأراضي الواقعة تحت سلطان الأمير ، يستطيعون ذلك ، بالمثل يستطيع المسلمون الذين يعيشون في بلد الأمير الانتقال بدون عائق الى الأراضي التابعة للفرنسيين .

المادة الخامسة -

يمارس العرب الذين يعيشون في داخل حدود الأراضي التابعة لفرنسا شعائر دينهم بكل حرية ويمكنهم بناء المساجد تحت اشراف قاضي كبير المسلمين .

المادة السادسة .

يقدم الأمير ثلاثين ألف ربعي (كيل) وهراني من القمح وثلاثين ألف ربعي وهراني من الشعير وخمسة آلاف رأس من البقر الى الجيش الفرنسي . وهذا الدفع للحبوب والبقر يتم في وهران على ثلاث دفعات : تسلم الدفعة الأولى بعد ثلاثة أشهر من تاريخ توقيع هذه المعاهدة ، مع مهلة خمسة عشر يوما . والثلثان الاخران يسلمان بعد شهرين من الدفعة الأولى ، أي بمدة شهرين لكل دفعة .

المادة السابعة

يشتري الامير من فرنسا البارود والكبريت والسلاح الذي يحتاج اليه .

المادة الثامنة

الكرغليون الذين يريدون البقاء في تلمسان ، أو في غيرها من الأماكن يتمتعون بجميع الحرية في التصرف في أملاكهم ، ويعاملون على قدم المساواة مع الحضر (1)

(1) الحضر هو الاسم الذي كان يطلق على سكان تلمسان من العرب للتمييز بينهم وبين الأتراك والكرغليين الذين ينحدرون من أب تركي وأم جزائرية .

والذين يريدون منهم التنقل الى الأراضي الواقعة تحت فرنسا ، يستطيعون ذلك بدون أية موانع لبيع أملاكهم أو تأجيرها .

المادة التاسعة

تسلم فرنسا الامير رشغون (1) وتلمسان والمشور والمدافع التي توجدفيه•والامير يلتزمبتقديم المساعدة لنقل أمتعة الجيش الفرنسي ومؤنته وذخيرته الموجودة في تلمسان .

المادة العاشرة

يجري التبادل التجاري بكل حرية بين الفرنسيين والعرب ويجوز للفريقين التنقل بين المنطقتين للمتاجرة (*)

المادة الحادية عشرة

تضمن حرمة الفرنسيين ويحترمون عند العرب ، كما تضمن حرمة العرب ويحترمون عند الفرنسيين . والأملاك التي اشتراها الفرنسيون . أو سيشترونها في أراضي الأمير ، يتصرفون فيها بكل حرية وتكون مضمونة ، ويلتزم الأمير بتعويض كل خسارة يلحقها العرب بهذه الأملاك .

المادة الثانية عشرة

يتعهد الطرفان المتعاقدان بأن يعيد أحدهما للآخر المذنبين ، أي قطاع الطريق والذين يحرقون الاملاك وغيرهم .

المادة الثالثة عشرة

يتعهد الأمير بأن لا يسلم أي ميناء من موانيء البلد الى أية أمة بدون موافقة فرنسا .

---

1 - جزيرة صغيرة يبلغ طولها 800 مترا في عرض 200 متر تقع على مسافة 2 كيلو متر من مصب نهر تافنا . وكان الفرنسيون قد احتلوها بأمر من كلوزيل في أوائل سنة 1836 .

(*) يوجد فرق في التحرير بين هذا النص والنص الذي نشره بيقر لهذه الفقرة .

المادة الرابعة عشرى

التجارة (الخارجية) في ولاية وهران وولاية الجزائر ، لا تجري الا عن طريق الموانىء الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي .

المادة الخامسة عشرة

يمكن لفرنسا تعيين وكيل لدى الأمير ووكلاء في الأراضي الواقعة تحت سلطة ليكونوا وسطاء لرعاياها في حالات النزاعات وغير ذلك في علاقاتهم مع العرب . وكذلك يمكن للأمير (تعيين وكلاء) في الأراضي والموانىء التابعة لفرنسا .

حرر في رشغون في 24 صفر 1253 هـ ، تافنا ، 30 مايو 1837 م .

* * *

الملحق الثاني

رسالة الأمير الى الجينرال بيجو

سيدي :

عندما تولىّ المريشال فال (1) الولاية العامة في الجزائر ، اعتدى على المعاهدة التي كانت تربطنا بالأمة الفرنسية بعدة أعمال . وحينئذ ، التجأت الى الوزارة الفرنسية ، فكان ردها على شكواي العادلة أن المريشال يتمتع بالسلطات الكاملة ليتصرف كما يشاء . ولما اجتازت القوات الفرنسية أراضيّ بدون تصريح مني ومزودة بوثيقة مرور تدعي أنها صادرة عني ، وجدتني مضطرا الى حمل السلاح للدفاع عن حقوقي المشروعة ضد عدوان المريشال وسوء نيته — وهو سلوك مخل بالشرف متى صدر عن ممثل أمة عظيمة .

سيدي :

لقد علمت بمزيد الأغتباط بخبر تعيينكم قائدا للقوات الفرنسية في الجزائر ، لأنني لاأزال أضع ثقتي كاملة في طابع الشرف الذي كان دائما يميز معاملاتك .

كنت أنتظر بفارغ الصبر مقدم وكيلي السيد مانوتشي ، حيث كنت واثقا من أنه سيحمل الي أخبارا منكم والأمل يحدوني في أن أرى هذه الحرب التي بدأت ضد عدوان المريشال فالي تنتهي بابتعاده هو عن الجزائر . ولهذا السبب ولرغبتي في عدم إراقة الدماء بدون مبرر من جانب ومن جانب آخر فقد كبحت جماح شعبي الذي لا يريد الا الحرب .

ولكن المفاجأة كانت كبيرة حين أبلغني السيد مانوتشي أنكم تطالبونني بالقاء السلاح وتسليم أسلحتي الى الفرنسيين باعتبار ذلك الشرط الأول . وعلى الرغم من أن

(1) ـ عين المريشال فالي (Valée) واليا عاما بالنيابة على الجزائر بمرسوم ملكي صدر في 26 أكتوبر ، 1837 ، وقد خلف الوالي العام داماريمون (Dameremont) الذي لقي حتفه في الحملة الثانية على قسنطينة .

هذا التسليم ظاهري وشكلي فقط ، فأنتم لا تجهلون أن تعاليم ديني تحرم علي تسليم الأسلحة الى المسيحيين . وحتى لو كنت من الجبن بحيث أرضى بشراء سلم مخجل بهذا الثمن ، فان شعبي لن يحتمل ذلك . فان هذا الشعب بفضل الابادة وهو يحمل السلاح على الخضوع لنير الأجنبي ! .

كلا ، يا سيدي ، فأنا مستعد لعقد الصلح معكم بشرط أن تعاد إلي المدن والأراضي التي احتلها الفرنسيون ، وبشرط أن تبدي فرنسا استعدادها لأن تسلم إليّ قسنطينة والأراضي التابعة لها . وحينئذ ، سألتزم بدفع المبلغ الذي نتفق عليه في الوقت الذي تحدده مباحثاتنا . .

سيدي ، إنني عقدت العزم على الدفاع عن ديني وعن حقوقي العادلة حتى القطرة الأخيرة من دمي . ولكنني أرغب في السلم بشروط مشرفة وأكيدة . وعليك أنت ، يا سيدي ، أن تقرر في مواصلة حرب ضروس ، أو استعادة العلاقات الودية التي كانت قائمة بيننا في الماضي .

حرر في الزمالة في 15 سبتمبر 1841 .

كشاف عام

حرف الالف :

أبردين (اللورد) 7

إبنصور (صمويل) 33/39/46/51/53/57/133/176/177/178/186/190/191/197

أحمد (بن سالم) 112/115/156/157/

إدريس (المولى) 64/65/

أرزيو (مدينة) 87/201/

أرشغول (رشغون) 89/111/204/205/

آزا 59/60/189/193/

إسبرتيرو (الجنرال) 137/

اسبانيا 6/13/14/28/30/45/60/91/135/136/137/143/191/

استراليا 28/

الاستانة 8/

اسكوت (الكلونيل) 5/6/7/8/9/10/11/85/89/97/103/

إسماعيل (السلطان) 25/59/61/

إفريقية 18/19/53/

أمبوهل (قرية) 33/

اتجلترا 15/82/135/

أنجولم (الدوق دو) 135/

الانكاد (صحراء وقبيلة) 53/58/60/63/177/178/179/181/185/186/187/

اورليان (دوق) 48/97/102/115/

أومال (دوق) 97/102/

إيزبلا 8/

إيسلي (وادي) 62/63/111/

إيطاليا 6/ 14/91/

حرف الباء :

البابور (جبال) 115/

باريس 83/88/81/

البرتغال 28/

بريطانيا 17/99/

بكير (ابن) 159/

بلكين 84/

البليدة 118/202/

بنزرت 10/14/

بنونة 46/63/68/175/177/179/180/181/188/

بوحناني 186/187/

بودواو (نهر) 202/

البوحميدي 9/45/46/67/72/73/74/75/104/111/121/140/154/164/170/172/ 174/175/176/

البوربون 17/

بوزيان (القائد) 44/59/190/191/

بوشليجة 85/88/90/95/98/103/146/153/

البيبان (مضيق) 115/

بيجو (الجنرال) 10/63/86/89/90/97/98/104/110/111/154/156/162/166/ 169/207/

بيكارد 15/

حرف التاء :

تازا (المغربية) 5/6/28/31/33/34/35/36/39/42/44/45/58/61/63/191/193/ 195/196/

تازا (الجزائرية) 104/129/

تافنا (نهر) 15/17/46/62/63/65/70/89/103/110/168/169/187/

تكدمت 5/6/7/9/10/13/20/48/49/59/69/85/87/88/89/90/93/94/95/97/
101/103/104/106/112/119/120/122/133/138/141/142/144/145/146/
147/149/155/156/157/159/160/165/166/
تلمسان 6/7/10/21/31/34/39/44/45/46/48/53/63/64/65/66/67/68/69/72/
74/75/76/88/90/110/111/112/117/118/127/129/133/134/135/170/173
174/175/178/179/185/188/203/
تمبكتو15/45/50/127/152/153/
تنس 113/118/
التيجاني 112/
تيطوان 6/9/19/20/21/22/25/28/33/45/47/51/73/79/84/166/170/184/179/
200/
تيطر ي 202/

حرف الجيم :

جبل طارق 5/10/14/19/45/46/47/58/200/
الجبل الأخضر 85/
الجزائر6/7/8/9/10/15/16/20/49/68/80/82/83/84/87/90/102/109/114/
127/142/175/192/
الجز يرة الخضراء 14/
جعد (بنو) 156 /
جيز وت 13/
الجيلالي (سي) 90/122/124/126/140/142/154/156/
حينجيت (الجنرال) 102/

حرف الحاء :

الحراش 92/
حمدان خو جه 19/
الحميان 60/

حرف الخاء :

خوسي (الدون) 20/66/67/

حرف الدّال :

دافيد صون 153/

دلس 112/156/

دوكاس 85/86/114/129/

دوماس (الجنرال) 87/103/113/

دومينجو 23/26/37/38/162/

ديمشال (الجنرال) 147/

حرف الراء :

رفائيلو 21/26/40/41/143/

الر باط 33/

حرف الزاي :

الزمالة 7/15/21/90/91/93/95/98/99/104/107/120/131/134/139/140/141/142/144/154/155/156/158/165/

حرف السين :

سبتة 14/19/40/

سبو (نهر) 33/199/

سرقسطة 196/

سطيف 112/

سكاك (وادي) 70/

السودان 71/

سور الغزلان 115/202/

سور ية 153/

سوق حمزة 115/
سيدي عيسى 202/
سيدي فرج 201/
سيق (نهر) 172/

حرف الشين :

شارل العاشر 135/
شرشال 95/118/
الشفة (نهر) 201/202/
شلف (نهر) 84/85/86/130/141/202/
شمهة (قرية) 26/

حرف الصاد :

الصويرة 17/

حرف الطاء :

طالب (الحاج) 28/33/36/39/42/46/51/53/57/71/149/
طرابلس 59/71/169/
طنجة 17/25/169/170/184/199/
الطيب (المولى) 146/158/159/162/

حرف العين :

عبد الرحمن (السلطان) 10/17/30/62/70/74/138/140/153/185/
عبد القادر (الأمير) 5/6/7/9/10/14/15/16/20/21/22/28/29/33/39/45/46/48/ 49/51/52/62/63/66/67/69/70/84/85/86/94/98/99/103/105/107/108/ 109/111/114/118/119/126/128/138/141/143/145/146/183/185/191/ 202/

عبد الكريم 21/26/35/57/

عبد المجيد (السلطان) 19/
عبو (ابن) 103/104/157/164/
عراش (ابن) 89/113/130/144/145/154/155/159/
العريش (مدينة) 25/27/
علال (ابن) 86/92/102/112/116/126/140/142/143/202/
عمور (جبل) 133/

حرف الغين :

غرداد (قرية) 26/27/
غليزان 85/130/

حرف الفاء :

فاس 10/24/26/28/29/30/33/34/36/39/42/43/44/45/46/53/57/58/69/71/
79/127/133/136/137/138/152/166/170/188/194/195/196/198/194/
195/196/198/
فالي (المريشال) 86/89/115/207/
فرديناند (السابع) 13/135/136/
فرنده 85/
فرنسا 15/16/19/28/82/88/91/126/135/147/148/163/191/204/205/
فلسطين 60/
فلورنس 71/
فيجره (معاهدة) 13/
فيجو (منديز) 14/

حرف القاف :

قصر البخار 202/
قصر عين ماضي 112/
القصر (مدينة) 25/199/

قسطنطينية 127/
قسنطينة 112/ 115/ 207/ 208/
القنيطرة 33/

حرف الكاف :

كارلوس (الدون) 6/13/45/136/137/
الكاف (قرية) 181/182/183/185/
الكانم 71/
كروتز 155/
كريستين (الملكة) 136/
كلوزيل (الجنرال) 168/
كندا 153/
كنديدو 21/31/40/50/133/176/177/178/185/

حرف اللام :

لاموريسيير (الجنرال) 86/94/97/
لمدية 84/87/112/
لندن 7/153/
لوبلان 33/
ليون روش 7/9/112/169/
لويس فيليب 89/101/136/137/

حرف الميم :

مادلينه 21/23/26/28/90/
مازونه 106/110/143/
المالح (النهر) 60/61/210/
مالي 71/
مانوتشي (نويل) 6/10/14/21/22/23/24/26/28/29/30/31/32/35/41/43/51/
57/58/74/75/82/95/103/107/133/138/160/163/177/

مانوتشي (نيقولا) 118/119/123/140/150/154/162/206/

ماصون 93/

متيجة 86/201/202/

محمد علي 11/107/139/

محي الدين (الصغير) 86/202/

مدريد 14/137/

مراكش 71/

مرسيليا 118/

مزرقان 201/202/

مستغانم 15/97/104/105/129/130/141/143/144/149/159/162/163/172/201/

مصر 65/161/

مصطفى بن اسماعيل 7/66/

مصطفى التهامي 104/105/128/130/140/141/

المغرب الأقصى 7/10/15/19/21/26/36/37/45/46/62/71/83/87/107/127/151/165/

معسكر 15/48/69/70/74/75/76/81/94/103/104/105/107/109/113/117/118/119/120/121/125/128/130/134/135/139/142/143/145/155/163/

مقرة ،(نهر) 165/

المقطع 193/

مكه 53/161/

مليانه 10/84/85/86/90/95/102/103/112/115/118/129/142/156/175/

ملويه (نهر) 30/60/

مليله 30/40/94/

موراطو(الجنرال) 13/

موسكو 97/

مولاي اسماعيل (قرية) 25/

د. كمال بن صحراوي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
جامعة ابن خلدون - تيارت

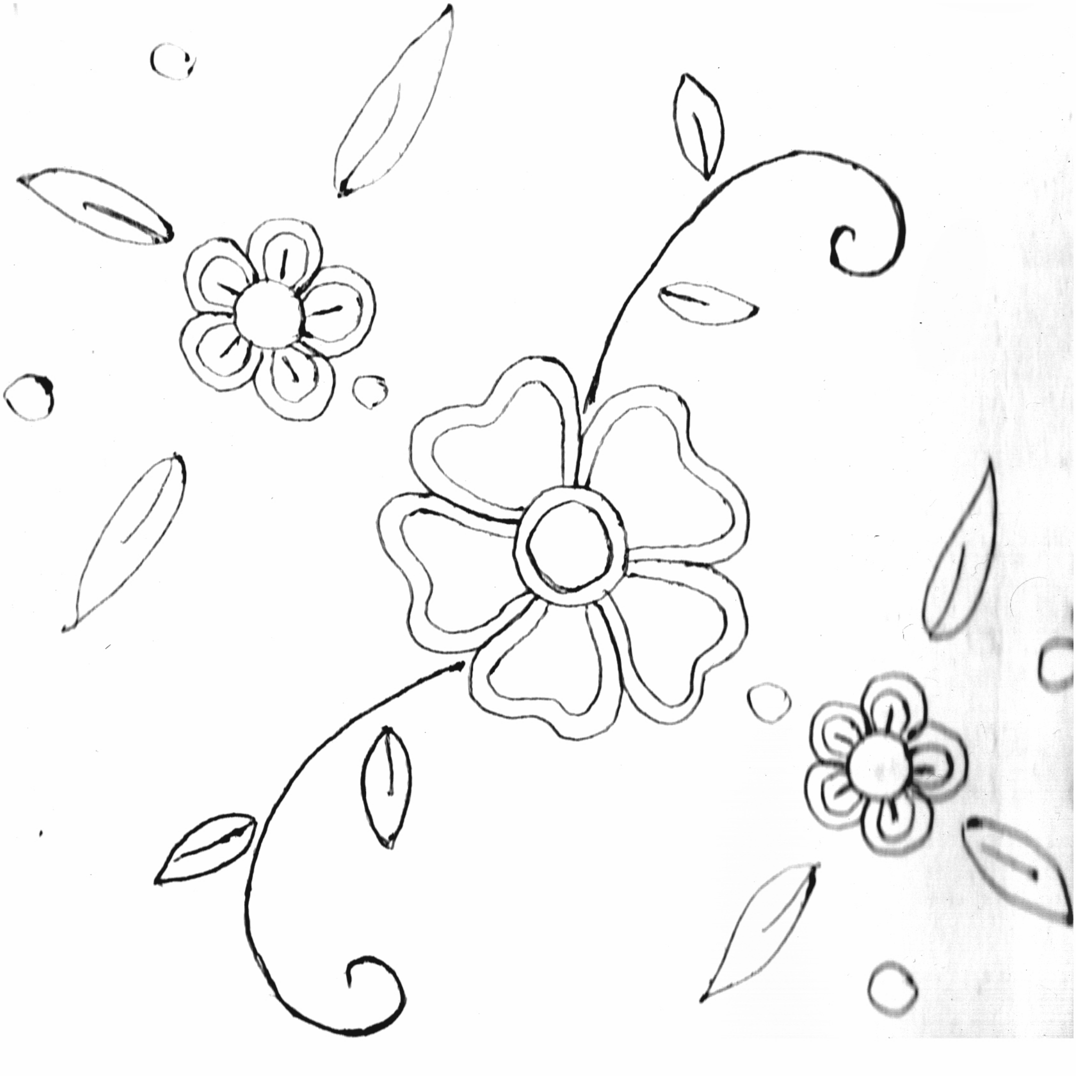

إنّ الأمير عبد القادر هو نابليون الشرق . وأنا أتضرع إلى الله أن يجعل نهاية حياته أفضل من حياة سجين سانت هلين البائس !

وفي هذه الحالة ، أستطيع أن أعرب عن أملي ، بل وعن يقيني ، بأن الجزائر التي تكون خاضعة لسياسات سمّو الأمير المتحررة ، ستصبح عمّا قريب واحداً من البلدان المستنيرة ومن أعظم المراكز الحضارية في العالم .

الكولونيل سكوت .

السعر في الجزائر . 43,00 د.ج